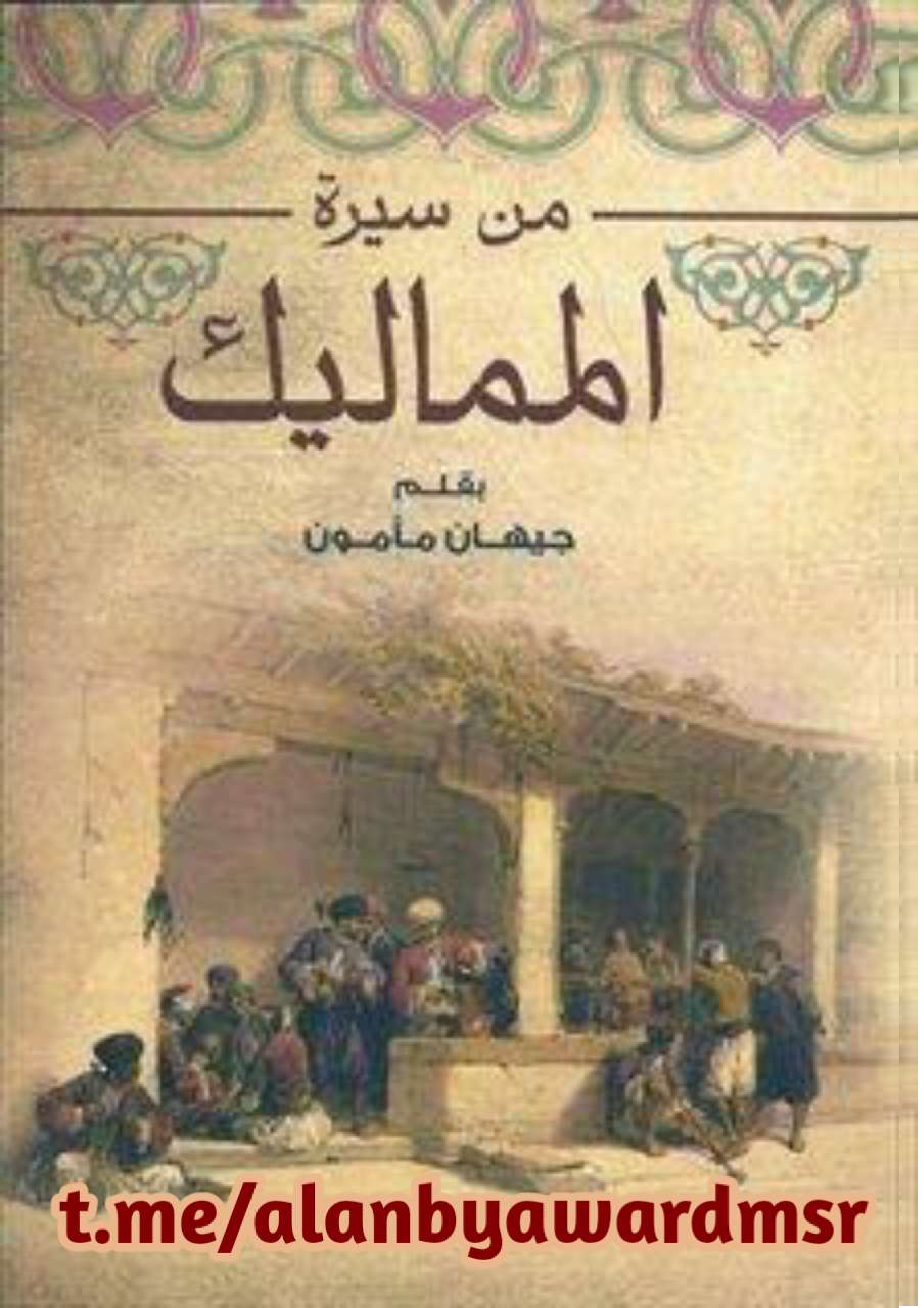

من سيرة
المماليك
بقلم
جيهان مأمون
t.me/alanbyawardmsr


جميع الكتب مجانية

مقدمة

مصر نبع الدفء والحضارة، واحة الأمان، وملاذ الغريب، على مر العصور اجتذب سحرها الرحالة وألهب ثراؤها خيال المبدعين، تاريخها مفعم بعبق الماضي، كل شبر وحجر يحمل بصمة الإنسان المصري وينطق بعظمة أهلها.

مدينة القاهرة من أقدم العواصم في العالم، ضمت بين جنباتها ملامح كل العصور، تبرز مبانيها القديمة عبقرية العصر الذهبي للعمارة والفنون، وتعكس شوارعها طبيعتها المتوهجة وشخصيتها المتفردة فتبرهن على مدى البهاء والعظمة اللذين كانت عليهما المدينة في الأزمنة الخالية.

ينساب الزمان كقبضة من الرمال وسط أرجاء الكون الفسيح، ألتفت للخلف لأناجي الماضي البعيد، أتلمس بصمات الأمس التي كانت وجودًا نابضًا وصارت اليوم ذكريات، تتحرر روحي من الزمان والمكان، أتخيل نفسي في عالم زال منذ وقت بعيد، أنفذ من زمن إلى زمن، يتمثل الماضي حيًّا تعود إليه الروح وتتفجر فيه نبضات الحياة فيتجلى سحره الغامض ويبوح بأسراره، تتراءى لقلبي المدينة العتيقة في سالف الدهر، أمضي في دروب الماضي التي لم أسلكها من قبل، أسمع نغمات غير مألوفة لسمعي، أرى ديارًا بيضاء لا عهد لي بها، وأخيرًا أجد نفسي أمام مكان يعرفه قلبي فأقف مشدوهة أمام أسرار القاهرة المملوكية العريقة، أجتاز البوابات الحجرية الضخمة وأطوف بالشوارع المتعرجة، أجوب وسط الأحياء التي يسري صفو الهدوء في جوها فيمس وجداني حياة الناس البسيطة التي يفيض منها دفء المشاعر الإنسانية وتسحرني الروائح العطرية، هي مزيج من العنبر والمسك، وثياب الناس الزاهية التي تضفي عليهم سحرًا وجمالًا، أتنسم عبق الماضي، أتشرب بروحه فأذوب في عشق كل حجر ومبنى ولوحة قديمة تحمل بصمات أهلها.

هيا نتوغل في عالم المماليك الساحر الذي يُعد من أزهى العصور الإسلامية، فلنغص في أعماق دولة لا يوجد لها مثيل، ففي السابقة الأولى من نوعها في التاريخ يجلس على عرش مصر أرقاء يباعون ويشترون في الأسواق ويحكمون العالم الإسلامي لأكثر من قرنين من الزمان، وتحول الرقيق المسترقون إلى ملوك وسلاطين، تباعدوا عن أوطانهم وذويهم أطفالًا فصارت مصر لهم وطنًا لا يعرفون غيره غزوا في سبيلها، صدوا الزحف المغولي عن العالم الإسلامي واستطاعوا القضاء على جيوش الصليبيين وكونوا إمبراطورية شاسعة الأرجاء ضمت مصر، الشام، الحجاز، اليمن وشمال الفرات فنالوا الشهرة والمجد. ويتبوأ العصر المملوكي مكانة بارزة بين عصور التاريخ الإسلامي.

المماليك هم طبقة من الرقيق الأبيض ترجع أصولهم للجنس التركي أو الجركسي تلقوا قسطًا كبيرًا من التعليم والتدريبات العسكرية حتى صاروا فرسانًا وحكموا مصر في عصرين؛ عصر المماليك البحرية وعصر المماليك البرجية، وترجع تسميتهم بالبحرية لإقامتهم في جزيرة الروضة في النيل، أما البرجية فاكتسبوا تسميتهم لإقامتهم في أبراج قلعة الجبل، وقد أطلق عليهم أيضًا المماليك الجراكسة نسبة لأصلهم الجركسي. وقد افتقد المماليك صفة الشرعية في الحكم لكونهم من الرقيق وبذلوا مجهودات عظيمة في بداية حكمهم لاكتساب هذه الصفة، فأحيا الظاهر بيبرس البندقداري، الذي تأسست دولة المماليك على يده، الخلافة العباسية، وجعل مصر مقرًّا لها بعد أن خرب التتار بغداد (1258م) فصارت مصر قلب العالم الإسلامي النابض. والفرق بين العبد والمملوك أن العبد أبواه مملوكان وكان الغرض من شرائه العمل بالخدمة، أما المملوك فأبواه حرَّان، وكان الغرض من شرائه الاستعانة به كجندي أو كفارس، ولم يكن لفظ مملوك يشين صاحبه بل كان مدعاة للفخر. وأول من استخدم المماليك في مصر هم الطولونيون، وكثرت أعدادهم في العصر الأيوبي عندما استقدم آخر سلاطين الأيوبيين الصالح نجم الدين

أيوب أعدادًا كبيرة منهم. شهد عصر المماليك نهضة اقتصادية واسعة وصارت القاهرة حاضرة للخلافة الإسلامية، وتبوأت مكانتها كمركز ثقافي اجتذب العلماء والأدباء من سائر أنحاء العالم، وقد نقش سلاطين وأمراء المماليك تاريخهم على جدران العمائر المتعددة التي شيدوها لتبقى شاهدةً على روعة هذا العصر. ولا تنتهي صراعات المماليك؛ ولكن الخوض بين ثناياها يفتح آفاقًا من المشاهدات الممتعة التي تجسد نماذج إنسانية ليست بعيدة عن حياتنا، تصور تشابك عناصر الخير مع عناصر الشر وتظهر حقيقة الفرد والمجتمع في عالم ولى منذ أكثر من خمسمائة عام.

نشر الإسلام مبادئ التوحيد والعدل والمساواة بين شعوب العالم، وتلقى الفن المعماري هذه الرسائل، وترجمها إلى أشكال ورموز حققت التوازن التام بين الجوانب المادية والمشاعر الروحانية، فالمنشآت والعمائر القديمة ليست أحجارًا صماء مصمتة، فلو تفكر الإنسان لوجدها تخاطب الوجدان قبل العقل، فالجوامع ليست ساحات ومآذن وقبابا، فهي بقع مقدسة تطهر النفوس من شوائب الحياة وترتقي بالحالة الإنسانية، والوكالات ليست حجرات ومخازن فهي مأوى آمن للتجار الغرباء تستقبلهم بترحاب وتأويهم بين جدرانها، والمقاهي ليست دككا ومقاعد وأكوابًا، فهي أماكن للالتقاء تفتح آفاقا رحبة للتواصل الإنساني بين مختلف النماذج من البشر، أما البيوت فهي الحضن الدافئ لسكانها، جدرانها تحوي ذكرياتهم، وأحجارها ترسم ملامحهم، ومشربياتها تروي لنا سيرتهم.

يقطع أفكاري صوت الدراويش في طريقهم للتكايا بملابسهم الصوفية الخشنة، ويتردد صدى أذكارهم وابتهالاتهم في شوارع القاهرة فيفسح المارة الطريق، تعلو زغاريد النساء من فوق الأسطح وتمتلئ الطرق بالجموع المحتشدة لمشاهدة موكب المحمل الشريف الذي يجوب شوارع القاهرة في طريقه إلى الحجاز يتبعه الأمراء وقارعو الطبول فتسود البهجة في الجو، يلوح في الأفق موكب أم السلطان يتقدمها الفرسان لملاقاة ابنها الملك الأشرف «شعبان» الذي لا تساوي كل كنوز الدنيا رضا أمه، ففرش لها الأرض بالورد، تسوقني قدماي إلى ميدان الرميلة تحت القلعة، فيشق السكون صراخ النساء في الحرملك بقلعة الجبل، لقد عزل الأمير طاز السلطان حسن من الحكم وحبسه داخل دور الحرم، من يستطيع التصدي لهذا الداهية؟ يخرج من وراء قضبان خزانة شمائل الملاصقة لباب زويلة صوت واهن يئن من فرط الألم؛ إنه المؤيد شيخ يطلب من الله في سجنه الفرج وهو لا يعلم أنه سيصير سلطانًا لمصر بعد سنوات قليلة، يقف على قارعة الطريق الصديقان سنجر وسلار أمام المدرسة الجاولية التي شيداها معًا، لقد عاشا كأخوين وماتا كأخوين ولم يفرقهما حتى الموت، يمر محتسب القاهرة يتبعه رجاله لمراقبة انضباط الأسواق فيفر المخالفون هربًا من الضرب بالفلقة، ويظهر الحاوي من بين الدروب الضيقة بأدواته السحرية يتبعه القرداتي لتقديم عروضهما مقابل بارات قليلة، فألمح عيون النساء وهن يتطلعن بشغف لمشاهدة العرض من وراء المشربيات، يا له من عالم فريد توارى بين طيات الزمان!

يمر زمان وراء زمان، أستعيد همسات الماضي الدافئة، أجمع الصور المتبقية في ذاكرتي وأنا أتجاوز أسوار بيت جدتي القديم، أتأمله بصمت؛ لقد فقد حيويته مع فقدانه سكانه، أنظر للجدران العتيقة المتداعية التي ترك عليها الزمان آثاره، تلامس الذكريات أناملي، تتسرب الأنغام القديمة التي خفتت منذ أمد بعيد إلى روحي فأتنسم عبير الأيام المولية وأصداءها المتباعدة، تهمس لي الأحجار الضخمة، كل حجر يستدعي ذكرى معينة في نفسي، كفي الصغيرة المعلقة في كف جدتي، أريج أشجار الفل، رفرفة الحمام الأبيض في الشرفات، يتردد بداخلي صدى أصوات أهل الدار الذين طواهم الزمان، أسترجع أحاديثهم العذبة التي تقطر بالود والحب، ظل شجرة الجميز بأغصانها المتشعبة التي تعانق الفناء كالأم الحنون، صدى السلالم الخشبية التي تنبه أهل البيت بقدوم الزائرين، تشابك المشربيات المرتفعة التي كانت تعلو أفقي الصغير كعلو النجوم في السماء، أصبح حنيني جارفًا إلى تلك الأيام البعيدة التي بهتت معالمها، لكنها تجعلني أنتشي

باحاسيس ظننت انني طويتها للابد.

فلنفتح صفحات من الماضي، فلنعد لتاريخنا الروح ليبوح بأسراره ويكشف لنا عن خبايا العصر المملوكي فيضيء حاضرنا.




جميع الكتب مجانية

سنجـــر وســـلار

هناك شخصيات يجب أن يتوقف عندها التاريخ يبعث فيها الحياة ويكشف نقاء سرائرها حتى تظل نابضة في ذاكرة الزمان، وهناك شخصيات يجب أن يقف لها التاريخ بالمرصاد ليكشف مساوئها وزيف بواطنها حتى يهوي نجمها ويخبو ذكرها. بطل الأحداث شخصية متوارية بين صفحات التاريخ أعاد إحياء سيرته تشابه مطامعه مع مطامع النخبة الفاسدة الذين ظهروا على ساحة الأحداث في الآونة الأخيرة، خانوا ضمير الأمة وحاولوا نهب ثروات مصر فانزلقوا إلى الهاوية.

سيف الدين سلار، سياسي بارع عاش في العصر المملوكي منذ أكثر من سبعمائة عام واستغل بريق منصبه كنائب للسلطنة فجمع ثروة طائلة بلغت الثمانمائة مليون دينار من الذهب حتى صار قارون زمانه، تدثر بالعز والجاه، ورفل في النعيم والترف، وتعجز الأقلام عن وصف خزائن أمواله ومجوهراته، ولكن المال لا يشتري السعادة، والدهر لا يسير على وتيرة واحدة، فانتهت حياته نهاية مأساوية بعد أن تغير عليه خاطر السلطان.

نعود بجذور قصتنا إلى العصر المملوكي، كان يتم إحضار المماليك الصغار من سائر البلدان وينشئون معًا كأفراد العائلة الواحدة في معسكرات صارمة يطلق عليها الطباق؛ حيث يتلقون التربية الدينية والتدريب العسكري، وكل مملوك ينتسب إلى صاحبه الذي اشتراه يتلقب باسمه ويدين له بالولاء والطاعة، وكانت عناية الأستاذ بمماليكه فائقة، وتكون الرابطة القائمة بينهم مبنية على الحب، ولا يتوانى المملوك عن التضحية بحياته في سبيل أستاذه. ويطلق على المماليك الذين يشتريهم الأستاذ نفسه في فترة زمنية متقاربة لقب «خشداشية» وهي تعني الزملاء، وتكون زمالتهم من أقوى الروابط الشخصية التي لا تضعف مهما توالت الأعوام وفرقتهم الأيام.

جلب النخاسون سيف الدين سلار وصديقه سنجر الجاولي طفلين إلى مصر حيث تم بيعهما في أسواق النخاسة وجمع بينهما القدر كفرسان في بلاط أسرة قلاوون فتوطدت أواصر الصداقة بينهما واشتهرا بين المماليك بعلاقتهما القوية، وبعد أن تخرجا من الطباق لمع نجم سيف الدين سلار وترقى في المناصب حتى صار نائبًا للسلطنة في حكم السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون، وتبوأ مركز الرجل الثاني في الدولة وأصبح من أعظم أمراء المماليك، أما صاحبه علم الدين سنجر الجاولي فقد تقلد منصب (أستاذ دارية) يدير أمور الخزانة؛ أي بمثابة وزير المالية اليوم، وبلغ من مرتبة الأمراء مقدمي الألوف أمراء المئين وهي من أعلى الرتب العسكرية. كان سلار رجلا تتري الأصل، أسمر اللون، صغير اللحية اتصف بشجاعته وهمته العالية وعزيمته التي لا تفتر، أما سنجر فكان رجلًا ضخمًا طويل القامة، ولد بمدينة آمد بالعراق ولم يؤثر بريق المناصب على صداقة سنجر وسلار التي دامت طيلة حياتهما.

أقام سلار في دار تقع بين القصرين بالقاهرة، واستطاع تكوين ثروة طائلة، ودونت كتب التاريخ مدى ثرائه الفاحش، ويذكر المؤرخ ابن دقماق أن دخل سلار في كل يوم من أجرة أملاكه كان قرابة المائة ألف درهم. عاش سلار مرفهًا كالملوك، عني بملابسه عناية شديدة، وكان يرتدي الأقبية القطنية المطعمة بالفراء والمطرزة بحبات اللؤلؤ والمرصعة بالأحجار الكريمة حتى صار الناس يطلقون على هذا النوع من العباءات القباء السلاري نسبة إليه، كما ابتكر نوعًا من المناديل أطلق عليها أيضًا المناديل السلارية وآلة حرب نسبت إليه.

وعلى الرغم من حبه لجمع المال كان سلار رجلًا كريمًا يغدق الصدقات على المحتاجين بدون حساب، وعندما أدى فريضة الحج للمرة الثانية قال لعماله: إنه يريد أن يعمل خيرًا ما سبقه إليه

احد قط، وطلب منهم تحميل قناطير الذهب والفضة واصطحبوا ثماني مراكب محملة بالغلال والدقيق والسكر ليتم توزيعها على الفقراء في مكة والمدينة، وكان العمال يقولون في طوافهم (يا سلار كفاك الله هم النار)، ولما رجع إلى مصر أراد عماله أن يرفعوا حساب ما تم إنفاقه في هذه الرحلة فرفض سلار وقال: «مال أنفقناه في سبيل الله من وجه حل فنرجو قبوله ولا ينبغي أن نحاسب فيه».

كانت وراثة العرش عند المماليك للأكثر فروسية، فالموهبة العسكرية هي المؤهل للصعود لكرسي السلطنة الذي يتبوؤه الأقوى والأصلح، فإذا أظهر المملوك نبوغًا عسكريًا فإنه يترقى في المناصب ويصبح قائدًا لغيره من المماليك، وقد يصل إلى درجة أمير. وبرغم أن المماليك لم يؤمنوا بمبدأ توريث العرش إلا أن أسرة قلاوون في عصر المماليك البحرية خرجت عن هذه القاعدة وحكمت ما يقرب من القرن من (1279 - 1382م) وتميزت مدة حكمها بالازدهار. تولى الملك الناصر محمد بن قلاوون عرش مصر وعمره ثماني سنوات، ولصغر سنه تم خلعه مرتين في الصراع الإنساني الأبدي على السلطة، ثم عاد للحكم (1299م) وعمره أربعة عشر عامًا وبدأت سلطنته الثانية واتفق الأمراء على أن يتولى الأمير سيف الدين سلار وظيفة نائب السلطنة والأمير بيبرس الجاشنكير وظيفة الأستادار أي المتولي لأمور الخزانة، وتحكما في السلطان الصغير وصارا هما الحاكمين الفعليين للبلاد. وفي عام (1308م) ضاق صدر الناصر محمد من سيطرتهما المطلقة على السلطة فأعلن عن ذهابه إلى مكة للحج ولكنه توجه إلى مدينة الكرك التي يقول عنها الجغرافي ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان إنها قرية في أصل جبل لبنان، وقرر الناصر محمد الإقامة بها وقال: «دعوني في هذه القلعة منعزلا عنكم إلى أن يفرج الله تعالى إما بالموت وإما بغيره»، ولم يكن الناصر محمد يقصد التنازل عن العرش ولكنه أراد الاتصال بأمراء الشام حتى يتمكن من فرض سيطرته على مصر بدون أوصياء. وتشاور الأمراء واجتمعوا على تعيين سلار سلطانًا على مصر ولكنه رفض العرش الذي أتاه طواعية على طبق من ذهب وأعرض عن قبول المنصب الذي تطمح إليه قلوب الرجال، فبايع الأمراء بيبرس الجاشنكير بالسلطنة بعد خلع الناصر محمد بن قلاون وتلقب بالملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير، وحملت القبة والطير على رأسه ومشت الأمراء بين يديه وجلس على سرير الملك، واختار سلار نائبًا للسلطنة فكانت هذه هي ولايته الثالثة.

وبعد أن تولى الملك المظفر بيبرس الجاشنكير الحكم لم يستطع اكتساب محبة الناس لقسوته، وطرأت عدة أحداث مؤسفة، فعم البلاد جفاف شديد، وسادت مجاعة طاحنة تلاها زلزال هدم الكثير من الديار والمساجد فتشاءم الناس من حكم بيبرس الجاشنكير وصاروا يسخرون منه في أغنياتهم. وأخذ سلار على عاتقه مهمة إصلاح مساجد القاهرة التي أتى عليها الزلزال مثل جامع الصالح طلائع والجامع الأزهر الشريف وجامع عمرو بن العاص الذي كان تأثير الزلزال عليه شديدًا حتى عادت كما كانت.

ونعود للشام حيث قرر الناصر محمد بن قلاوون استرداد عرشه فجمع الأمراء وعاد إلى مصر لخلع بيبرس الجاشنكير التي لم تزد مدة سلطنته على عام واحد فقط (1308 - 1309م). وما إن خرج الملك المظفر بيبرس الجاشنكير من مصر فارًا إلى أطفيح حتى جمع سلار كل الأمراء بقلعة الجبل وأخرج كل الموالين للناصر محمد من سجن القلعة ونادى في الناس (ادعوا لسلطانكم الناصر محمد)، وكتب إليه بنزول المظفر بيبرس الجاشنكير عن الملك، فوصل الملك الناصر مصر في موكب عظيم (1340م) حيث كان سلار والأمراء والعسكر في انتظاره ببركة الحجاج، ودخل القلعة وعمت الأفراح وتجمع الناس في ميدان الرميلة تحت القلعة لتهنئة سلطانهم المحبوب، وأمد الأمير سلار السلطان بالمماليك والخيول والجمال والأقمشة من ماله الخاص.

واستمر حكم الناصر محمد في المرة الثالثة اثنين وثلاثين عامًا كانت من أزهى عصور حكم المماليك البحرية، شهدت فيها البلاد نهضة حضارية وعمرانية كبيرة وعم الهدوء والرخاء. كان

الناصر محمد رجلاً عاقلاً وسياسيًا حكيمًا ادار شئون البلاد باقتدار وخفف الضرائب عن كواهل الناس، ولكن على الرغم من شخصيته الرائعة التي جعلته جديرًا بأن يلتف حوله الرجال لم ينس الناصر محمد الإيذاء الذي تعرض له بخلعه من كرسي السلطنة مرتين فطغى على نفسه ميل شديد إلي الثأر وعمت الطامة على الجميع. وكان أول ما فعله الملك الناصر أن بدأ في تنفيذ سياسة الانتقام من أمراء الحقب السابقة الذين أساءوا إليه وهو صغير وتآمروا عليه وهو كبير، وأخذ يتخلص من خصومه، وقام بإلغاء بعض مناصب الدولة ومنها منصب الوزير، وقبض على العديد من الأمراء وحبسهم بالإسكندرية ثم بدأ يجهز للانتقام من بيبرس الجاشنكير وسلار.

استدعى الناصر محمد القضاة وأخذ موافقتهم على استباحة أموال بيبرس الجاشنكير وسيف الدين سلار، وقرر أن يستولي على نصف ثرواتهم لنفسه، وكان استدعاؤه للقضاة ليضفي صفة الشرعية على مصادرة هذه الأموال والضياع والأملاك. طلب بيبرس الجاشنكير الأمان من الناصر محمد ورفض مقاتلة الجنود الذين جاءوا لإلقاء القبض عليه وقام بتسليم نفسه طواعية لأمير مدينة غزة الذي نقله مقيدًا إلى قلعة الجبل، كما رد الأموال التي استولى عليها قبل فراره من القلعة، ولما مثل بين يدي الملك الناصر امتثل خوفا وهلعًا وأخذ السلطان يوبخه ويعنفه ويذكره بما فعل به، وبعد أن عدد له إساءاته أمر بإعدامه ولم تنفعه شفاعة الشافعين.

ومن الناحية الأخرى أعلن سيف الدين سلار خضوعه وإخلاصه للناصر محمد، وطلب أن يعفيه من نيابة السلطنة وأن يعطيه الأمان ويسمح له بمغادرة البلاد ليقيم بالقدس، وطلب أن ينعم عليه بحكم الشوبك وهي قلعة حصينة تقع في أطراف الشام، فقبل الناصر محمد في أول الأمر وعين سلار واليًا على الشوبك وسمح له بالسفر على أن يلبي طلبه عند استدعائه في أي وقت، وسافر سلار إلى الشوبك مطمئنًا.

ولكن بعد فترة قصيرة تغير خاطر الناصر محمد على سلار وغضب عليه غضبًا شديدًا فأرسل إليه كتابًا يستدعيه للحضور إلى مصر، وعادة يتغير خاطر السلطان لأسباب عديدة منها الوشاية، التأليب من قبل بعض المحيطين، الشعور بتهديد العرش، أو التجاوز في الأفعال، وعندما يتغير خاطر السلطان غالبًا ما يلقى المغضوب عليه حتفه بالطريقة التي ترضي السلطان. وتوجس سلار من هذا الطلب المفاجئ واستشار أصحابه فأشاروا عليه بالفرار إلى أي قطر من الأقطار ليفلت من عقاب السلطان فاعتذر سلار عن عدم الحضور زاعمًا أنه مريض. ولمعرفة الناصر محمد بالصداقة الحميمة التي تربط بين سنجر وسلار قرر أن يستخدم سنجر كأداة للضغط، فبعثه إلى الشام بصحبة بيبرس الدوادار لاستدعاء سلار الذي قرر العودة ليواجه مصيره واصطحب معه أربعمائة وستين فارسًا، وحين وصل سلار عاتبه السلطان عتابًا شديدًا وانقلب تراؤه وبالا

عليه وأمر (بالترسيم عليه) أي باعتقاله، وأصدر أمرًا للأمير سنجر الجاولي (بالحوطة على موجوده) أي مصادرة ممتلكاته وأرسله إلى سجن الجب بقلعة الجبل. ولابد أن مشاعر سنجر قد تضاربت بين ولائه لصديقه وبين تأدية واجبه؛ فمنصبه (كأستاذ دارية) يحتم عليه الإشراف على مثل هذه المصادرات، ولكنه كان يرجو ألا يطلب منه السلطان تأديب صديقه وهو لا يستطيع إلا الإذعان لرغباته، وأسف سنجر على سلار الذي آل لهذه النهاية المأساوية بعد طول عز وجاه.

وبدأت إجراءات المصادرة وفتح سلار سردابًا تحت الأرض وأخذ يسلم كل ثروته التي تم تحميلها على أكثر من خمسين جملا، وكانت تتكون من قناطير الذهب والفضة والجواهر وفصوص الياقوت الأحمر والكهرمان والزمرد واللؤلؤ والسروج المصنوعة من الذهب، واللجم المفضضة والطاسات الفضية والأهوان الذهبية والأقمشة المزركشة وغير ذلك. ويتعجب ابن إياس في كتابه بدائع الزهور من عظم ثروة سلار، ويتساءل: كيف استطاع اقتناءها وقد مكث نائبًا للسلطنة لمدة أحد عشر عامًا فقط، ويبرر قائلًا: ربما كان أصل ثروة سلار العظيمة بسبب عثوره على كنز من كنوز القدماء أو بسبب الاستيلاء على أموال وتحف وخزائن بيت المال عندما توجه الناصر محمد إلى الكرك وكانت مفاتيح بيت المال بيد سلار، فهل استغل سلار منصبه ونفوذه لتكوين ثروة ضخمة بطريق غير مشروع؟ وهل اغتصب هذه الأموال التي

تخص عامة الشعب؟ ما أشبه اليوم بالبارحة ولا يزال سلار يسعى بيننا بعد مرور حوالي سبعمائة عام، ولا يعلم غير الله من أين اكتسب ثروته وفيم أنفقها؟ واندلعت رغبة الملك الناصر في الانتقام وتملكت علي عقله وجوارحه فأمر بأن يبنى على سلار أربعة حوائط في مجلسه في سجن القلعة، وظل سلار وحيدًا بين جدران السجن الباردة تتردد أنفاسه المثقلة بين طيات الوقت الذي صار بلا ملامح، فما أثقل الإحساس بالهوان بعد العزة، والشقاء بعد النعيم والأسر بعد الحرية.

وأثناء وجود سلار في السجن أرسل له الناصر محمد طعامًا فتوجس منه خيفة، ورفض أن يأكله فعلم الملك الناصر واشتد غضبه، وأمر أن يبقى سلار في سجنه بدون طعام فبقي سبعة أيام لا يطعم ولا يسقى وهو يستغيث من الجوع، فأرسل إليه السلطان بثلاثة أطباق مغطاة بسفر الطعام فلما أحضروها بين يديه فرح ظنًا منه أن في الأطباق ما يجعله يتمسك بأسباب الحياة، فلما كشفوها إذا في طبق ذهب وفي الآخر فضة وفي الثالث لؤلؤ وجواهر، فوجم سلار وتبددت آماله ولم يقل سوى: «الحمد لله الذي جعلني من أهل المقابلة في الدنيا» وبقي ساكنًا في حاله. وبعد أن مضى اثنا عشر يومًا رق قلب الملك الناصر على سلار فأرسل له من يبشره أنه عفا عنه فدخلوا عليه وقالوا: «السلطان قد عفا عنك» فقام من شدة الفرح ومشى نحوهم بخطوات متعثرة، وفجأة تلاشت الأضواء من عينيه وسقط مفارقًا للحياة، وسكن جسده إلى الأبد في مشهد مفجع يصور مدى العجز الإنساني. ومات سلار من الجوع (1310م) بعد أن أكل ساق سرموزه أي خفه وكان أكبر شهوته رغيف خبز يابسًا، وكان في مخازنه يوم أن مات من الغلال ما يزيد على أربعمائة ألف إردب أي ما يكفي لإطعام بلد بأسرها، ولم يستطع إطعام نفسه. وبعد وفاة سلار عهد السلطان الناصر محمد إلى صديقه سنجر الجاولي بأن يتولى أمر دفنه بضريحه، وجاشت أشجان سنجر على فراق صديقه الأبدي. وبعد وفاة سلار شغل سنجر منصب ناظر البيمارستان القلاووني وقد توفي الناصر محمد (1341م) وسنجر ناظرًا للبيمارستان فقام بدفنه بمدفنه الحالي بمجمع قلاوون، وتوفي سنجر (1346م) بمنزله بالقرب من باب النصر وقد قارب المائة عام، ودفن بجوار صاحبه بمدرسته.

سنجر وسلار صديقان جمعهما رباط الصداقة المقدس في الحياة وفي الممات فلم يفرقهما حتى الموت، روحان اجتمعا على خطى واحدة، اجتازا معًا دروب الحياة، تقاسما الألم والسعادة، لم تفقد صداقتهما بريقها مثل الذهب، ولم يخفت رونقها بتعاقب الأعوام، واستعصى على الأيام محوها ولا تزال حروفها منقوشة على الحجر بعد مرور أكثر من خمسة قرون، ارتبط سنجر وسلار بعلاقة صداقة وأخوة دامت طوال حياتهما، تحابا في الله فقررا أن يشتركا في بناء مسجد وضريح ليكونا أخوين متجاورين في الدنيا والآخرة، فما أحوج الإنسان في كل زمان ومكان إلى قلب مخلص يصدقه في حبه ووفائه. ويحيط بمنشئ المسجد غموض، فالنصوص التاريخية المدونة عليه لم تنسبه لأحدهما، وعلى الرغم من أن المسجد أنشأه الأميران سنجر وسلار فإنه ينسب اليوم إلى سنجر، ولكن من المرجح أن يكون سلار هو المنشئ، فقد أراد في حياته أن يخلد اسمه بأثر عظيم كعادة أمراء المماليك، وربما يكون قد تم محو اسم سلار من الجامع بسبب غضب الناصر محمد ابن قلاوون عليه، ومما يدعم أن سلار هو المنشئ أنه هو الأعظم جاهًا ومالًا وأن هناك مشكاة بالجامع مدونًا عليها اسمه (مما عمل برسم تربة العبد الفقير إلى الله تعالى سيف الدين سلار نائب السلطنة المعظمة عفا الله عنه)، كما يذكر المؤرخ المعروف السخاوي أن المدرسة أنشأها الأمير سيف الدين سلار الناصري وجددها سنجر الجاولي فنسبت إليه، ومات الأميران ودفن معهما سرهما، فلا أحد يعلم أي الأميرين هو منشئ المبنى الحقيقي. وهذا المبنى نعته المؤرخ المعروف المقريزي بالمدرسة ثم عاد وسماه بالخانقاه، وتصميم المنشأة مختلف عن تصميم المدارس والمساجد، فلا هو تصميم مسجد ولا تصميم مدرسة، والنصوص التاريخية فيه لا تحدد صفته ولكنه أقرب إلى تصميم الخانقاه، والخانقاه كلمة فارسية وتعني دار الصوفية التي ينقطع فيها الدراويش للعبادة تتصاعد فيها ابتهالاتهم الجماعية وصلواتهم ودعواتهم، وأول من أدخل الخانقاوات إلى مصر هو الناصر صلاح الدين الأيوبي. بدأ البناء

(1303م) بعد ان اختار الصديقان لضريحهما المشترك ربوة صخرية بقلعة الكبش بجوار جامع ابن طولون وشيداه على الصخر مباشرة على عدة مستويات، يقع المدخل الرئيسي على ارتفاع ثلاثة أمتار ونصف من مستوى الشارع، وتنحصر قيمة هذا المسجد في واجهته البحرية التي تعتبر فريدة من نوعها بين واجهات مساجد القاهرة؛ فهي تشتمل علي قبتين متجاورتين متماثلتين إحداهما أكبر من الأخرى وهما مبنيتان بالآجر المكسو بطبقة من الجص ومضلعتان من الخارج، وتجاورهما مئذنة ذات قاعدة مربعة مبنية بالحجر تنتهي بخوذة مضلعة، وقد ظهر بها نظام الطابق المستدير لأول مرة وأصبح منذ هذا الوقت عنصرًا مهمًّا في نظام المآذن ذات المباخر. تبلغ مساحة المبنى (780) مترًا وأرضه غير منتظمة، تحتوي على مدخل جانبي مرتفع وضريحين متجاورين على خط واحد تقع في نهايتهما الخانقاه، وتشتمل على صحن حوله أربعة إيوانات وملحق به طابقان بهما عدة خلوات للمتصوفين، وقد اندثر معظمها اليوم. القبة الكبيرة دفن بها الأمير سلار، والقبة الثانية أصغر حجمًا من سابقتها دفن بها سنجر الجاولي، وهناك قبة ثالثة من الحجر خالية من الزخارف فيها قبر غير معلوم صاحبه وهي تعتبر أقدم قبة حجرية باقية من العصر المملوكي بمصر، وكانت دار الأمير سنجر تجاور الجامع ويدخل من باب ملاصق لها.

كل شيء في هذا الكون ينقضي، تحترق الكواكب، تتكسر الأمواج، تتشتت السحب، تخبو النجوم، يتغير العالم، يتبدل في كل لحظة، أما الإنسان فهو عابر سبيل يأتي ويرحل ولا يبقى منه إلا ذكراه الطيبة، وقيمته مرتبطة بما يقدمه للآخرين وبالصلات الإنسانية الراقية التي تسمو بها معاني الحياة، أما السعادة الحقيقية فتنبع من الفطرة السليمة ويقظة الضمير وبذل النفس بلا مقابل.

التكيــة المولويــة

التكية المولوية رحلة في قلب الزمان تحوي بين طياتها تراث الأزمنة المتعاقبة، توغل بداخل ماضٍ عريق لاكتشاف درة من درر التاريخ القديمة التي تبرز أجمل ما في ماضينا من سحر وجمال، جولة في قلب عالم روحي تسكن إليه القلوب فتصل جسور المحبة مع خالقها، يتلاشى فيه الإحساس بالزمن، تتجلى فيه مناجاة المحبين وابتهالات العابدين، فتصفو القلوب وترتقي الأرواح، تذوب في لحظات من النشوة تنصهر فيها كل معاني القرب.

تحوي مصر على أرضها كنوزًا من العمائر الفريدة التي تثري التراث الإنساني وتزيده روعة وجمالاً، التكية المولوية بشارع السيوفية بالقاهرة مكان لم يسمع عنه الكثيرون ويعتبر رائعة من روائع العمارة الإسلامية التي تمتزج فيها العناصر المعمارية المملوكية والعثمانية بانسجام، ومن ثراء هذه المنشأة أنها واكبت تطور الأزمنة المختلفة وتصدت لعوامل الزمان، وظلت محتفظة برونقها، ولكن تغيرت وظيفتها مع تغير العصور. ظلت التكية المولوية على مدى أكثر من سبعة قرون تعكس الفلسفة الروحية للشعوب المختلفة وترمز لاختلاط المذاهب والثقافات وتكشف عن ملامح من عشق البشر وتقديسهم للذات الإلهية، وهي ذات عمارة مكتملة الأركان؛ إذ تضم قاعة السمع والتكية لإقامة الدراويش والضريح، كما أن بها أعمدة وصورًا وخطوطا ترمز لطريقة فلسفية روحية صوفية أسسها الشيخ جلال الدين الرومي، وتعتبر هذه التحفة الأثرية النادرة من التكايا القليلة التي مازالت تمارس دورها من ضمن اثنتين وسبعين تكية مولوية كانت تنتشر في العالم الإسلامي.

المنشئ الأصلي للمكان هو الأمير المملوكي سنقر السعدي أحد أمراء الناصر محمد بن قلاوون، يقول عنه المؤرخ المعروف المقريزي: إنه كان أميرًا واسع الثراء محبًّا لتشييد العمائر، وقد شيد هذه المجموعة المعمارية (1315م) التي تتكون من مدرسة لتعليم القرآن الكريم، ورباط للسيدات الأرامل واليتامى، وضريح أراد أن يدفن فيه. ويعد شارع السيوفية الذي تقع به التكية من الشوارع المهمة في القاهرة التاريخية كان يطلق عليه في القرن الحادي عشر الميلادي اسم الطريق الأعظم لكونه يربط بين مسجد أحمد بن طولون ومدينة الفسطاط. ولكن تغير خاطر السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون على الأمير سنقر السعدي بعد خلاف نشب بينه وبين أحد أهم وأقوى أمراء المماليك ويدعى قوصون، كان قوصون يمتلك القصر الفخم الملاصق لمجموعة سنقر السعدي فتنازعا على قطعة أرض بينهما فوشى به قوصون إلى الملك الناصر الذي نفاه إلى الشام حيث توفي بمدينة طرابلس (1328م) ولم يدفن بهذا الضريح الذي شيده لنفسه ودفن به العالم الصوفي حسن صدقة رفيق القطب الصوفي الكبير السيد أحمد البدوي. وفي القرن السادس عشر الميلادي حضرت طائفة الدراويش المولوية إلى مصر وهم الدراويش أتباع القطب الصوفي جلال الدين الرومي فشيدوا هذه التكية (1596م) على بقايا مدرسة سنقر السعدي وأنشئوا فيها «السمع خانه» وهي غرفة الاحتفالات على الطراز الباروكي العثماني، وأقاموا بالمكان وأدوا به احتفالاتهم. وللتكية أكثر من مسمى، فيطلق عليها (مدرسة سنقر السعدي) و(السمع خانه المولوية) ، و(ضريح سيدي حسن صدقة)، و(التكية المولوية) و(المولوياخانه).

الصوفية هي حركة دينية انتشرت في العالم الإسلامي في القرن الثالث الهجري تدعو إلى الزهد كرد فعل مضاد للانغماس في الترف الحضاري وتطورت مع الوقت حتى صارت طرقًا مميزة عرفت باسم الصوفية، ويحرص المتصوفون على تربية النفس والسمو بها عن طريق الزهد في ملذات الحياة والتسامي عن الهموم الزائفة؛ للتقرب إلى الله تعالى، وقد اكتسبت الصوفية اسمها من الصوف الذي حرص الصوفيون على ارتدائه كنوع من التقشف، كما ذكر بعض العلماء أن كلمة صوفي أصلها من صوفيا؛ أي طالب الحكمة، وهي كلمة يونانية، ويعتقد المستشرق

الفرنسي «كلمان هوار» إن الكلمة أصلها فارسي وتعني جلد؛ لأن شيوخ الزوايا الصوفية كانوا يجعلون من جلود الحيوانات رمزًا لهم. وكلمة تكية هي لفظ تركي يعني الخانقاه؛ أي دار الصوفية، ويرجع أيضًا البعض الكلمة إلى الفعل العربي اتكأ أي استند عليه؛ بمعنى أن الصوفيين يعتمدون على التكية في معيشتهم فهم يقيمون بها ويتلقون منها رواتبهم الشهرية، وكان الهدف الأول للتكية هو إطعام فقراء الدراويش وإيواؤهم لينقطعوا للعبادة.

بنيت التكية المولوية على أساس روحي فلسفي، فقاعة «السمع خانه» تمثل أبلغ درجات التعبير عن الرموز الهندسية والكونية التي تحدد وظائف وأبعاد المساحة المعمارية التي يتم فيها السمعة وهو الرقص الصوفي عند المولويين. تضم «السمع خانه» منطقة الرقص الدائرية التي تقع في منطقة مركزية وترتكز على اثني عشر عمودًا رمزًا للأئمة الاثنا عشر تبعًا للمذهب الشيعي، وتضم ثمانية شبابيك دلالة على أبواب الجنة الثمانية، أما القبة المقامة بوسط الصحن فمزينة بدوائر متعددة ملونة، بداخلها آيات قرآنية، وحولها زخارف تمثل قرص الشمس بأشعته باللونين الأصفر والبرتقالي، وعلى محيط القبة صور طيور تحلق في السماء وهي ترمز إلى فناء أجساد الدراويش وتحليق أرواحهم في الفضاء بعد رجوعها لبارئها، وتعبر عن تحرر الروح من قيد الحياة الحسية، أما شجر السرو فيرمز للخلود، والصبار يرمز للحياة والبعث. وتوجد لوحة فوق البوست حيث كان يجلس شيخ الطريقة أثناء أداء شعائر الرقص وقعها الشيخ عبدالعزيز الرفاعي أحد كبار الخطاطين الأتراك في القرن العشرين الذي أطلق عليه لقب أمير الخطاطين، وتحمل اللوحة عبارة (يا حضرت مولانا). ويذكر عالم السنة النسابة حسن محمد قاسم في كتابه «الآثار الإسلامية والمزارات المصرية» والصادر عام (1936م) أنه كان يوجد بدائرة قبة التكية نقوش بها كتابات تاريخية نصها: «بسم الله الرحمن الرحيم، لمثل هذا فليعمل العاملون، فاذكروا الله أيها الغافلون، وشمروا أيها المقصرون وأحسنوا البصر أيها المستبصرون، مالكم لا يحزنكم دفع التراب، ولا يهولكم ميل الأتراب، ولا تعنون بنوازل الأحداث، ولا تستعدون لنزول الأجداث، ولا تستبصرون لعين تدمع، ولا تعتبرون بنص يسمع، ولا ترتاعون لأليف يفقد، ولا تلتاعون لجنة تشهد».

بدأت طريقة الدراويش المولوية التي يطلق عليها العامة الدوارة في مدينة قونية التركية في القرن الثالث عشر الميلادي، والمولوية هي إحدى الطرق الصوفية مؤسسها الشيخ جلال الدين الرومي (1800 - 1865م) وهو فارسي الأصل والمولد، عاش معظم حياته في مدينة قونية التركية وزار دمشق وبغداد. ويؤمن المولويون بضرورة الذكر والمحبة، وبالتسامح مع الغير وتقبل الآخرين، ويؤمنون بالتفسير والتعقل الإيجابي وبأهمية الخير والإحسان، وكان أتباع هذه الطريقة يعتزلون الحياة تقربًا إلى الله تعالى ويعيشون في التكايا، وجلال الدين الرومي هو ناظم معظم الأشعار التي تنشد في حلقات الذكر المولوية. وفي عام (1491م) تم تسجيل عدد اثنتين وسبعين تكية مولوية في العالم الإسلامي.

تغيرت حياة الشيخ جلال الدين الرومي بعدما التقى القطب الصوفي شمس تبريزي، فتعلم منه طريق الروح والتصوف وأخبره أن كل شيء بالوجود يسبح لله - عز وجل - ويدور حول المركز في حركة دائرية، ومن هنا اهتمت الطريقة المولوية بالرقص لأنه تعبير جسدي دائر، واشتهروا بما يعرف بالرقص الدائري؛ حيث يدور الراقصون حول مركز الدائرة التي يقف فيها الشيخ ساعات طويلة، ويقومون بالذكر عن طريق هذا الرقص الدوراني الذي تصاحبه موسيقا تسمى «السمع» ويندمجون في مشاعر سامية ترتقي بنفوسهم إلى مرتبة الصفاء الروحي، ويعتبر الدوران رحلة روحانية تسمو فيها النفس وتتخلى عن حب الذات ثم تعود وهي قادرة على الحب والانسجام مع العالم بأكمله. ويصحب الرقص أنغام الموسيقا الصوفية التي يلعب فيها الناي دورًا رئيسيًا مع الدفوف، وكان الرومي يعتبر الناي من أكثر الآلات ارتباطًا بعازفه ويشبه صوته بأنين الإنسان وحنينه إلى الرجوع لعالم الأزل. وعادة تمارس طقوس السمع في «السمع خانه» ومعناها مكان السمع بالتركية وهي القاعة التي تقام فيها الاحتفالات وطقوس الذكر.

وتعتبر اشعار وقصائد جلال الدين الرومي هي حجر الاساس في ظهور الموسيقا الصوفية، وساهمت الطريقة المولوية في استمرار هذه الموسيقا الصوفية، وتعد التكية المولوية بالقاهرة من أوائل المسارح التي ظهرت في مصر. والمريد المولوي يسمى «درويش» وهي كلمة تعني الشخص الفقير أو القانع بأقل احتياجات الحياة، وكان يطلق على أتباع المولويين في مصر الدراويش أو الجلاليين نسبة إلى الشيخ جلال الدين الرومي.

أدخلت الطريقة المولوية رموزها الخاصة التي تنعكس على ملابس الصوفي، فالطربوش فوق رأس الدرويش هو عنوان على شاهد القبر فوق الجسد الفاني ويسمى القاووق ويرمز إلى موت الذات وبدء طريق الآخرة، والجبة البيضاء للدلالة على الكفن بلونه الأبيض وتعبر عن النقاء وتحرر الروح من الجسد، ويرتدي الدرويش عباءة أخرى سوداء فوق العباءة البيضاء تدل على القبر وترمز إلى الجسد المادي الذي يمنع الروح من التحليق، وعندما يرفع الدرويش يده لأعلى عند الرقص فمعناه أنه يتلقى الهبات من السماء، وعندما يهبط بها لأسفل تعني أنه يقدم العطايا للناس. وتقع قاعة السمع في وسط التكية وهي دائرية الشكل مصنوعة من الخشب يحيط بها درابزين مخصص للحضور الذين يأتون لمشاهدة طقوس الذكر والإنشاد، ويتوسطها محراب في اتجاه القبلة ويمر في منتصفها خط افتراضي يقسمها إلى شطرين ويرمز إلى العالمين المعلوم والمجهول، ويقف الشيخ أمام المحراب ويأخذ الدراويش أماكنهم حول محيط الدائرة ويتحركون مع الموسيقى، وتنقسم دائرة الدراويش إلى نصفين يمثل أحدهما انغماس الروح في المادة، والآخر صعود الروح إلى بارئها ويمثل دوران الشيخ حول مركز الدائرة الشمس وشعاعها، وحركة الدراويش ترمز إلى القانون الكوني، فهم يدورون مع دورات كوكب الأرض حول الشمس. والمولوية طريقة مشهورة في تركيا حتى اليوم، وقد طور المصريون هذه الطريقة كما فعل أولاد أبو الغيط وفرقة التنورة، وقد خلف جلال الدين الرومي مؤلفات كثيرة أشهرها (المثنوي) المطبوع في ستة مجلدات.

كانت حلقات الذكر المولوية تقام في مساجد أنشئت خصيصًا لهذه الطريقة، والذكر هو مجموعة من الابتهالات والأدعية والأناشيد الدينية، ولكل حلقة ذكر رئيس يسمى رئيس الزاوية، وتبدأ حلقات الذكر عادة بتلاوة من القرآن الكريم، ثم يبدأ رئيس الزاوية الابتهالات والأدعية ويقوم باقي أفراد الحلقة بترديدها ويمنع استخدام الآلات الموسيقية باستثناء الدفوف والمزاهر، وتختلف حلقة الذكر فى الطريقة المولوية عن غيرها من الطرق فى أنها تنفرد بالحركة الدائرية التي يقوم بها عدد من الدراويش مع استخدام آلة الناي. وقد اعتاد الأثريون أن يطلقوا مسمى مشهد على مدافن آل البيت، وضريح على مدافن الصوفية، ومدفن على مدافن العامة.

تصاهر الحكام العثمانيون مع المولويين وانتشرت الطريقة المولوية في الدولة العثمانية خاصة بعد زواج السلطان العثماني بايزيد الأول من دولة حاتوم حفيدة سلطان ولد ابن جلال الدين الرومي وأنجبت محمد شلبي الذي صار سلطانًا عثمانيًّا بعد أبيه، فأقام وقفًا للمولويين لدعم أعمالهم وعين العديد من أتباع المولويين في الدولة العثمانية في مناصب مختلفة وانتشرت أفكارهم في البلقان وسوريا ومصر. ومن الروايات الطريفة حول التكية المولوية أن السلطان العثماني سليم الأول قبل دخوله مصر أتى سرًّا متخفيًا في زي الدراويش المولوية وأقام بالتكية لمدة شهر كامل للاطلاع على أحوال مصر والمصريين، فوصل لعلمه وهو متخفٍّ أن السلطان المملوكي قنصوه الغوري جهز جيشه وأسطول سفنه بالإسكندرية فعاد سليم الأول إلى استنبول وجهز جيوشه ودخل مصر عن طريق الشام برًّا وليس بحرًا لتفادي فلول الأسطول المصري. وتلاحمت جيوش العثمانيين مع جيوش المماليك بقيادة السلطان قنصوه الغوري في معركة حاسمة وقوية في مرج دابق شمال حلب (1517م)، وانتصر العثمانيون بسبب استخدامهم الأسلحة النارية والمدافع الحديثة التي لم تكن معروفة لجيوش المماليك، وبسبب خيانة بعض زعماء المماليك وقواد الجيوش مثل خاير بك الذي انضم لمعسكر العثمانيين وأطلق عليه المصريون لقب خاين بك، وحول العثمانيون مصر من دولة مستقبلة إلى ولاية عثمانية يحكمها

والٍ تركي.

بُنيت التكية المولوية على الطراز الباروكي العثماني الذي يميزه استخدام الحجارة لبناء الأرضيات والخشب المغطي بالجص لبناء الأسقف والقباب، والطوب الآجر لتشييد الجدران، والتكية عبارة عن بناء مربع تعلوه قبة مركزية كبيرة لها مدخل خارجي ذو درجات دائرية. وهي تتكون من طابق واحد وتغطيها القباب ولكن بمستويات مختلفة، وتنقسم التكية إلى أربعة أقسام فهي تضم منطقة الحجرات السكنية يتوسطها صحن مكشوف يضم نافورة في الوسط، ثم «السمع خانه» لتأدية طقوس الرقص المولوي ولها أربع واجهات تتسم بالبساطة، ونوافذ خشبية مستطيلة وأخرى دائرية، ثم منطقة لطهو الطعام، وتعد التكية المولوية واحدة من بين الآثار القليلة في العالم التي ما زالت تحتفظ بأجزائها المتعددة. وتضم التكية اليوم (المتحف المولوي) الذي يعرض صورًا فوتوغرافية ووثائق خاصة بالمولوية، كما يعرض في إحدى الخزائن ذات الواجهات الزجاجية كتاب (المثنوي) لجلال الدين الرومي مؤسس الطريقة المولوية الذي أهدته وزارة الثقافة التركية للمتحف، أما زي المولوية الشهير فيعرض في خزانة أخرى. وتعتبر «السمع خانه» بالتكية المولوية آخر «سمع خانه» ظلت تعمل بعد قرار الرئيس التركي مصطفى كمال أتاتورك بإغلاق التكايا وحل الطرق الصوفية التركية لوقف نشاط هذه الطريقة (1925م)، وهي القاعة الوحيدة الآن في العالم التي مازالت تؤدي دورها الروحي. وقد ظل المكان يستخدم كدار للمسنين حتى عام (1984م)، ولم يكن مسجلاً كأثر حتى تم ضمه حديثًا وتحول لمركز للآثار الإيطالية وبعثاتها في مصر، وتقام به حفلات فرقة المولوية التركية، ولا تزال التكية المولوية باقية حتى اليوم تحتفظ بملامحها العتيقة التي تزداد أصالة مع مرور السنين وتعاقب الأيام.

أبو جعـران
فـي بيتــه سلطـــان

تصل لنا من أزمنة بعيدة رسائل شفهية قادمة من عمق التاريخ تفتح نوافذ من الماضي، تحمل عبير الأزمنة المولية وتحوي بين طياتها فلسفة أجدادنا وفهمهم العميق للنفس البشرية، لا يوجد شعب إلا وله حكمه وأمثاله التي يلخص فيها تفاصيل حياته في مقولات قصيرة، والتوغل في حكم السابقين وفي الأقوال التي جرت على ألسنتهم بمثابة رحلة في وجدان الشعب المصري على مدى التاريخ الطويل نستخلص منها مفاتيح شخصيته.

لكل شعب خصوصياته وموروثاته الاجتماعية التي يعتز بها وسماته الخاصة التي تميزه عن سائر الشعوب، يمتزج بداخل الإنسان المصري موروثات كثيرة فيتناغم بداخله التاريخ والحضارة والتراث، ويتآلف التدين مع السماحة والقيم مع المحبة وينسجم علو النفس مع خفة الروح فيظهر معدنه الطيب. ولهذا الشعب الأصيل وجه فني مبدع، ووجه ديني ينطق بالحكمة، ووجه ثوري يناضل الظلم، ووجه عاطفي يفيض بالطيبة والتسامح، وتظهر الأمثلة الشعبية خفة روح المصري الذي اعتاد أن يستعلي فوق الأحداث بالسخرية منها، يفجر الضحكات من أعماق الآلام والنكات والفكاهات من قلب الأحزان.

الإنسان المصري يعشق حريته كالماء والهواء، ولكنه فرض على نفسه بعض القيود الاجتماعية التي قيدت أسلوب حياته عبر العصور، فتنازل بإرادته عن بعض حرياته ورسم حدودًا لسلوكه من أجل الانسجام في علاقات اجتماعية متوازنة تدل على احترامه لمشاعر الآخرين فقالوا في الأمثال (أدب المرء خير من ذهبه)، (حط إيدك على عينك زي ما توجعك توجع غيرك)، (اللي يحفر حفرة لأخيه يقع فيها) و(اترك الشر يتركك). كما تعطي الأمثال الشعبية نمطا لفكر الشعب المصري المتدين بطبعه والذي يكثر من استخدام العبارات الدينية في حياته اليومية فيقترن ذكر المستقبل دائمًا بعبارة (إن شاء الله) وعند إنجاز أي عمل يهتف قائلاً: (الله أكبر) ومع نهاية كل

شيء يشكر ربه مرددًا (الحمد لله). كما تعكس الامثال الشعبية ان الشعب المصري مرهف الحس عاطفي، مترابط اجتماعيًا يقدس الدفء العائلي، فعبر الناس عن هذا الشعور قائلين (الجنة من غير ناس ما تنداس)، و(البركة في اللمة)، و(البركة في كتر الأيادي)، و(إيد على إيد تساعد)، و(الإيد الواحدة ما تصقفش). وقد استقى أبناء هذا الشعب الأصيل الصبر من طبيعة أرضهم على ضفاف وادي النيل وتعلموا التوكل والمثابرة في زراعة الأرض، ويدلل على ذلك .(المثل الشعبي (الصبر مفتاح الفرج)، و(الصابرين لهم الجنة) و(لها رب يدبرها

وأقدم كتاب صنف في الأمثال الشعبية في العصر الإسلامي هو (مجمع الأمثال) لأحمد بن إبراهيم الميداني أبو الفضل النيسابوري الذي عاش في القرن الثاني عشر الميلادي، ويعد أفضل كتاب ضم الأمثال العربية القديمة، وهو من المصنفات الأساسية للأمثال، وقد ضم ستة آلاف مثل. وقد أحصى الميداني أمثال العرب والإسلام، ونبذات من كلام النبي عليه الصلاة والسلام، .وطائفة من كلام الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم، ورتب الأمثال على حروف الهجاء

ومن أقدم وأشهر مدونات الأمثال الشعبية كتاب (المستطرف لكل فن مستظرف) لشهاب الدين محمد بن أبي الفتح الأبشيهي المحلي (1388م) الذي عاش في العصر المملوكي في القرن الرابع عشر الميلادي ولد بأبشويه إحدى قرى محافظة الغربية بمصر، رحل إلى القاهرة في مطلع شبابه وحضر دروس الشيخ جلال البلقيني ثم عاد إلى قريته وتولى بها الخطابة. ونتوقف عند سماع هذه الأمثال لأن معظمها جرى على ألسنة المصريين في العصر المملوكي منذ أكثر من ستمائة عام، ولا يزال الكثير من هذه الأمثال حيًا بيننا حتى اليوم مثل: (سل المجرب ولا تنسى الطبيب)، و(صام سنة وفطر على بصلة)، (حاجة لا تهمك وصي عليها جوز أمك)، (ضرب الحبيب كأكل الزبيب)، (ضرب وبكى وسبق يشتكي)، (لا تعيرني ولا أعيرك الدهر حيرني .(وحيرك)، (نواية تسند الزير)، (خطبوها تعززت وكان زمان البوار

ومن أشهر كتب الأمثلة الشعبية كتاب العادات والتقاليد المصرية في عهد محمد علي باشا، كتبه الرحالة السويسري جون لويس بوركهارت الذي كرس سنوات عمره القليلة لدراسة تاريخ وجغرافيا الشرق، وانتهى به المطاف في مصر حيث توفي بها ودفن بثراها وعمره ثلاثة وثلاثون عامًا. جاء بوركهارت إلى القاهرة في القرن الثامن عشر الميلادي ووجد في مكتبة أحد الشيوخ عشر مدونات بخط اليد بها ألف وستمائة مثل من الأمثلة الشعبية باللهجة العامية التي يستخدمها مواطنو القاهرة وقد ظن بوركهارت أنها حديثة التدوين، وقد جمع هذه الأمثال الشعبية رجل مصري يدعى شرف الدين بن أسد وجدت ترجمته في كتاب الدرر الكامنة، وفي فوات الوفيات فتبين أنه قد عاش في القرن الثامن الهجري أي الرابع عشر الميلادي في العصر المملوكي. وقد كتب بوركهارت من هذه الأمثلة الشعبية تسعمائة وتسعة وتسعين مثلًا وحذف الباقي لعدم ملاءمتها لذوق العصر آنذاك، ونشر بوركهارت هذه الأمثلة في لندن ومعها مجموعة من الدراسات حول المجتمع المصري. ويصور لنا هذا الكتاب الكثير من العادات التي انقرضت من المجتمع مثل عادة الصفع، فقد ظهرت جماعة من اللصوص كانوا ينتهزون فرصة ازدحام الطرقات بالمارة ويقومون بخطف العمائم لأن الناس قد اعتادوا حفظ نقودهم بداخلها، ثم يقوم هؤلاء اللصوص بصفعهم بعد خطف العمائم كنوع من التحامق، وقد أشار شرف الدين الأسدي لهذه العادة فقال: (اللسان عدو القفا) و(لو وقعت من السما صفعة ما سقطت إلا على قفاه). وقد عاصر ابن أسد عصر المماليك البرجية ولم يكن بعض الناس راضين عن حكم الأتراك فقالوا: (مصر خيرها لغيرها). وقد شهد ابن أسد حدثًا جسيمًا وهو انهيار منارة الإسكندرية التي كانت تضيء للسفن ليلًا وتعد إحدى عجائب العالم القديم، وقد انهارت هذه المنارة نتيجة لزلزال عظيم في القرن الرابع عشر الميلادي فانزعج الناس انزعاجًا شديدًا لفقدانها فقالوا (وقعت منارة .(إسكندرية قال الله يسلمنا من غبارها

روح الشعب المصري حرة بسيطة، يمتلك المصري رهافة في الحس وسرعة بديهة وميلًا

فطريًا للفكاهة والسخرية، في ازمنة الشدة ينسلخ المصري من همومه، يضحك وهو يخفي الآلام، يحول دموعه إلي ابتسامات ومرارته إلى فكاهات ويطلق النكات اللاذعة، وينقد أخطاءه بصورة هزلية، ويفرغ أحاسيسه بالحزن في قوالب من الفكاهة. وهذه الروح البسيطة ترجع إلى أبعد الأزمنة، فقالوا قديمًا: (الجعان يحلم بسوق العيش) و(جبتك يا عبد المعين تعيني لقيتك ياعبد المعين تنعان) و(أبو جعران في بيته سلطان) و(هو وجهك ياحزينة في الحلي والزينة) و(ارقص للقرد في دولته) و(الأعور في بلد العميان طرفة) و(حزينة مالها بيت اشترت مكنسة وزيت).

ومن أعلام الأدب المصري الساخر علي بن سودون اليشبغاوي الذي عاش في عصر المماليك الجراكسة ولد (1407م) وعمل إمامًا بأحد المساجد، ولكن غلبت عليه موهبته في السخرية والمزاح، فعمل بخيال الظل طيلة حياته ووافته المنية بالشام (1464م) وترك لنا ديوانه الشهير (نزهة النفوس ومضحك العبوس) وضع فيه إبداعات شعرية ونثرية على شكل حكم ومواعظ:

ويُرى له مهما مشى سيلول والماء يجري فوق رمل راكد

هذا لعمري ذاهل بهلول من ظن أن الماء يشبع جوعه

تلقاه بُلّ وثوبه مبلول لكن من قد عام فيه بثوبه

كما قال:

قلبي يحبكما ما قلت ذا زورا يا موز يا قطر زورا منزلي زورا

ولا تدع قلب خبزي السخن مكسورا يا صحن بالقشطة الحقني وخذ عسلا

فكبر الله يا مشكاح تكبيرا والست بقلاوة الجلاب إن حضرت

لا كنت في ساير الأفاق مذكورا يا جبن حالوم رح عني وغب أبدا

وقديمًا لم يكن العالم ماديًّا كعالمنا اليوم، وقد وقع الفكر الشعبي البسيط تحت تأثير قوة الغيبيات، فآمن البسطاء أن الأحداث تنبع من قوى خفية أطلقوا عليها الحظ والبخت والنصيب، وكان القدر هو التبرير النفسي الذي يحمل سعادة وشقاء البشر، وقد استخدمت كلمة حظ للدلالة على النعمة والسعادة فقالوا: (قيراط حظ ولا فدان شطارة)، واستخدموا كلمة بخت وهي كلمة تركية بمعنى حظ للدلالة على الشقاء والتعاسة فقالوا: (البخت يعرف أصحابه) و(سبع صنايع والبخت ضايع).

امتهن المصريون الكثير من الحرف التي برعوا فيها وأتقنوها. منها ما انقرض وطواه الزمان بين صفحاته ومنها ما توارثته الأجيال ولا يزال حيًّا بين الناس، وهناك الكثير من الأمثلة

الشعبية التي تطرقت إلى اصحاب هذه المهن والحرف المختلفة التي كانت منتشرة في ذلك الزمان مثل الوالي، القاضي، المحتسب، الخراط، السقا والزمار فقالوا: (السر معاه في بيت الوالي)، (زي المحتسب الغشيم ناقص إرمي زائد إرمي)، (إدي العيش لخبازه)، (خرطها الخراط واتمدد ومات)، (يموت الزمار وصباعه بيلعب)، (أبوها راضي وأنا راضي مالك إنت ومالنا يا قاضي)، (يبيع الميه في حارة السقايين). ومن المهن التي انقرضت وظيفة السقا، اعتمدت مدينة القاهرة قديمًا اعتمادًا كليًا على ماء نهر النيل الذي كان يجري على بعد كيلو متر واحد من الحد الغربي للمدينة، وكان للسقائين طائفة تضمهم يرأسها شيخ، وقد خضعت وظيفة السقاية للرقابة الحكومية تحت إشراف المحتسب وكان لها قواعد دقيقة نظرًا لتأثيرها على الصحة العامة، فألزم المحتسب السقاة بنظافة قربهم وبجلي الكيزان النحاسية التي يسقون بها الناس وتغطيتها، كما أمرهم بنظافة أزيارهم، واشترطت كتب الحسبة أن يعلق السقاءون حول أعناق الحيوانات الحاملة لقرب الماء أجراسًا أو أطواقًا مصنوعة من الحديد لتنبيه الناس في الشوارع. ويذكر لنا المؤرخ المعروف المقريزي في خططه أنه نودي على السقائين بأن يغطوا الروايا التي تحملها الجمال والبغال المملوءة بالماء حتى لا تبتل ثياب الناس من الماء المتساقط.

وقد عكست لنا الأمثال الشعبية المتداولة صورًا وأنماطًا من حياة الناس اليومية تعبر عن أفكارهم، وبالطبع ذكرت المرأة كثيرًا في المثل الشعبي، فهي نصف المجتمع الحلو، وشريكة الرجل في كل إنجازاته، وتحدد بعض الأمثال الطريق الذي يجب أن تسلكه المرأة خلال حياتها، وأن المرأة المطيعة هي حلم كل رجل، فذكرت الأمثال (إكفي القدرة على فمها تطلع البنت لامها) و(أدب المرأة مذهبها لا ذهبها) و(حرة صبرت بيتها عمرت) وكان زواج الأقارب مستحبًا قديمًا فقالوا: (خللي زيتنا في دقيقنا).

أمثالنا الشعبية المصرية متنوعة وتعتبر من أغنى الأمثال في العالم، تجسد تجربة إنسانية واقعية أفرزت كلامًا صادقًا ظل يجري على ألسنة الناس لقرون طويلة ينقل صورة كاملة عن خلاصة خبرات المصريين، يبرز ما في ضمائرهم، يعكس صدق مشاعرهم، ويصور إيقاع الحياة اليومية بكل تفاصيلها الدقيقة، وأمثالنا الشعبية بمثابة وعاء يحوي التراث الشعبي ويظهر التطور الإجتماعي والتاريخي المستمد من البيئة المصرية الأصيلة، ويشكل لونًا أدبيًا فريدًا يفيض بالبلاغة يتضمن ثراء في المعنى تعجز كل الكتب والموسوعات عن نقله، ويحمل سجعًا جميلا تطرب له الآذان.

مع تعاقب السنين تتبدل الحضارات وتتغير الثقافات، ولكن مهما دار الزمان وتغيرت الوجوه فالموروثات التي عاش عليها أجدادنا مازالت باقية في وجدان المصريين، تتغير ظاهريًا لتتواكب مع تطور الحياة بدون أن تمس الجوهر وتستمر ابداعات الإنسان المصري.

البهطلة موضـــة العصـــر

عالم النساء الساحر يتجسد للقلب بكل ما يحمله من معانٍ جميلة تحمل مذاق الأزمنة المولية، تطل علينا صور النساء من بين صفحات التاريخ بثيابهن الزاهية تفيض منهن رقة ونعومة، يرحل المرء مع هذه العوالم القديمة فيكتشف أن ميول النساء لا تتغير مهما تغيرت الأزمنة، وأن ولعهن بالموضة يعود لعصور بعيدة؛ فحب المرأة للأناقة فطرة إنسانية، تظهر دائمًا ابتكارات جديدة وتغزو الأسواق أحدث الصيحات فتحرص النساء على اقتناء كل ما هو جديد ويتبارين في إظهاره، ولا تثبت الموضة على حال فتتغير الأشكال وتتعدد الألوان وتتقلب الأذواق كالريشة في مهب الريح، وتسارع النساء لتلبية النداء.

لعبت الملابس دورًا مهمًا عبر التاريخ فأظهرت مدى التقدم الحضاري وألقت الضوء على مستوى الحياة الاقتصادية وكانت مقياسًا للثراء وللمكانة الاجتماعية، ويعد العصر المملوكي عصر رخاء اقتصادي عكست فيه ملابس العامة والخاصة مدى ثرائه، واستطاعت الموضات المتغيرة التوفيق بين رغبات النساء في التأنق مع الالتزام بأصول الحشمة والوقار. ارتدت نساء العصر المملوكي القمصان الطويلة داخل المنازل ووضعن تحتها سراويل تصل إلى القمصان يطلق عليها المنزر، وعند الخروج من البيوت كن يلتففن بملاءة فضفاضة تسمى السبلة ويغطين وجوههن بيشمك من الحرير الأسود ينسدل حتى الركبتين أو ببرقع وهو غطاء وجه قصير من القطن الأبيض أو الأسود. وتباينت خامات ونوعيات ملابس النساء باختلاف طبقاتهن الاجتماعية، فارتدت زوجات السلاطين أفخر الثياب الكتانية والحريرية والصوفية المطرزة بالذهب واللؤلؤ والجواهر بما يتواءم مع عظمة السلطنة، ولبست نساء الطبقات العليا الحلل المذهبة والمطرزة التي تواكبت مع ثرائهن، وتميزت ثياب نساء الطبقة المتوسطة بالأناقة والجمال، ولبست نساء الطبقة الفقيرة الملابس البسيطة المتواضعة.

ويحدثنا خليل بن شاهين في كتابه (زبدة كشف الممالك) فيقول:«لو أردنا وصف ملابس النساء في العصر المملوكي وتجميل بيوتهن لاحتجنا لعدة مجلدات»، ويروي لنا المؤرخ ابن تغري بردي عن خوند جلبان زوجة السلطان المملوكي الأشرف برسباي التي صنعت ثوبًا بلغ ثمنه ثلاثين ألف دينار لتحضر به حفل ختان ابنها الملك العزيز يوسف ولي العهد، كما يروي عن خوند زهرة ابنة السلطان الناصر محمد بن قلاوون وزوجة الأمير طاز فيقول إنها خلفت بعد وفاتها ثروة طائلة من جملتها قبقاب مرصع بالجواهر بلغت قيمته أربعين ألف درهم.

كانت الملابس في العصر المملوكي تحاك بحوانيت الخياطين، وهناك سوق مخصصة لبيع الكتان تسمى سوق الجملون وسوق لبيع الملابس المخيطة الجاهزة تسمى سويقة أمير الجيوش، وقد استخدم الخياطون الكثير من الفراء لتطعيم الملابس وكان هناك سوق لبيع الفراء يطلق عليها سوق الفرائين يباع فيها فراء حيوان السمور أي النمس وفراء الوشق وهو نوع من أنواع الذئاب، وفراء القماقم وهو حيوان يشبه السنجاب، وفراء السنجاب الناعم.

ولا يقف ولع النساء بالتميز عند حد فيتبارين في اقتناء أجمل الثياب الفاخرة والمجوهرات والمشغولات الذهبية لإظهار مكانتهن الاجتماعية، وقد تصدى الحكام والفقهاء لمحاولات النساء في البهرجة وإظهار مفاتنهن واتباع الابتكارات الجديدة التي تثير رفض المجتمع، ويروي المؤرخ المعروف المقريزي أنه في عام (1350م) في وزارة الأمير المملوكي منجك ظهر نوع من القمصان انتشرت موضته أطلق عليه البهطلة، كان له ذيل طويل ينسدل على الأرض مع أكمام واسعة تبلغ في اتساعها ثلاثة أمتار وانتشرت هذه الموضة بين النساء، ولكن في الزمان القديم كانت المرأة مطالبة دومًا بأن تلتزم بأصول الوقار فتم تحريم هذه الأكمام الواسعة التي اعتبرها المجتمع خروجًا على نطاق الحشمة واللياقة وصدر مرسوم يقضي بتحريم ارتداء أي

قمصان يزيد اتساع الكم فيها على متر واحد، واصدر محتسب القاهرة امرًا بمطاردة المخالفات وقص أكمام القمصان ومعاقبتهن عقابًا شديدًا وتم القبض على العديد من النساء حتى بطلت هذه الموضة. ولكن هذا التحريم لم يستمر طويلًا وعادت النساء مرة أخرى في عصر السلطان المملوكي برقوق (1391م) لإرتداء القمصان ذات الأكمام الطويلة الواسعة التي ولعن بشكلها، فنادى نائب السلطنة الأمير كمشبغا بألا تلبس النساء قمصانًا واسعة وبعث برجاله إلى الأسواق للقبض على المخالفات فامتنعت النساء خوفًا، ومما يثير السخرية أن القمصان ذات الأكمام الواسعة حملت سم من يحاربها فصار يطلق عليها القمصان البشبغاوية. كما يروي المقريزي أنه في بداية القرن الرابع عشر الميلادي ظهرت صيحة جديدة انتشرت بين النساء وهي عبارة عن إزار من الحرير الفاخر باهظ الثمن كن يلتففن به خارج المنازل، وقد بلغ سعر هذا الإزار ألف درهم وهجرت النساء الأزر البغدادية البسيطة التي اعتدن ارتداءها، واعتبر المجتمع هذا الأمر مغالاة في البذخ والإسراف، ونادى محتسب القاهرة بمنع ارتداء هذه الأزر الحريرية وحرم بيعها وهدد البائعين بمصادرة أموال من يجد عنده مثل هذه الأزر حتى بطلت تلك الموضة.

ارتدت نساء العصر المملوكي أغطية للرأس متعددة الأشكال والألوان تزين بها في المنازل وانتشر منها نوع يطلق عليه الشربوش وهو أشبه بالتاج ولكنه مثلث الشكل، ثم حل محله الطواقي الملونة وشاع ارتداؤها بين الرجال والنساء على السواء. وفي العالم القديم كانت النساء كالدرر الثمينة يغار عليهن أولياؤهن ويحمينهن من عيون الغرباء فثارت زوبعة أخرى بسبب رغبتهن في ارتداء العمائم محاكاة للرجال والخروج بها إلى الأسواق، ولكن كانت عمائمهن تختلف عن عمائم الرجال فهي عبارة عن قطعة من القماش تلتف حول طاقية تزين بالحلي الذهبية أو الألماسية، وصارت عمائم النساء مثار جدل شديد هاجمها رجال الدين وصدر مرسوم من السلطان المملوكي الظاهر بيبرس البندقداري (1263م) بألا تتعمم النساء بعمائم ولا طواق خارج المنازل، وحارب كل محاولات النساء للتشبه بالرجال. وفي عام (1472م) في حكم السلطان المملوكي قايتباي ظهر نوع من العصائب القصيرة وهي أغطية للرأس مثلثة الشكل تدعى العصائب المقنزعة خرجت بها النساء للأسواق وكانت تكشف عن مفاتنهن فغضب السلطان ونادى محتسب القاهرة بتحريم لبس هذه العصابة المقنزعة القصيرة واشترط أن تحمل أي عصابة تلبسها النساء ختم السلطان وأمر بضرب المخالفات فخافت النساء وعدن لارتداء العصائب الطويلة مرة ثانية.

وفي العصر العثماني صدرت فرمانات كثيرة تحرم على المصريين ارتداء أزياء المماليك وتفرض عليهم ارتداء أزياء العثمانيين بدلًا منها وألزموا كل موظفي الدولة بخلع القباء والطيلسان والكلفتاه وأجبروا الشيوخ على لبس الجبة والعمامة، وصدر قرار تضررت منه المصريات غاية الضرر فقد أمر قاضي العسكر أن تتبع نساء مصر نهج نساء إستانبول، فعلى الرجل إطعام زوجته وعلى المرأة بدورها أن تغزل كسوة زوجها في البيت بنفسها فعانت نساء مصر هذا القرار المجحف الذي حاول صبغ المجتمع المصري بصبغة تركية. وتغيرت أزياء النساء وانتشر استخدام أنواع مختلفة من الأقمشة لم تكن شائعة في العصر المملوكي كالجوخ والتفتاه والكريب، ووفد إلى مصر من إستانبول ابتكارات جديدة للأزياء لم تكن شائعة من قبل مثل اليلك الذي عمل العثمانيون على نشره في سائر أنحاء دولتهم وهو عبارة عن رداء منزلي يلبس فوق قميص مشقوق من الأمام حتى الذيل ومفتوح من الجانبين وله كمان ضيقان ويلتف حول الخصر حزام من الحرير أو من الكشمير، وترتديه الأميرات ونساء القصر ونساء الطبقة العليا والوسطى، كما لبست النساء القفطان فوق اليلك، وهو رداء مشقوق من الأمام حتى نهاية الذيل وله أزرار وأكمامه طويلة متسعة. وعند الخروج تلتف المرأة بتزريرة تتكون من سبلة وهي ثوب فضفاض ذو أكمام واسعة، وتلبس معه الحبرة التي تنسدل لتغطي الرأس مع برقع يغطي الوجه.

ويذكر المؤرخ المعروف الجبرتي أن ملابس نساء الطبقة العليا كانت تعتبر ثروة في كل بيت

وخصوصًا الأقمشة الفاخرة المخملية والحريرية المطرزة باللؤلؤ والجواهر فانتشر السطو على منازل الأثرياء وكان العسكر يهاجمون الحرملك ويستولون على ثياب النساء ويطالبون بالمقابل فدية لإرجاعها، كما تكرر هجوم الولاة العثمانيين على مخازن النساء الثريات للاستيلاء على ما فيها من أقمشة ثمينة.. ويعلّق على ذلك ابن إياس بسخرية قائلًا: «فانفتحت للعثمانيين كنوز الأرض».

وفي زمن الحملة الفرنسية قام الفرنسيون بحملات جريئة للتأثير على شكل المجتمع المصري وتقاليده فاستجابت قلة من النساء وخلعن الحجاب وتبرجن تبرج الفرنسيات وحاكين التقاليد الفرنسية فاغتم المصريون غمًّا شديدًا ورفضت أغلبية المجتمع العادات والتقاليد التي لا تتفق مع مبادئهم، وما إن غادر الفرنسيون مصر حتى انقض الناس على الموالين لهم وقتلوا بضع مئات من النساء اللاتي خالطن الفرنسيين ليكن عبرة لغيرهن حتى عادت الحياة لسابق عهدها.

فطرت النساء على حب الجمال والتزين، وحرصن على ارتداء الحلي والمجوهرات منذ أقدم العصور فازدهرت صناعة الحلي التي كانت تعد من أجمل الفنون، ومن أهم المعادن الثمينة التي استخدمت في هذه الصناعة الذهب والفضة وتم تطعيمهما بالأحجار الكريمة كالعقيق والبلّور الصخري والفيروز والزبرجد واللازورد والكهرمان والمرجان. وتقلدت النساء الأساور الذهبية التي تنتهي أطرافها برءوس حيوانية مثل الأسود والفهود، وارتدين الخواتم المرصعة بالفصوص وزين أرجلهن بالخلاخيل الذهبية والفضية والنحاسية، وتقلدن الغوائش الزجاجية الملونة، والعقود التي تتألف من أسلاك الذهب الرفيعة ذات الزخارف المخرمة التي يطلق عليها الشفتشي، والعقود المطلية بالمينا وهي مادة زجاجية نصف شفافة تذاب وتستخدم في زخرفة المعادن، كما لبست النساء قلادات العنبر التي أطلقوا عليها العنبرية.. ويقول المقريزي إنه لا يوجد بأرض مصر امرأة إلا ولها قلادة عنبر. ويروي أحد الرحالة أن النساء اعتدن ثقب آذانهن بعشرة ثقوب كن يزينها بالأقراط المطعمة بالأحجار، وكانت حلي النساء تحفظ في علب خاصة تصنع من الفضة أو من العاج أو سن الفيل وتزخرف بالرسوم المختلفة للحيوانات والطيور. ولإقبال النساء الشديد على ارتداء الحلي الذهبية أنشئت دار العيار لمراقبة تجارة الحلي، وكان هناك سوق يطلق عليها سوق القفيصات تباع فيها الخواتم والأساور والخلاخيل وسائر أنواع الحلي.

استخدمت المرأة وسائل الزينة المختلفة ومعدات التجميل المتعددة مثل المكاحل الفضية والزجاجية والنحاسية، وكان لهذه المكاحل مراود تغمس في الكحل بعد أن تبلل بالماء ليسهل استخدامها في الحواجب أو في الرموش، وكن ينقشن بها طابع الحسن على خدودهن. كما حرصت النساء على استعمال العطور التي كانت تحفظ في قنينات من الزجاج المزخرف كالمسك والعنبر والكافور والزعفران وماء الورد. وشاع استخدام المرايا المعدنية المصنوعة من البرونز أو من الصلب والأمشاط الخشبية التي تحتوي على جهتين من الأسنان الرفيعة الحادة، والأمشاط المقوسة المزينة بالزخارف والكتابات المختلفة والحفر البارز. أغرمت نساء العصر المملوكي بتخضيب شعورهن وأيديهن بالحناء الحمراء، واعتادت النساء تصفيف شعورهن في جدائل يضاف إليها الشرائط الحريرية السوداء المعلق بها القطع الذهبية المستديرة صغيرة الحجم التي يطلق عليها صفا.

النساء هن نبض المجتمع، يضفين بهجة وسعادة على الحياة، تشرق الشمس لابتسامتهن، وتتفتح الزهور للمساتهن، ويشع دفء قلوبهن فيضيء كل مظاهر الحياة.

بيـــوت القهـوة

مقاهي القاهرة القديمة عالم الرجال الساحر، يصطف رواد المقاهي فوق الدكك هنا وهناك، يحتسون فناجين القهوة الساخنة وهم يتجاذبون أطراف الحديث فتختلط أصوات ثرثرتهم العالية مع رنين الأدوات المعدنية وإيقاع العبارات المنغمة المتبادلة بين العمال، ويزيد من روعة وحيوية المكان أصوات القصاصين الذين يتلون السيرة الهلالية والظاهرية على أنغام الربابة يقطعها بين الحين والحين استحسان المستمعين، مفردات هذا العالم فريدة تتغير من عصر إلى عصر، لقد افتتن الرحالة الأجانب برونق مقاهي القاهرة التي تشيع جوًّا من البهجة يبعث الدفء في القلوب.

دخل نبات البن مصر في القرن الخامس عشر الميلادي في نهاية العصر المملوكي ووجد الناس في القهوة مشروبًا لذيذًا ومنعشا، وكان المصريون يعدون شراب القهوة من حبوب البن وقشوره معًا، وأنشئت أماكن مخصصة لشرب القهوة عرفت باسم القهاوي نسبة لاسم المشروب الجديد، وكانت هذه القهاوي في بادئ الأمر تتكون من حجرات صغيرة لا يوجد بها أي معالم للزينة وتحتوي على عدة مصاطب من الحجر وتغطى بالحصير. وهناك مكان مخصص لصنع القهوة التي كانت تجهز في إناء يسمى البكرج، يجلس الزبائن على المصاطب الحجرية يستمتعون بشرب القهوة وسائر أنواع المشروبات من حلبة وقرفة وزنجبيل. وصارت المقاهي أحد أهم أركان الحياة الاجتماعية فاعتاد الناس ارتيادها للاستمتاع بمذاق البن ونكهته القوية والخروج من رتابة الحياة اليومية وتكوين علاقات اجتماعية جديدة. وكان هناك مقاهٍ للطوائف المختلفة في المجتمع، فلكل طائفة مقهاها الخاص بها؛ فهناك مقاهي العلماء، ومقاهي العمال ومقاهي الحرفيين، ولم تكن الطبقة العليا في المجتمع ترتاد المقاهي خوفا على هيبتهم ووقارهم، كما أنه لم يكن مباحًا جلوس النساء في المقاهي.

وبداية معرفة البن وشرب القهوة الذي يُعد أكثر مشروبات العالم انتشارًا ترجع إلى المصادفة البحتة، فيروى أن أحد الرعاة ذهبت بعض أغنامه لترعى من أوراق شجرة صغيرة ولم يلبث أن وجدها دخلت في حالة من الحيوية الشديدة والنشاط بعدما أكلت من بذور هذه الشجرة فقرر أن يتذوق أيضًا هذه البذور ليرى مدى تأثيرها فانتابته حالة من النشاط البدني والذهني وكانت هذه هي بداية اكتشاف مشروب القهوة. وقيل أيضًا إن أول من اكتشف ثمرة البن هو رجل يدعى أبا بكر بن عبدالله المعروف بالعيدروس كان مسافرًا فاقتات بالمصادفة من ثمار شجرة البن فوجدها تزيد من قدرته على السهر والانتباه فاستخدم ثمار البن كشراب مغلي وكطعام. وقد دخل مشروب القهوة مصر في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي قبل نهاية العصر المملوكي، ولاقى شرب القهوة في البداية بعض المعارضة الدينية من بعض الفقهاء الذين اعتبروا شربها بدعة، ومع مرور الوقت أصبح شربها مقبولا وأنشئت العشرات من بيوت القهوة في سائر أنحاء القاهرة، ولم تكن المقاهي معروفة قبل هذا التاريخ فكانت التجمعات الشعبية تتم في أماكن أخرى لم تذكر لنا المصادر التاريخية مسمياتها.

وكلمة قهوة كانت شائعة قبل اكتشاف البن وتعني خمرًا باللغة العربية، وهناك رأي آخر أن كلمة قهوة مشتقة من كلمة كافاة وهي اسم لمنطقة في الحبشة مشهورة بزراعة وإنتاج البن، وهناك رأي ثالث ينسب كلمة قهوة للفظ قوة لأنها تنشط القدرة الذهنية وتعطي الجسم نشاطا. وازدهرت تجارة البن منذ أوائل القرن السادس عشر الميلادي ويطلق على تاجر البن البنان، أما التجار الأجانب فيلقبون بالخواجا، ويلقب كبار التجار بلقب شاه بندر التجار وهي كلمة فارسية تعني كبير التجار، ويمثل الشاة بندر طائفة التجار أمام السلطات ويراعي مصالحهم، وصارت تجارة البن من أشهر أنواع التجارة في القاهرة فكان يتم استيراد أفخر أنواع البن من اليمن.

واصبحت المقاهي اماكن للانشطة الادبية المختلفة والفنون، فبعدما كانت العروض الفنية والأدبية تقام في الشوارع صارت تقدم في المقاهي فيلقي المنشدون بموشحاتهم مستخدمين الآلات الموسيقية المختلفة مثل الربابة والعود، ويلقي الشعراء بأشعارهم وأزجالهم باللغة العامية، وهناك الشعر التمثيلي ويشترك في إلقائه مجموعة من الممثلين يقدمون موضوعات مختلفة من وراء ستار بمصاحبة الموسيقى وبعض الحركات البهلوانية ويرددون أغاني على شاكلة (أبكي ودمع العين جاري على خدي، حالي صبح مسكين واللي انكتب وعدي، لكن أقول يا رب يا باعث الأرياح). وقد استقدم أصحاب المقاهي القصاصين ليتلوا سير البطولات الشعبية على أنغام الربابة للترفيه عن الزبائن، وكان هناك طائفة يطلق عليهم الهلالية نسبة لقصة أبوزيد الهلالي الذين تخصصوا في روايتها، وطائفة أخرى يطلق عليهم الظاهرية يقومون برواية سيرة الظاهر بيبرس، وطائفة ثالثة يسمون بالعنترية يقومون برواية سيرة عنترة ابن شداد. ويمر على المقاهي المخايلون لتقديم روايات خيال الظل وهو لون من ألوان الفن التمثيلي الشعبي عبارة عن مسرح ظلي يعكس الخيال المادي للدمى على ستارة بيضاء خفيفة مشدودة أمام ضوء خلفي فيشاهد الناس ظلال العرائس على شكل شخوص وحيوانات مصنوعة من الورق المقوى أو من الجلد المضغوط تتحرك أمامهم وكلمة خيال الظل تعني انعكاس الخيال، وعند بدء العرض تطفأ الأنوار وتتحرك هذه العرائس بواسطة مفاصل علقت بأجزائها المختلفة خيوطٌ تتجمع في يد المخايل يحرك بها تلك العرائس كيفما يشاء وفقًا للحوار فتتحادث الشخصيات وتتصارع وتقوم بحركات بهلوانية، وأحيانًا يصاحب العرض الأنغام الموسيقية، ويقول المؤرخون إن أصول هذا الفن موغلة في القدم وتعود غالبًا إلى الهند أو الصين منذ حوالي ألفي عام. ويمر بالمقاهي الأراجوز يليه القرداتي مصطحبًا دفه وقرده الذي يقوم بعدد من الحركات الساخرة عند ترديد كلمات معينة ويلاقي هذا العرض عادة استحسان الناس، ويأتي الحواة ليؤدوا عروضهم السحرية وحيلهم التي تعتمد على خفة اليد داخل المقاهي، ويحمل الحاوي صندوقًا يضع به أدواته المختلفة من حبال وأفاعٍ ومناديل وعصافير ويقدم مجموعة كبيرة من الألعاب بمساعدة صبي مستخدمًا ثعابين كبيرة الحجم يخرجها من كيس جلدي ويطوق بها رأس الصبي كالعمامة، ثم يقوم بلف ثعابين أخرى حول رقبته، ويسحب كمية كبيرة من الحرير الملون من فمه ويلفها على ذراعه، ثم يملأ فمه قطنًا ويطلق ألسنة اللهب فيخرج منه قطعًا معدنية، وهو في معظم الحيل ينفخ في صَدَفة كبيرة تعرف بمزمار الحاوي تطلق أصواتًا قريبة من صوت البوق وتنهال عليه بارات المشاهدين، ويذكر ابن إياس أن السلطان المملوكي الناصر محمد بن قايتباي أعجب بأحد الحواة بعد أن قام بخدعة مستخدمًا فيها الحيات وأغدق عليه العطايا.

وفي عام (1591م) في أوائل العصر العثماني ظهر التبغ عندما ذهب البحارة الأوربيون إلى أمريكا ورأوا الهنود يدخنون هذه المادة، ولقد أثار ظهور التبغ زوبعة من المنازعات بين العلماء وحرم الفقهاء تدخينه ويذكر المؤرخ المعروف الجبرتي أن والي مصر أصدر فرمانًا بمنع التدخين في الشوارع والدكاكين وعلى أبواب المنازل ونزل الوالي والأغا وناديا في الناس أن من يخالف الأوامر يعاقب عقابًا شديدًا، وقد يتم إطعامه الحجر الذي يوضع فيه الدخان بالنار، ولكن مع مرور الوقت انتشر التدخين بين العامة وكانت أدوات التدخين المستخدمة هي النرجيلة وهي أداة تدخين مزودة بوعاء به ماء ومشتقة من لفظ نرجيل؛ أي ثمرة جوز الهند وتتكون من ثمرة جوز هند مفرغة تثقب ويمر من خلالها أنبوب خشبي يتم من خلاله استنشاق الدخان، كما استخدموا الشيبوك وهي عبارة عن غليون طويل القصبة يتراوح طول قصبته بين أربعة وخمسة أقدام، وكان الأثرياء يصطحبون خادمًا يمشي خلفهم حاملًا الشيبوك التي كانت تطعم بالذهب والفضة وترصع بالأحجار الكريمة، ولم يكن تدخينها مقصورًا على الرجال بل كانت النساء أيضًا مغرمات بتدخينها داخل الحرملك، وكانت شيبوكاتهن مزخرفة بزخارف جميلة. وقد استخدم أثرياء القاهرة أجود أنواع التبغ وكانوا يخلطونه بماء الورد وبقطع صغيرة من العنبر فتصير رائحته عطرية، وتحتاج الشيبوكات إلى تنظيف مستمر فامتهن الكثير من العامة هذه المهنة.

ظلت القهوة هي مشروب الضيافة الرئيسي عند المصريين على مر العصور حتى اكتشاف مشروب الشاي الذي دخل مصر (1882م) في القرن التاسع عشر الميلادي وأصبح هو المشروب الشائع لديهم. والشاي في الأصل مشروب روسي، وكلمة شاي نفسها من الكلمات الروسية، ويروى أن مصر عرفت مشروب الشاي في زمن الثورة العرابية بعد أن دعا اللورد الإنجليزي لنبرن الزعيم أحمد عرابي باشا إلى مزارعه في جزيرة سيلان التي كانت تنتج أفخر أنواع الشاي، وأرسل الزعيم أحمد عرابي كميات كبيرة من الشاي كهدايا إلى أصدقائه في مصر فكانت هذه هي بداية انتشاره بين المصريين.

وجاء في كتاب (وصف مصر) في زمن الحملة الفرنسية أن مدينة القاهرة تضم ألفًا ومائتي مقهى، وأحصى علي باشا مبارك عدد مقاهي القاهرة (1880م) بألف وسبعة وستين مقهى، وقد اتسع حجم المقاهي وتغيرت طرزها مع مرور الوقت. ويصف علماء الحملة الفرنسية بعض مقاهي القاهرة فيقولون إن المقاهي أماكن متسعة تبنى من طابق واحد وتتميز بعمارتها الإسلامية وبزخارفها الغنية، ويجلس الناس فوق مصاطب حجرية تقام حول الأعمدة وتفرش الأرض بالحصير الملون، وتحيط بمعظم المقاهي أماكن فسيحة تعلوها تكعيبات العنب، ويقع في مقدمة المقاهي مصاطب مغطاة بالحصير تُعد لجلوس الزبائن. وكانت هذه المقاهي لا تخلو من أي فن من الفنون السائدة في المدينة التي تقدم عروضها داخل المقاهي مثل السير الشعبية والرقص والغناء، وكان هناك أيضًا فنون الأدباتية التي يقدمها أصحاب المواهب الأدبية من المهرجين بأسلوب زجلي مرتجل يتناولون فيها الجوانب المختلفة من الحياة العامة بالنقد والسخرية، وتبدأ عادة بجملة مشهورة يقول فيها الأدباء: «أنا الأديب الأدباتي».

كان لشرب القهوة في القرن التاسع عشر الميلادي تقاليد ومراسيم وصفها الدكتور كلوت بك ناظر مدرسة الطب في عصر محمد علي باشا وصفًا دقيقًا في كتابه (لمحة عامة إلى مصر) فقال إن القهوة تشرب في أوانٍ صغيرة من الخزف تسمى فناجين وتوضع هذه الفناجين في ظروف أي تلبيسات معدنية تصنع من الذهب أو الفضة وترصع بالأحجار الكريمة. وعند العامة يكون الفنجان من الخزف والظرف من النحاس، وتقدم الفناجين في صينية من النحاس، أما في الأرياف فتقدم فناجين صغيرة بدون آذان تسمى البيشة. ويقوم الخدم بصب القهوة في الفناجين ثم تقديمها إلى الحاضرين الذين يمسكون الظرف من أسفله بأطراف أصابعهم وتقدم القهوة أولًا إلى الشخص الذي تؤهله رتبته لأن يحوز شرف الأسبقية على غيره، فإذا وجد بين الحاضرين أكثر من شخص لهم نفس الدرجة من الأهمية تقدم إليهم فناجين القهوة في آنٍ واحد. وكانت القهوة المخلوطة بالتوابل مثل الحبهان وجوزة الطيب والمصطكى تقدم للضيوف رجالًا ونساء كواجب من واجبات الضيافة، كما أضاف كلوت بك أنه من الآداب العامة في مجالس شرب القهوة عدم الحديث مع صاحب البيت في أي أمر من الأمور إلا بعد تقديم القهوة وإلا يعتبر سوء أدب. وكان الشيبوك يقدم مع القهوة، وعندما أنشأ محمد علي باشا دواوين الحكومة في القلعة حرم على الموظفين تدخين الشيبوك أو شرب القهوة في المكاتب وأعد في كل ديوان غرفة خاصة لذلك.

واكتسبت المقاهي مع مرور الزمان وظائف وأسماء جديدة فصار هناك مقاهٍ ثقافية ومقاهٍ أدبية ومقاهٍ اجتماعية، ومقاهٍ للإنترنت وصار يطلق على المقهى كوفي شوب، وتحتفظ الكثير من مقاهي القاهرة اليوم برونقها القديم ومن أشهر هذه المقاهي مقهى الفيشاوي الذي يعتبر شاهد عيان على تاريخ حي الجمالية، أنشأ المقهى في القرن الثامن عشر رجل يدعى فهمي الفيشاوي أحد فتوات الجمالية وكان المقهى هو المقر الذي يدير منه شئون المنطقة، ويشتهر المقهى بتقديم الشاي الأخضر مع النعناع وقد أطلق اسم الأديب والمفكر نجيب محفوظ ابن الجمالية الحاصل على جائزة نوبل في الآداب (1988م) على أحد أركانه.

يا سـلام سـلم
الحيطـة بتتكلم

ومضات من الماضي تحيي سحر القاهرة المحروسة وتجسد صورة نابضة بالحياة لأسواق القاهرة المملوكية، تكتظ الأسواق بالبضائع المجلوبة من سائر البلدان، ولا تخلو ساحاتها من زائرين ومشترين، تتنوع بها المشاهد نستمع لنداءات البائعين المنغمة التي تمتزج بانسجام فيقول بائع الورد: (عطور الجنة يا ورد حنة) ويردد بائع بذور البطيخ: (يا لب محمص) ويتعالى صوت بائع الترمس: (طيب يابن النيل الصغير) ويرد بائع الجميز: (تين جميز يا عنب) ويقول السقا: (ميه حلوه إنعش روحك)، نشاهد ازدحام الناس، هم خليط من كل الأجناس والألوان، ويمر المحتسب يتبعه رجاله حاملين المكاييل والموازين لمراقبة انضباط الأسواق ويقبض على المخالفين ويعاقبهم عقابًا شديدًا أقله الضرب بالفلقة فتسود الرهبة في الجو.

مهد موقع مصر الاستراتيجي المتميز الطريق لأن تكون مركزًا للتجارة العالمية وانعكس ذلك على حركة التجارة الداخلية فانتعشت الأسواق في القاهرة وفي غيرها من الأقاليم، كما اهتم سلاطين المماليك بمدينة القاهرة اهتمامًا بالغًا، وكان للشارع الأعظم شارع القصبة المعروف اليوم بشارع المعز لدين الله النصيب الأكبر من هذا الاهتمام، فقد ألزم والي القاهرة أصحاب الحوانيت بكنس الشوارع ورشها بالماء وتعليق القناديل فوق الدكاكين، كما طبق الولاة نظامًا صارمًا لضمان الأمن بشارع المعز، ويروي لنا المقريزي أن صاحب العسس الذي كان يعرف بين العامة باسم والي الطواف كان يجلس أمام باب السوق من بعد صلاة العشاء كل ليلة يضع أمامه مشعلًا يشعل فيه النيران طوال الليل ويجلس حوله عدد من الأعوان وكثير من السقائين خوفًا من أن يحدث بالقاهرة حريق فيتداركون إطفاءه، ومن يحدث منه بالليل خصومة أو شغب يقبض عليه والي الطواف على الفور، وكان على والي الطواف تقديم تقرير يومي للسلطان ليطلعه فيه على مجريات الأمور اليومية.

امتازت القاهرة في العصر المملوكي بكثرة منازلها وضيق دروبها وغطيت أسقف شوارعها بألواح خشبية أو بحصر لحماية المارة من وهج الشمس وقام التجار بوضع مصاطب أمام حوانيتهم ليجلس عليها الزبائن، وكان بالقاهرة ما يقرب من مائتي ألف جمل لحمل المياه التي يأتي بها السقاءون من النيل ويطوفون بها على الأسواق والمنازل، وكانت وسيلة النقل الأساسية هي البغال والحمير. وقد زخرت أسواق القاهرة بمختلف أنواع السلع كالتوابل، البخور، العطور، الشمع، والصابون، وسائر أنواع المأكولات والمشروبات والمنسوجات وأقبل العامة على شراء البضائع فكانوا يتنقلون بين الحوانيت ويفاضلون بين السلع لكثرتها لدى التجار، ولا يستطيع المرء أن يمر وسط الحوانيت والباعة من شدة الازدحام.

ازدهرت الأسواق في القاهرة المملوكية وكان هناك أسواق متخصصة لبيع بضائع بعينها؛ فهناك سوق المرحلين التي تنتعش في موسم الحج ومن الممكن أن يجهز فيها مائة جمل في يوم واحد، وهناك سوق حارة برجوان التي يقصدها الناس لشراء أنواع اللحوم وسائر أصناف الخضراوات كما تضم الزياتين والجبانين والخبازين واللبانين والعطارين والخضريين، وتباع المهاميز التي تستخدم في ركوب الخيل في سوق المهامزين وبعضها يصنع من الذهب أو الفضة الخالصة، وهناك سوق اللجميين التي كانت تباع بها آلات اللجم وغيرها من المعدات الجلدية التي تستخدم في ركوب الخيل وبها عدد من صناع الطلاء والكفت والسروج، وتقع سوق الجوخيين في الجزء الجنوبي الغربي من القاهرة ويباع فيها الجوخ لعمل المقاعد والستائر وثياب السروج، وكان لبس الجوخ مقصورًا على الطبقات الشعبية لخشونته، أما أمراء المماليك فكانوا يرتدونه فقط للاحتماء من المطر. وهناك سوق الشرابيشيين التي تقع في المنطقة التي بنى فيها السلطان الغوري مجموعته وتعرف حاليًا باسم الغورية، وقد تخصصت هذه السوق في بيع الخلع والتشاريف التي كان السلاطين يمنحونها للأمراء والوزراء والقضاة وسائر موظفي الدولة، وتتصل سوق الحوائصيين بسوق الشرابشيين وكانت حوانيتها مخصصة لبيع المناطق أي الأحزمة التي يرتديها المماليك، وتعد سوق الحلاويين من أبهى الأسواق في القاهرة المملوكية لما تضمه من شتى أنواع الحلوى الملونة والتي تعرف باسم العلاليق؛ لأنها كانت تعلق بخيوط على واجهات

الحوانيت، وكان الناس من مختلف الطبقات يبتاعون من سوق الحلاويين التماثيل السكرية لأطفالهم وحُب الخشكنانج، وقطع البسندود، والمشاش.

ومن أشهر أحياء القاهرة المملوكية حي الصاغة الذي يقع في شارع بين القصرين ويضم أهم سوق لبيع الحلي المصنوعة من الذهب الخالص أو من الفضة ومازالت هذه السوق قائمة في القاهرة حتى اليوم، وهناك سوق السلاح الذي تباع فيه الدروع والسهام والقسي، وحي السيوفية الذي يباع فيه الصناديق والخزائن والأسرَّة وغيرها من المصنوعات الخشبية، وما أجمل سوق الحريريين التي كانت تقع بين البيمارستان القلاووني وجامع على المطهر بشارع المعز ويباع بها الحرير، وتقع سوق العنبريين بجوار سوق الحريريين أنشأها المنصور قلاوون لبيع العنبر الذي كان المصريون يعشقونه، ويروى أن السلطان قلاوون كان يمر يومًا من داره إلى قلعة الجبل فسمع صراخ المسجونين وشكواهم من الجوع في سجن كان يقع في هذه البقعة، فلما تولى السلطنة هدم السجن وأنشأ هذه السوق مكانه، وهناك سوق الخراطين أي النجارين وسوق الفرائين، وسوق البخانقيين التي اشتهرت ببيع الطواقي، وسوق الخلعيين التي كانت تباع بها الملابس المستعملة، وسوق الكفتيين لصناعة الكفت وهو تطعيم النحاس بالذهب والفضة؛ لأن الناس كانوا يعشقون النحاس المكفت ولا تكاد تخلو منه دار، وسوق الأبارين التي تعرض فيها مختلف لوازم الحياكة. وبخلاف أسواق العاصمة وأسواق الأقاليم عرفت مصر نوعًا من الأسواق المؤقتة التي كانت تقام في مواقع التجمعات حيث يجتمع عدد كبير من الناس حول مناسبة بعينها سواء في مولد أو احتفال ديني.

كانت القاهرة في العصر المملوكي عاصمة لإمبراطورية شاسعة الأرجاء تفد إليها أعدادٌ ضخمة من الجواري والرقيق من شتى البلدان من تركيا ووسط إفريقيا والنوبة وجزيرة صقلية تطلبت وجود أسواقٍ خاصة عرفت بأسواق الرقيق يقوم عليها تجار يعرفون بالنخاسين، وقد خرج من هذه الأسواق سلاطين عظماء مثل سيف الدين قطز قاهر التتار، والظاهر بيبرس أبو الفتوحات وشجر الدر أول ملكة في تاريخ الإسلام حكمت مصر ثمانين يومًا. ومن أشهر هذه الأسواق دار البركة بالفسطاط، وخان جعفر وخان مسرور بالجمالية ووكالة كشك. يجلس الرقيق مثلهم مثل أي سلعة معروضة للبيع في وسط الأسواق التي لا تخلو ساحاتها من بائعين ومشترين، ويأتي المشترون ويقومون بفحص وتقليب الجواري بصورة تقشعر لها الأبدان ويجرون اختبارات لقدرات المماليك في الذكاء والحساب والفروسية أمام أعين المارة، ويتم تعيين محتسب خاص لهذه الأسواق يجلس على دكة عالية تطل على سوق النخاسة ليراقب حركة البيع والشراء ويحصِّل الرسوم والضرائب المفروضة ويسجل عمليات البيع في دفتر خاص. وقد ذكر المقريزي في خططه سوق القفيصات التي خصصت للباعة الجائلين يجلسون فيها أمام أقفاص صغيرة يشبك عليها الخواتم وأساور النساء وخلاخيلهن، وقد وجد في القاهرة أعداد كبيرة من الباعة الجائلين يتجولون في الطرقات ينادون على بضائعهم المختلفة، كما أطلق الناس على الباعة الجائلين الذين يفترشون أرض السوق لعرض بضائعهم أرباب المقاعد.

ولم تخلُ الأسواق المملوكية من ألاعيب بعض التجار الذين باعوا ضمائرهم للشيطان ولم يتوانوا عن اللجوء لبعض أساليب الغش التقليدية لمضاعفة أرباحهم وشملت حيلهم كل أنواع السلع.. ويحدثنا الفقيه ابن الحاج العبدري الذي جاء إلى مصر في القرن الرابع عشر الميلادي في العصر المملوكي في كتابه (المدخل) عن حيل بعض هؤلاء التجار، إلا أن ابن الحاج يؤخذ عليه كمؤرخ تحامله الشديد على المصريين ونقده اللاذع المبالغ فيه لهم في معظم الأحوال، ولكن لا مانع من الاستشهاد ببعض الأمثلة البسيطة التي ذكرها في كتابه. يقول ابن الحاج إن بعض العطارين لجئوا لتعريض الفلفل والزعفران للرطوبة ليزيد وزنهما، كما كانوا يخلطون عود العنبر الرديء بالعنبر الخام الجيد، كما تلاعب الزياتون بأنواع الزيوت التي تختلف في أنواعها ومذاقها واستخداماتها وكان أجودها زيت الزيتون يليه زيت السيرج أي زيت السمسم، ثم زيت القرطم المستخرج من نبات القرطم ثم زيت الثلجم المستخرج من بذور نبات اللفت، ثم زيت بذر

الكتان فكان بعض الزياتين يقومون بالخلط بين سائر انواع الزيوت بغرض الغش لمضاعفة أرباحهم، وقد عمد بعض التجار - الذين لا يخافون الله - إلى خلط السكر النقي مع بعض الأصناف الرديئة فيجعلون ظاهر السكر أبيض اللون فإذا وصل المشتري بقمع السكر إلى بيته وكسره وجده من الداخل أحمر اللون. وكان الناس في ذلك الزمان يميلون للحوم البيضاء ويفضلونها على اللحوم الحمراء، فكان بعض القصابين ضعاف النفوس يعرضون في الأسواق البقر السمين ثم يذبحون غيره ويبيعونه للناس، كان الخبز في العصر المملوكي يصنع من دقيق الحنطة أي القمح ولم يكن المؤرخ المعروف المقريزي راضيًا عن نوعية هذا الخبز فيقول عنه إنه متى لبث يومًا بليلة لا يؤكل وإن أكل يتغير طعمه؛ لأنه يفقد تماسكه، وقد لجأ بعض الخبازين الذين غابت ضمائرهم إلى غش الدقيق الجيد بخلطه بالدقيق الرديء، وحينما يكتشف المحتسب أي نوع من أنواع الغش لا يتوانى عن معاقبة التجار المخالفين عقابًا بدنيًا فوريًا رادعًا ليكونوا عبرة لغيرهم. ومن أقوى محتسبي العصر المملوكي الذين ورد ذكرهم على لسان المؤرخين يشبك الجمالي محتسب القاهرة في سلطنة الأشرف قايتباي الذي يقول عنه ابن إياس إنه كان محتسبًا وافر الحرمة، ومما يروى عنه أنه استحدث عقوبة جديدة هي كشف الرأس الذي كان يعتبر في ذلك الزمان من أكبر الإهانات التي تزيد من الإيلام، وكان ينزلها بالتجار المخالفين ويمرون بهم في شوارع القاهرة مكشوفي الرءوس بدون عمامات تسترهم، ويقول في ذلك المؤرخ ابن الصيرفي: (ثم تحضره أعوانه له فيضربهم ثلاث علقات؛ واحدة على مقعدته وأخرى على رجليه وأخرى على كتفيه، ويشهرونه بلا طرطور بل يكشفون رأسه).

والحسبة هي وظيفة تقوم على المبدأ الإسلامي القائم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعد وظيفة الحسبة من أشرف الوظائف الدينية، وقد عرفت مصر الحسبة منذ القرن التاسع الميلادي، وكان منصب والي الحسبة يُعد من أخطر مناصب السلطنة المملوكية ويشترط في صاحبها أن يكون عاقلا، عادلا، ملمًا بأحكام الشريعة الإسلامية، ذا أخلاق رفيعة، يراقب الأسواق ويمنع الغش في المكاييل والموازين ويتأكد من التزام التجار بالأسعار ويمنع احتكار البضائع، ويراقب الصحة العامة، كما تضمنت الحسبة كل ما يتعلق بالدين والأخلاق كالمحافظة على الصلوات في جماعة، وأداء الزكاة، وردع أهل البدع، والمحافظة على الأخلاق العامة، ومنع تبرج النساء خارج المنازل، وكان نفوذ المحتسبين قويًا ويعاونهم عريف ومن يخالف القانون يتعرض لعقوبات شديدة. وقد برز دور المحتسبين بشكل واضح عند وقوع الأزمات الغذائية لمنع استغلال الطحانين والخبازين لتلك الشدائد، وعلى الرغم من حدوث كثير من الأوبئة والمجاعات في العصر المملوكي فقد استطاع المحتسبون توفير المواد الغذائية للناس، وفي العصر المملوكي أضيفت للمحتسبين مهمة جديدة هي وأد الفتن والقضاء على الشائعات التي كانت منتشرة بكثرة في هذا العصر، ويمر المحتسب بالشوارع والطرقات في وقت الحروب فينادي في الناس بالخروج مع السلطان أو الأمراء لملاقاة الأعداء. وكان محتسب القاهرة في العصر المملوكي يعين من قبله نوابًا عنه في بعض الأحياء، وفي بعض الأحيان يختص بعض هؤلاء النواب بمراقبة الخبازين والحلوانية أو الطباخين والشوائين. وكان من مهام المحتسب أن يعرف ما يتردد على ألسنة الناس وما يقولونه حتى لو كانوا في بيوتهم، ويعاونه في مهمته كبير بصاصي السلطنة وجهاز البصاصين المملوكي الذي يشبه جهاز المخابرات اليوم.

ويقوم المحتسب بحملات تفتيشية متكررة على الأسواق المنتشرة في القاهرة يتبعه أعوانه فيستعرض الموازين والأثقال التي يستخدمها الباعة ويسأل الناس عن الثمن الذي دفعوه، ثم يأمر بأن توزن أمامه البضائع فإذا وجد أي تلاعب في الوزن أو مغالاة في الأسعار يأمر أتباعه بتوقيع أقصى العقوبات الجسدية على المخالفين، وتعلو توسلات البائعين طالبين العفو والسماح ولكنها لا تجدي في الغالب. وتتراوح العقوبات على المخالفين فيعلق الخباز الذي يغش في وزن الخبز من أذنيه على باب الحانوت، وإذا تكرر منه الغش فإنه يتم تجريسه أي يشهر به في طرقات القاهرة فيطرح على ظهر جمل يطوف به في شوارع المدينة ويضرب الجرس على رأسه ليجتمع حوله الناس ثم يجلد علنًا ليكون عبرة لغيره، أما الجزار الذي يتلاعب في الموازين

فيقطع المحتسب قطعة من اردافه بالمقص توازي ما اقتطعه بالغش في الميزان، اما تجار الغلال والفواكه والخضراوات الذين يتلاعبون في الموازين فيتم قص قطعة من آذانهم بالمقص، وباعة الفطائر الذين يقومون بالغش يكون عقابهم الجلوس فوق الصواني الملتهبة ليكونوا عبرة لغيرهم.

وفي عهد السلطان برقوق حدثت واقعة عجيبة؛ فقد شاع بين الناس أن هناك شخصًا يتكلم من داخل الحائط فافتتن العامة بهذا الحائط، وبداية القصة التي ذكرها المقريزي في كتابه (السلوك لمعرفة دول الملوك) أن رجلًا يدعى ابن الفيشي دخل يومًا إلى بيته بالقرب من الجامع الأزهر الشريف فسمع صوتًا من جدار البيت يقول له: «يا ابن الفيشي اتق الله وأحسن إلى زوجتك» ففزع الرجل وظن أن المتحدث من الجان واستدعى الجيران فسمعوا الجدار يتكلم وبحثوا عن مصدر الصوت فلم يجدوا شيئًا فأشاعوا الواقعة بين الناس، ويقول المقريزي: فأقبل الناس من كل جهة لسماع كلام الحائط فقالوا: (يا سلام سلم الحيطة بتتكلم). وعلم محتسب القاهرة محمود العجمي بالأمر فتوجه إلى البيت المذكور وأمر بهدم الحائط وبعد فترة أرسل رسله ليستطلعوا حديث الجدار بعد هدمه فوجدوا الكلام لا يزال مستمرًا وفتنة الناس قد ازدادت به فذهب المحتسب إلى الجدار وأخذ يقرأ شيئًا من القرآن الكريم فقوي ظنه أن القصة مفتعلة فلم يزل يبحث حتى عرف باطن الأمر فقبض على ابن الفيشي وزوجته وما زال يستدرجهما حتى اعترفا بالجريمة وقالت زوجته إنها هي التي كانت تتكلم من قرعة أي فجوة في الحائط فيصير صوتها غريبًا لا يشبه أصوات الآدميين، وإن الذي دعاها إلى ذلك أن زوجها كان يسيء معاملتها فاحتالت عليه بهذه الحيلة لتوهمه بأن الجان يوصيه بها خيرًا، فلما تمت الحيلة رأى زوجها أن تستمر على ذلك لينالا جاهًا ومالًا وفيرًا. وركب المحتسب محمود العجمي إلى الأمير الكبير وأعلمه باعترافات ابن الفيشي وزوجته فأمر الأمير الكبير بضرب ابن الفيشي بالمقارع، كما أمر بضرب امرأته بالعصي نحوًا من ستمائة ضربة وأمر بهما (فسمرا) على جملين وشهرا بالقاهرة.

تمر الأيام وتتوالى الأعوام وما أشبه اليوم بالبارحة، تتكرر الصور، تتكرر الأحداث، يموت الخلق وتفنى كنوز الدنيا وسبحان الديان الذي لا يموت.

الخاطبـــة
فــي العصــر المملوكي

امرأة ذات مكر ودهاء، ليست ككل النساء، تأتي من عصور بعيدة، كلامها معسول ولها عند الناس قبول، تطرق الأبواب لتروج سلعها من مسك وعنبر وحرير وثياب وعندما ترى جميلة الجميلات ست البنات تتكشف حقيقة أمرها ولا تستطيع الاحتفاظ بسرها فتبشر أهل الدار بقدوم فارس الأحلام، فيتم المراد وتقام الأفراح والليالي الملاح.

ظهرت مهنة الخاطبة لأول مرة في التاريخ من بين طيات العصر المملوكي واستمرت في تقديم خدماتها على مدى سبعمائة عام فلعبت دورًا رئيسيًا في إتمام الزيجات؛ لأن قديمًا كان الراغب في الزواج لا يستطيع أن يرى الفتيات ليفاضل بينهن. ويقول لنا المؤرخ ابن دانيال إن الخاطبة كانت تعرف كل حرة ومليحة وقبيحة وإنها كانت أحيانًا تنتحل مهنة الدلالة لتستطيع دخول البيوت متظاهرة ببيع البخور والعطور والأقمشة وغير ذلك من لوازم النساء فتتعرف كل الأسرار، وعندما يطلب إليها العريس مواصفات خاصة للعروس تنتقي له فتاة بها المواصفات المطلوبة وتمده بالمعلومات اللازمة عنها، وجرت العادة أنه إذا رضي الراغب في الزواج عن المعلومات التي تقدمها له الخاطبة فإنه يعود إليها مرة ثانية ويقدم لها هدية قد تكون قرطًا من الذهب أو بعض المال، ثم تذهب الخاطبة مرة أخرى لأسرة الفتاة لتعلمهم برغبة العريس في الاقتران بابنتهم. وإذا اتفق الطرفان يدفع العريس المهر، وكان عقد القران ودفع المهر والصداق يتعرضان لمساومات ومناقشات عديدة، وجرت العادة في مصر المملوكية أن يدفع العريس

جزءًا من المهر مقدمًا قبل عقد القران، اما الباقي وهو مؤخر الصداق فكان يسدد على اقساط مؤجلة، وتحضر الخاطبة حفل الزواج حيث تكون موضع تقدير وتدليل من الطرفين. ويبدو أن الناس في العصر المملوكي قد تغالوا في طلب مؤخر الصداق وقد سجل النص التالي في بابة طيف الخيال من تمثيليات خيال الظل، وهي أقوال رجل يشكو من الفقر الشديد بعد أن افترق عن زوجته ودفع مؤخر صداق كبيرًا:

فإذا رقدت رقدت غير ممدد في منزل لم يبق غيري قاعدًا

ومخـدة كانـت لأم المهتدي لم يبق فيـه سـوى حصيرة

من كل لون مثل ريش الهدهد هذا ولي ثـوب تـراه مرقعًا

وكانت المدة بين عقد القران والزفاف لا تتجاوز عشرة أيام تكون كلها أفراحًا متصلة، وكان حمام العروس من أهم الأحداث في حياة الفتيات، وجرت العادة بأن يذهب العروسان إلى الحمام في موكب كبير يعرف باسم زفة الحمام منذ الصباح الباكر، تخرج العروس ومعها صديقاتها وقريباتها وتركب في التختروان وهو خيمة جمالونية لها ستائر من الحرير الملون مخصصة لزفة العرائس، وتسير زفة العروس في موكب كبير تتبعها والدتها وصديقاتها يصاحبهن الموسيقيون والعوالم يتقدمهن خادم يحمل صينية من الذهب أو الفضة عليها زوج من القباقيب ومشط عاجي وقمعان من السكر الأبيض وشمعتان ومنديلان ورطلان من اللبن كنوع من الفأل الحسن للزيجة، وتقضي العروس يومًا بأكمله تعتني بها البلانات والماشطات، وتعود إلى منزل أبيها في أبهى صورة في موكب من قريباتها وصديقاتها يتبعهن حشد من الموسيقيين والراقصات. كما يذهب العريس أيضًا إلى الحمام فيحلق له المزين شعر رأسه ويهذب لحيته ثم تجرى له عملية التدليك والتكييس ويعود بين أصدقائه وأقاربه من المدعوين في موكب موسيقي بديع.

وبعد عقد القران يتم نقل الشوار أي الجهاز إلى بيت العريس في حفل يشترك فيه الأقارب والمعارف، ويتكون الجهاز من سبع دكك أي أسرّة من الفضة والنحاس الأبيض والخشب والصيني والنحاس المكفت والبلور، و(طشت) وإبريق ومبخرة وأوانٍ وصناديق للحوائج وعدد من المساند، أما بنات الفلاحين فكان جهازهن عبارة عن صندوق خشبي ملون يحوي جهاز العروس يوضع فيه الملابس والحلي، وحصير يستخدم للجلوس، ولحاف، وأدوات للمطبخ، ورحى من الحجر لطحن الحبوب، وقناديل من الفخار، وأدوات تجميل بسيطة. وفي ليلة الزفاف تلبس العروس فستان الزفاف المزركش ولا يشترط أن يكون أبيض اللون وتغطي بشال كبير أو بطرحة بيضاء من رأسها حتى أخمص قدميها مع حذاء مطرز وتضع على رأسها شربوشًا مثل التاج، وتقام وليمتان الأولى للنساء في منزل العروس والأخرى للرجال في منزل العريس، وتضرب الدفوف ويعلو صوت الموسيقى والأغاني، وفي نهاية الاحتفال يأخذ العريس عروسه إلى البيت.

ورغم بساطة زيجات عصر النبوة وبُعدها عن التكلف فإن التاريخ الإسلامي في العصور اللاحقة يحفل بالكثير من الزيجات التي تغالى السلاطين في الاحتفال بها وأسهب في وصفها المؤرخون، كانت أفراح الأمراء والسلاطين تستمر لسبعة أيام تنحر فيها الذبائح من الأغنام والبقر والدجاج والإوز والخيول، وبعد نهاية الحفل تركب العروس فوق محفة عبارة عن محمل في أعلاه قبة تحمل على بغلين أو جملين تسمى الهودج وقد تدوم الزفة لأكثر من ثلاث ساعات، ويكون جهاز السلاطين عظيمًا يتكلف مئات الآلاف من الدنانير.. ويروى أن السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون قد جهز إحدى عشرة ابنة له وكَلّفَ جهاز كل منهن ما لا يقل عن ثمانمائة ألف دينار. ومن أشهر زيجات العصور الإسلامية زواج الأميرة قطر الندى ابنة خمارويه بن الأمير أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية من الخليفة العباسي المعتضد بالله،

وقد افاض المؤرخون في وصف هذا العرس وما صاحبه من مظاهر البذخ فيذكر المؤرخ ابن كثير أن خمارويه جهز ابنته بما لم يسمع بمثله حتى قيل إنه كان في جهازها مائة هاون من الذهب.. وأشار السيوطي إلى أن جهاز قطر الندى كان يحوي عشرة صناديق جواهر، وقد نقل جهازها من مصر إلى بغداد في ستة أشهر. وكان زفاف قطر الندى خياليًّا أقيمت الاحتفالات ومدت الأسمطة الفاخرة في صحاف من ذهب وأضيئت آلاف المشاعل التي نشرت أشعتها الوردية على المدينة، وكانت قطر الندى ترتدي في كل ليلة ثوبًا من الحرير المرصع بفصوص الجواهر الثمينة وحبات اللآلئ واليواقيت المتوهجة التي لا تكاد الأبصار تحتمل بريقها، ويزين رأسها إكليل من الذهب الخالص ينعكس نوره فيضيء وجهها. وغنى لها العامة (يالحنة يالحنة يا قطر الندى يا شباك حبيبي يا عيني جلاب الهوى) للتعبير عن فرحتهم بأشهر عروس مصرية في التاريخ وأصبحت هذه الأغنية تعبيرًا شعبيًّا لهذا الحدث الذي تناقلته الأجيال في مصر لأكثر من ألف عام. وفي العصر الفاطمي كان هناك العديد من الزيجات الحافلة بمظاهر البذخ والترف والأبهة التي تبارى المؤرخون في وصفها ومن أشهر هذه الزيجات زواج الخليفة الفاطمي العاضد بالله من أخت وزيره العادل بن رزيك، فأقيمت الموائد الحافلة للعامة والخاصة واصطحبت العروس في جهازها صناديق مملوءة بالذهب. وفي العصر الأيوبي كان الزواج يتم بين الأسرات الحاكمة لتقوية الصلات وللحفاظ على روابط القربى وصلة الدم بين أبناء البيت الأيوبي، كما كان هناك زيجات سياسية لتدعيم العلاقات بين بني أيوب وسلاجقة الروم.

وفي العصر المملوكي لم تكن الزيجات بين طبقة المماليك تتم عن طريق الخاطبة؛ فقد حرص أفراد هذه الطبقة على مصاهرة بعضهم البعض، وأظهرت حفلات زواجهم مدى الثراء والترف والازدهار الاقتصادي في العصر المملوكي، وكان هناك العديد من الزيجات التي تتم لتقوية الروابط بين السلاطين والأمراء ولتحسين العلاقات بالممالك المجاورة مثل زواج الناصر محمد بن قلاوون(1320م) بخوند طولبية إحدى الأميرات المغوليات. وظهرت حالات زواج بين المماليك وعامة المصريين في أيام الظاهر برقوق عندما رخص للمماليك بالسكن في القاهرة فنزلوا من الطباق بالقلعة واختلطوا بالعامة ونكحوا نساء أهل المدينة وأخلدوا إلى البطالة. وشهدت منظرة الكبش حفل زفاف ابنة الملك الناصر محمد بن قلاوون على ولد الأمير أرغون نائب السلطنة بمصر وكان جهازها عظيمًا ندر أن يكون له مثال كما يقول المقريزي: «جهز جهازًا عظيمًا منه ستارات طرز بثمانين ألف مثقال ذهب مصري سوى ما فيه من الحرير وأجرة الصناع وعمل سائر الأواني من ذهب وفضة فبلغت زنة الأواني المذكورة ما ينيف على عشرة آلاف مثقال من الذهب، وتناهى في هذا الجهاز وبالغ في الإنفاق عليه حتى خرج عن الحد في الكثرة فإنها كانت أولى بناته، ولما نصب جهازها بالكبش نزل من قلعة الجبل وصعد إلى الكبش وعاينه ورتبه بنفسه وألزم الأمراء بحضوره فلم يتأخر أحد منهم عن الحضور ونقط الأمراء الأغنياء على مراتبهم من أربعمائة دينار كل أمير إلى مائتي دينار سوى الشقق الحرير واستمر الفرح ثلاثة أيام بلياليها».

كما يذكر ابن إياس أن السلطان قنصوه الغوري خطب لابنه الناصري محمد وهو في الثالثة عشرة من عمره ابنة الأمير سيباي نائب الشام وأرسل إليه بدمشق اثنين من رجاله للتقدم بهذه الخطبة وبعث معهم عشرة آلاف دينار مهرًا معجلا، وعشرة آلاف أخرى مؤخر الصداق، وتم الزواج (1514م) بجامع القلعة بحضور الأمراء والقضاة وكاتب السر والأعيان والمباشرين، وطاف الخدم على الحاضرين بأواني الشراب، وخلع السلطان على القضاة خلعًا ثمينة عبارة عن أثواب من الصوف الأبيض تدعى الكاملية، وخلع على كل من الأميرين سودون العجمي وطومان باي الدوادار بكاملية من المخمل الأحمر؛ لأنهما كانا وكيلي العقد.

انقضى عصر الملوك والمماليك بسحره وثرائه وحفلاته وزيجاته، وتوارت الخاطبة والدلالة والداية بين صفحات التاريخ وتركوا لنا ذكريات ناعمة تداعب خيالنا.

ميـــدان الرميـلـــة

لكل عصر مكان يأوي إليه الناس في أفراحهم وأحزانهم، ينقل نبض إحساسهم، ويعكس صدق مشاعرهم، وتختلف الأماكن والمسميات من عصر إلى عصر، ميدان الرميلة مكان رابض تحت قلعة الجبل، شاهد على كل العصور، استمع لصيحات الحرية النابعة من قلوب المصريين، كم تعانق صوته مع صوتهم، كم تخضبت أرضه بدماء شهدائهم، كم هلل معهم في انتصاراتهم، كم تزين وتجمل ليشاركهم في احتفالاتهم، وأثبتت إرادة الشعوب على مر العصور أنها أقوى من استبداد الطغاة، أطلق على الميدان العتيق الكثير من الأسماء على مر العصور، فسمي ميدان الرميلة في العصر المملوكي، وميدان قرة ميدان أي الميدان الأسود في عصر محمد علي باشا، وتغير اسمه إلى ميدان صلاح الدين في العصر الحديث، ويطلق عليه اليوم ميدان القلعة.

الميادين هي تلك الأماكن الواسعة التي تتوسط المدن، وقديمًا كانت تستخدم في أغراض عديدة مثل تدريب الجيوش وتقديم استعراضاتها، كما استخدمت كمتنزهات للعامة وكأماكن لإقامة الاحتفالات في المواسم والأعياد المختلفة، ولاتساع مساحة الميادين كانت تقام بها الألعاب الرياضية وسباقات الخيول. وترجع إقامة الميادين الكبيرة في مصر للأمير أحمد بن طولون الذي أنشأ ميدانه الكبير مجاورًا لمدينة القطائع، وفي العصر الفاطمي كان ميدان بين القصرين هو قلب القاهرة النابض، وفي العصر المملوكي تعددت الميادين، وكان أهمها ميدان الرميلة تحت القلعة، والميدان الناصري على النيل، وميدان بركة الفيل وميدان القبق، ومع انتهاء العصر المملوكي قل الاهتمام بالميادين وتناقصت أعدادها وتم تحويلها إلى بساتين ومزارع.

كان لصلاح الدين الأيوبي نظرة استراتيجية حربية واضحة، وشكل العصر الأيوبي بداية الاهتمام الشديد بالنواحي الأمنية للمدن، اختار صلاح الدين الأيوبي موقعًا متميزًا لتشييد قلعة الجبل فوق جرف صخري في أعلى موقع بالمدينة يشرف على وادي النيل من جانب، وعلى جبل المقطم من الجانب الآخر ليحمي مدينة القاهرة من الحملات الصليبية المتكررة، وصارت قلعة الجبل منذ ذلك الحين من أهم الحصون الإسلامية ومقرًا لكل سلاطين مصر حتى عصر الخديوي إسماعيل الذي قام بنقل مقر الحكم إلى قصر عابدين.

يقع ميدان الرميلة بين الفضاء المتسع القائم بين باب العزب وجامع الرفاعي ومدرسة السلطان حسن، وتأتي تسميته بالرميلة لأن أرضه كانت رملية. تغيرت ملامح ميدان الرميلة عبر العصور فحتى العصر الطولوني كان مجرد أرض فضاء إلى أن قام حاكم مصر أحمد بن طولون بتشييد ميدانه بهذه البقعة، فصار عامرًا بالحياة، وفي العصر الفاطمي استخدم الميدان كسوق لبيع الخيول والدواب، وفي العصر الأيوبي شيد الملك الكامل أسوارًا حوله وأقام ثلاث برك بجواره، وظل مزدهرًا طوال حكم الأيوبيين. وفي العصر المملوكي بدأ السلطان الناصر محمد بن قلاوون في عمارة ميدان الرميلة (1312م) وأنشأ به سبع قاعات تشرف عليه ليشاهد أفراد أسرته الألعاب والاحتفالات بدون الاختلاط بالناس، كما صلى الناصر محمد بالميدان صلاة العيد وظلت هذه عادة لا تنقطع عند سلاطين المماليك حتى حكم السلطان الظاهر برقوق مؤسس دولة المماليك البرجية، الذي جعل الصلاة بجامع القلعة. واعتاد الناصر محمد النزول للميدان يومي الثلاثاء والسبت من كل أسبوع لممارسة لعبة الصوالجة، وأقام به (1318م) مجرى مياه محمولا على عقود تبدأ من نهر النيل فى مصر القديمة وجعل لها العديد من السواقي لتصب المياه في الميدان. وأقيمت الأسواق حول ميدان الرميلة كسوق السلاح وسوق الخيل وسوق الجمال.

عبر تاريخنا الطويل الممتد لم تكن الأمور دائمًا سهلة ممهدة، وتعرض المصريون في فترات كثيرة للظلم والاستبداد، ولكن الروح المصرية لا تهن والهمم لا تفتر، ففي أحلك الأوقات تنطلق الجذوة الكامنة ويتكاتف الناس كالجبل الشامخ فيتصدون للبغي والعدوان بروحهم الثورية التي

تأبى القهر. وفي العصر المملوكي احب العامة السلطان الناصر محمد بن قلاوون حبًا شديدًا، وفي ولايته الثانية عزله المماليك وسطا على عرشه الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير الذي كان مكروهًا من العامة لشدته وعين الأمير سلار نائبًا للسلطنة، توفي عام (1309م). عم البلاد جفاف شديد واشتد البلاء على العامة فضاقت صدورهم، وأغلقت الأسواق وتجمع الناس في ميدان الرميلة تحت القلعة (كما يتجمعون في ميدان التحرير اليوم)، وطالبوا بخلع السلطان بيبرس الجاشنكير وعودة سلطانهم المحبوب الناصر محمد بن قلاوون فهتفوا قائلين:

يجينا المـــاء مـن أيـن؟ سلطاننا ركين ونائبو دقين

ييجـي المـــاء يدحـرج هاتـــوا لنـا الأعـرج

وقد أطلق العامة لقب الأعرج على الناصر محمد بن قلاوون؛ لأن به بعض عرج في إحدى قدميه، ولقبوا السلطان بيبرس الجاشنكير بركين؛ لأن لقبه ركن الدين، أما سلار فأطلقوا عليه دقين لأنه أجرد. ولما علم السلطان بيبرس الجاشنكير بالهتافات المعارضة لحكمه قبض على ثلاثمائة شخص وضربهم بالمقارع، ولكن انتصرت إرادة الشعب المصري التي لا تقهر وتم خلع بيبرس الجاشنكير وعاد الناصر محمد بن قلاوون للحكم.

كان ميدان الرميلة يمثل الحد الفاصل ما بين القلعة والمدينة وعدّه المؤرخون جزءًا لا يتجزأ من قلعة الجبل. استخدم ميدان الرميلة في العصر المملوكي استخدامات عديدة فبجانب كونه متنزهًا ملكيًا صار مجلسًا للملوك والولاة للنظر في المظالم، ففي عصر السطان برقوق أمر بأن يجتمع الناس بالرميلة لينظر في مظالمهم من خلال مجلسه بالإسطبل السلطاني (1387م) وكانت المظالم قبل ذلك تنظر في دار العدل القديمة التي بناها الملك الظاهر بيبرس ملاصقة للميدان (1263م). كما شهد ميدان الرميلة حفلات زواج السلاطين والأمراء مثل زواج ابن الملك بيبرس على بنت الأمير سيف الدين كسروته التتري (1246م)، كما شهد الاحتفال بزواج السلطان الناصر محمد بن قلاوون على ابنة أزبك ملك التتار (1321م) وكان احتفالاً عظيمًا فرش فيه الميدان بالمفروشات الفاخرة ونصبت السرادقات وحضر الاحتفال رسول من ملك الكرك ورسل ملك الدولة البيزنطية وقدموا الهدايا الفاخرة للسلطان. كما شهد الميدان العديد من مراسم الاحتفالات فمرت به المواكب السلطانية واستعراضات الجيوش، وفي عام (1346م) أمر السلطان المملوكي المظفر حاجي بعمل موكب كبير بميدان الرميلة فاصطف الأمراء والمماليك في صفين من الصليبة إلى القلعة ليطلع السلطان على جيوشه العظيمة وكان يومًا مشهودًا. كما كان السلاطين يستعرضون في يوم العيد رسوم وشعائر السلطنة، فيوزعون الخلع السلطانية على أرباب الوظائف من الأمراء وأعيان الدولة وقضاتها وعلمائها، وتمد الموائد وتنحر الذبائح وتفرق على عامة الناس، كما استخدم الميدان للاحتفال في المناسبات الخاصة مثل شفاء السلاطين والأمراء وزوجاتهم.

اشتهر سلاطين المماليك وأمراؤهم بولعهم الشديد بألعاب الفروسية والصيد والقنص والرياضة على اختلاف أنواعها، وكان ميدان الرميلة مكانًا هامًا للألعاب الرياضية مثل رمي النشاب، وقذف الرمح، ولعبة الكرة والصولجان أو الصوالجة التي تشبه لعبة البولو اليوم، وهي عبارة عن عصا طويلة معقوفة يتم ضرب الكرة بها من فوق ظهور الخيول، وكانت الفروسية إحدى الرياضات المهمة في العصر المملوكي ومن لا يجيدها من المماليك يصبح محل سخرية من الأمراء والسلاطين.

ومن الألعاب الرياضية المرتبطة بالفروسية لعبة القبق التي أقبل عليها المماليك، وهي لعبة رماية تقوم على تصويب السهام نحو قرعة مطلية بالذهب وبداخلها طيور الحمام، والفائز هو الذي يصيب القرعة ويطلق الحمام فيخلع عليه السلطان خلعة نفيسة، والقبق كلمة تطلق على

الهدف المستخدم في لعب الرماية والمعروف باسم القبق. كما كان الميدان بمثابة ساحة رياضية تقام فيه المسابقات ما بين الحيوانات والطيور مثل سباقات الخيل والأفيال ومناطحات الكباش والثيران ومناقرة الديوك، والعروض التي تظهر قدرات أصحابها الخارقة والألعاب البهلوانية العجيبة، وتتجمع الجماهير العريضة من كل حدب وصوب بداخل الميدان لمشاهدة الألعاب المختلفة. وفي عام (1424م) مد مملوك يدعى يشبك حبلًا فوق ميدان الرميلة ربط أحد طرفيه بمئذنة مدرسة السلطان حسن وشد الطرف الآخر فوق الأشرفية بالقلعة وهي مسافة بعيدة جدًا. ووقف السلطان برسباي وجميع الأمراء والمماليك ينظرون من القلعة واستحسنوا العرض المشوق، وأدى المملوك العديد من الألعاب البهلوانية العجيبة فأنعم عليه السلطان بخلعة ثمينة.

ارتبط ميدان الرميلة باحتفال كبير كان يُعد من أهم الاحتفالات بمصر في العصرين المملوكي والعثماني وهو الاحتفال بدوران وخروج المحمل الشريف الذي يحمل كسوة الكعبة المشرفة، وكان هذا الاحتفال يُعد من الأحداث الجليلة القدر التي ينتظرها الناس مرتين في العام؛ الأولى في نصف شهر رجب، والثانية في شهر شوال، وقد بدأ هذا الاحتفال في العصر المملوكي، وكان يُعد واحدًا من المحاسن والفضائل التي اختصت بها مصر حتى تم إلغاؤه في منتصف القرن العشرين، وأول من استحدث الاحتفال بدوران المحمل هو السلطان الملك الظاهر بيبرس (1258م).

وقد استخدم ميدان الرميلة في العصر المملوكي في النشاط الدبلوماسي فاستقبل السلاطين السفراء والرسل والضيوف من سائر أنحاء العالم، وأحسن سلاطين المماليك استقبال هؤلاء الرسل وعينوا لهم موظفًا مخصوصًا يدعى المهمندار لاستقبالهم وتلبية طلباتهم. وكان سلاطين المماليك يقيمون المواكب السلطانية والاستعراضات المبهرة وألعاب الفروسية بميدان الرميلة ليظهروا شدة بأسهم ومقدرتهم الحربية وعظمة السلطنة المملوكية لهؤلاء السفراء لينقلوا إلى بلادهم ما رأوه من عز وهيبة السلطنة المملوكية.

كما استمر الاهتمام بميدان الرميلة في العصر العثماني بحكم أهميته الاستراتيجية، ولكن شهد الميدان حادثًا مأساويًا في زمن الحملة الفرنسية (1798م) فقد أصدر الجنرال نابليون بونابرت أمرًا بإعدام السيد محمد كريم زعيم المقاومة الشعبية في ميدان القلعة رميًا بالرصاص، ونفذ فيه حكم الإعدام بميدان الرميلة بالقلعة لتطوى بذلك صفحة من صفحات الجهاد الوطني المشرف.

وكان هناك ميدان آخر ملاصق لميدان الرميلة، ويفصل بينهما سور، ويسمى بميدان تحت القلعة، يمتد من بعد باب العزب حتى باب القرافة (ميدان السيدة عائشة اليوم)، وقد اهتم سلاطين المماليك بميدان تحت القلعة فأصلح السلطان الأشرف شعبان الميدان وجدده وأعاد إليه نضارته وساق أمير آخور جهركس الخليلي ماء النيل إلى الميدان (1381م) عبر مجرى العيون، كما جدد السلطان المملوكي الظاهر برقوق عمارته وزرعه بالنجيل وغرس به النخيل. وفي حكم السلطان الملك الأشرف قنصوه الغوري تمت تعلية أسوار ميدان تحت القلعة وغطيت أرضه بطمي كثيف وتم بناء مقعد وقصر عظيم والعديد من المباني الفاخرة بداخله، وغرس بالميدان سائر أنواع الفواكه والأزهار والرياحين، وجعل له باب كبير وسلسلة حديدية. وفي عام (1506م) أبطل السلطان الغوري المجراة القديمة التي كان قد بناها الناصر محمد بن قلاوون ليمد الميدان والقلعة بالماء، وبدأ في بناء أخرى هي القائمة حاليًا وشيد حولها السواقي وأنفق عليها أموالاً كثيرة، فوصل الماء إلى ميدان تحت القلعة حتى صار جنة على وجه الأرض، وأغرم السلطان الغوري بالميدان وكان يقضي به معظم أوقاته متكئًا فوق مقعد من المخمل تظلله فروع الياسمين، وتقف حوله الجواري الحسان بأيديهن المذبات، ويعلق في الأشجار من حوله أقفاص الطيور من بلابل وشحارير ليستمتع بغنائها.

ميدان الرميلة يسحر العين ويثير خيال الناظرين وقد عبر عدد من الرحالة عن انبهارهم بهذا

المكان الساحر من فوق شرف القلعة فيقول المستشرق الفرنسي بول كازانوفا الذي زار مصر في القرن التاسع عشر الميلادي وقام بدراسة مستفيضة عن قلعة الجبل: «هذه الصور والمناظر التي ترى من هذا المكان بالقلعة تهز أكثر الناس برودًا، وتدفع بالفيلسوف إلى بحر من التأمل، وتبعث النشوة في روح الفنان، بل تدفع أبعد الناس عن الإحساس بالجمال إلى عالم من الأحلام والتأملات، حقًا إنه ليصعب على المرء أن يفيق من روعة وسحر هذا المنظر الذي لا يوجد له نظير فوق سطح المعمورة».

تمر الأيام وتتوارى الأعوام ويبقى ميدان الرميلة ماثلاً منذ الأزل تحت قلعة الجبل فيجسد لنا الماضي حيًا، ويعكس روح الأزمنة البعيدة، ينبعث منه عبق التاريخ، ويشهد على عظمة مصر عبر العصور المتعاقبة. تحيط بميدان الرميلة اليوم مآذن القاهرة العتيقة من مساجد السلطان حسن والرفاعي والمحمودية ومحمد علي بالقلعة وقانيباي الرماح فتضفي عليه أصالة وعراقة.

صـــروح الرحمـــة

صرح عظيم يقع في قلب القاهرة العتيقة، ينشر على الوجود لمسات إنسانية صادقة، أشاد به الرحالة والمؤرخون على مر العصور، الحياة بداخله ابتسامة هادئة تشق طريقها من بين الآلام فترسم السعادة على الوجوه، جدرانه حضن دافئ يبدد قسوة الآلام، أناسه ملائكة رحمة.

يُعد البيمارستان القلاووني، المستشفى الذي شيده السلطان المملوكي المنصور قلاوون لعلاج المرضى، علامة حضارية مميزة تعكس مدى عظمة ورقي عصر سلاطين المماليك، وتؤكد نبوغ المصريين في علوم الطب وحرصهم على إنشاء المؤسسات العلاجية قبل أن تعرفها أوروبا بقرون عديدة.

أحس سلاطين المماليك بآلام الناس فأقاموا لهم منشآت علاجية مجانية كصدقة جارية لعلاج المرضى أطلق عليها البيمارستانات، وأوقفوا عليها الأوقاف المختلفة، كان المرضى يقيمون بالبيمارستان؛ حيث يلقون العناية الفائقة حتى يتماثلوا للشفاء، وبيمارستان كلمة فارسية تتكون من جزأين: الأول «بيمار» أي مريض، والآخر «ستان» ومعناها مكان معالجة المرضى. عرف الطب في مصر منذ آلاف السنين وكان يمارسه أفراد، وعرفت البيمارستانات في الحضارة الإسلامية في وقت مبكر، فأول المستشفيات المتنقلة كان خيمة رفيدة وهي امرأة كانت تداوي الجرحى في عهد النبي ﷺ، ولقد قال رسول الله ﷺ حين أصاب سعد بن معاذ رضي الله عنه السهم في غزوة الخندق: «اجعلوه في خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب».

أنشئت البيمارستانات كمعاهد للطب ولتعليم الأطباء، وكمستشفيات للمرضى يمارس بها الأطباء العمل، وتكون مجهزة بالمعدات والأدوية، وتعالج فيها جميع الأمراض والعلل من باطنية وجراحية ورمدية وعقلية. وأقيم أول مستشفى في العصر الإسـلامي في عهـد الخليفـة الأموي الوليد بن عبد الملك (706م) وجعل في البيمارستان أطباء وأجرى لهم الأرزاق، ويرجح أنه كان مبنيًا لعزل مرضى الجذام. أما أول مستشفى بمعناه الكامل فقد أنشئ في عهد هارون الرشيد في بغداد، وفي مصر أقيم أقدم بيمارستان في زقاق القناديل أحد أزقة الفسطاط، وكان يوجد بيمارستان آخر يعرف بالمعافر، ويرجح العديد من المصادر التاريخية أن أول بيمارستان أنشئ في مصر هو البيمارستان العتيق الذي شيده أحمد بن طولون (872م) وأنفق عليه ستين ألف دينار وألحق به صيدلية، وكان يشرف عليه بنفسه ويذهب لتفقد خزائنه ويزور المرضى كل يوم جمعة، وقد وهب ابن طولون البيمارستان لعامة الناس واشترط ألا يعالج به جندي أو مملوك، وألحق به حمامين أحدهما للرجال والآخر للنساء. ويروى أن الأمير أحمد بن طولون دخل ذات يوم لتفقد المجانين فقال له أحدهم: «أيها الأمير، ما أنا بمجنون وإنما عملت على حيلة وفي نفسي شهوة لأكل الرمان، أريد رمانة كبيرة». فأمر ابن طولون فأحضروا له الرمانة فقذفها بكل ما أوتي من قوة في صدر أحمد بن طولون حتى نضحت على صدره، فأمر بتشديد الحراسة على هذا المجنون ولم يدخل محبس المجانين من بعدها أبدًا. وكان من شروط دخول البيمارستان العتيق، أن المريض يسلم ملابسه ومستلزماته وتحفظ عند أمين البيمارستان وكانت علامة الشفاء أن يأكل المريض فرُوجًا فيؤذن له بالانصراف ويأخذ ملابسه ومستلزماته. وكذلك أقام الناصر صلاح الدين الأيوبي البيمارستان الناصري بالقاهرة في قاعة من قاعات القصر الفاطمي (1171م)، قال عنه المؤرخ ابن جبير: «وهو قصر من القصور الرائعة حسنًا واتساعًا، أبرزه لهذه الفضيلة تأجُّرًا واحتسابًا، وعيّن قيمًا من أهل المعرفة، وضع لديه خزائن العقاقير ومكنه من استعمال الأشربة وإقامتها على اختلاف أنواعها، ووضعت في مقاصير القصر أسِرَّة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسى». وهناك البيمارستان المؤيدي الذي شيده السلطان المملوكي المؤيد شيخ، وبعد موته أغلق وصار منزلاً للرسل الأجانب، وللأسف لم يتبق من كل هذه المنشآت أي أثر.

أما أشهر بيمارستان في مصر على الإطلاق فهو البيمارستان المنصوري الذي أنشأه السلطان سيف الدين المنصور قلاوون (1248م) وعرف باسم البيمارستان القلاووني، وكان يضم مائة سرير، ويعالج بالمستشفى أربعة آلاف مريض يوميًا. واشتمل البيمارستان على أقسام مختلفة: قسم للحميات، قسم للرمد؛ أي العيون، قسم للإسهال، قسم للجراحة، قسم للكسور، قسم للأمراض النفسية، وقد خصص لكل مرض قاعة. كان البيمارستان مقسمًا بشكل عام إلى قسمين: أحدهما للرجال والآخر للنساء، ولكل مريض سرير خاص به، وكل قسم مقسم إلى عدة قاعات؛ فهناك قاعة للأمراض الباطنية، وقاعة للجراحة، وقاعة للكحالة، وقاعة للتجبير، وكانت قاعة الأمراض الباطنية مقسمة هي الأخرى إلى أقسام صغيرة تبعًا لاختلاف الأمراض، فمنها قسم المحمومين، وقسم للأمراض العقلية.

وملحق بالبيمارستان مدرسة لتعليم الطب من خلال علاج المرضى وعرض الحالات، ويتم منح الطبيب إجازة ممارسة المهنة من البيمارستان، وضمت هذه المدرسة صالة لتلقى بها المحاضرات، وزودت بمكتبة علمية ومدرسة، وتطل هذه الصالة ذات الأعمدة على الصحن ويتقابل بها الأطباء للتداول في الحالات المختلفة. ويضم البيمارستان أقدم سقف خشبي في مصر، ولم يبق من هذا المستشفى سوى بقايا إيوانين: جزء من الإيوان الشرقي به سبيل؛ وكذلك جزء من الإيوان الغربي يضم سبيلًا آخر تنساب إليه المياه وتخزن في أحواض. يحضر المرضى وبعد أن يفحصهم الأطباء يستلمون الدواء المناسب وينصرفون، أما إذا كانت حالتهم متقدمة فيقيمون بالبيمارستان حتى يتم شفاؤهم، ويمنح كل مريض عند مغادرته البيمارستان خمسة دنانير ذهبية حتى لا يضطر إلى العمل الفوري، وقد ظل هذا البيمارستان يستخدم كمدرسة حتى القرن التاسع عشر الميلادي.

وقد أفاض المؤرخون والرحالة في التعبير عن إعجابهم بالبيمارستان المنصوري والإشادة بمحاسنه، وذكر المؤرخ المغربي البلوي: «أنه لو لم يكن للقاهرة ما تذكر به إلا البيمارستان وحده لكفاها، وهو قصر عظيم من القصور الرائعة حسنًا وجمالاً واتساعًا، لم يعهد مثله بقطر من الأقطار أحسن بناء ولا أبدع إنشاء ولا أكمل انتهاء في الحسن والجمال». وذكر الحسن بن محمد الوزان المعروف بليو الإفريقي أنه بيمارستان كبير له دخل يبلغ مائتي ألف دينار أشرفي، وهو مفتوح للجميع يجد فيه المريض كل التسهيلات والعلاجات الطبية وجميع ما يحتاج إليه حتى الشفاء. ويقول ابن عبد الظاهر: «إنه بيمارستان عظيم الشأن». وقال عنه القلقشندي: «إنه البيمارستان المعروف الذي ليس له نظير في الدنيا».

وبيمارستان قلاوون هو تاج مجموعة قلاوون المعمارية التي تقع في حي النحاسين في شارع المعز لدين الله الفاطمي وأصل بنائها، وهي مجموعة تتكون من كتلة معمارية واحدة تتميز بأبنيتها الشاهقة، وتنقسم فيما بينها إلى بيمارستان ومدرسة والقبة المنصورية؛ أي الضريح، وهذه المجموعة هي بداية لظهور طراز معماري يعرف بالمجمعات المعمارية، وهي أول مجموعة متكاملة في تاريخ العمارة الإسلامية. أشرف على بناء هذه المجموعة الأمير علم الدين سنجر الشجاعي الذي جمع كل صُنَّاع مصر ليعملوا في تشييدها، ونقل من قلعة الروضة ما احتاج إليه من العمد والصوان والرخام، وصار يركب إليها كل يوم ويقف بنفسه مع الصناع على الأساقيل- أي السقالات- حتى لا يتوانوا في عملهم، وأوقف مماليكه بين القصرين، فإذا مر أحد المارة ألزموه أن يرفع حجرًا ويلقيه في موضع العمارة. وبعد أن تم الانتهاء من البناء افتتح السلطان قلاوون البيمارستان وأقام حفلاً كبيرًا شارك فيه الأمراء والقضاة والعلماء والأئمة والحكماء، ومدت الأسمطة، ثم أعلن السلطان على الملأ أنه يهب هذا البيمارستان لكل الناس على السواء، ويتساوى في الانتفاع به المملوك الكبير والصغير والحر والعبد، والذكر والأنثى، وسوف يتوافر فيه أطباء وصيادلة وأدوية بما يكفي لعلاج جميع الأمراض الحسية والعصبية والعقلية، وسيستخدم فيه مختلف الأساليب العلاجية من عقاقير وجراحات لتفيد الناس وتحقق لهم الصحة والعافية، كما يحق لمن يخرج منه معافيًا أن يحظى بكسوة، ومن مات جهز وكفن ودفن.

فكان هذا البيمارستان يقدم مختلف الخدمات الطبية للمرضى ايًا كانت منزلتهم، ويتساوى في الاستفادة من خدماته الطبية الغني والفقير على حد سواء دون تمييز، فحظي الجميع بنفس القدر من الرعاية والعناية دون تفرقة طلبًا للخير والثواب.

وقد ضم البيمارستان دواء خانة - أي أجزخانة - بها خزانة كاملة للشراب تصنع بها الأدوية التي كانت تحضر في أوانٍ وتخزن لحين الحاجة إليها على أن يصرف لكل مريض ما يحتاج إليه فقط دون زيادة أو نقصان، فكان هناك الأقراباذينات؛ أي الأدوية المركبة، والأبارج؛ أي الأدوية المسهلة، والجوارشنات؛ أي الأدوية الحمضية، والحبوب والأقراص والدهانات والمراهم والأكحال لأمراض العيون والحقن والترياقات المضادة للسموم، كما كانوا يستخدمون مسحوق القهوة المحروقة لعلاج الالتهابات، ويضعون عصير الليمون والبرتقال فوق العقاقير لتحسين مذاقها ويغلفون حبات الأدوية المرة الطعم بالسكر والعسل. وقد عرف أطباء العصر المملوكي حشو الضروس فكانوا يحدثون ثقبًا في الضرس المصاب ثم يقومون بملئه بمعجون يتألف من كبريت وقطران وشيح وكافور ومصطكى. ومن أساليب العلاج المتقدمة في البيمارستان العلاج بالموسيقى، فكانت توجد فرقة من الموسيقيين المحترفين يقومون بعزف مقطوعات موسيقية لتهدئة أعصاب المرضى النفسيين، وكانوا يعاملونهم بالرفق واللين ويأخذونهم في نزهات في الحدائق لرفع معنوياتهم.

كانت هناك ثلاث فئات من الأطباء؛ الطبائعيون الذين يقومون بعلاج الأمراض الباطنية، والفئة الثانية هم الجرائحيون الذين يقومون بالعمليات الجراحية، وقد عرف الجراحون تشريح الجسد البشري وأجروا جراحات كثيرة في البطن والأذن والدماغ وقاموا بعملية الولادة القيصرية التي تتم بفتح البطن، أما الفئة الثالثة فهم الكحالون المختصون بمعالجة أمراض العيون التي كانت منتشرة بكثرة في مصر، وقد نجح الكحالون في علاج كثير من أمراض العيون باستخدام الكحل وهو عبارة عن مسحوق يغسل العين وله فوائد طبية عديدة، وكان يحضر من الدخان الأسود بعد حرق قشر الجوز أو إحراق اللبان وخلطه مع مسحوق الرصاص والبخور وغيرهما من العناصر. وقد وجدَ الأطباء بالبيمارستان على الدوام وتناوبوا العمل ليلاً ونهارًا، وكانوا يصفون لكل مريض ما يحتاج إليه من علاج وغذاء في دستور ورق، وقد أجرى لهم السلطان قلاوون أجورًا جزيلة.

ومن أشهر أطباء مصر في العصر الفاطمي الطبيب ابن رضوان الذي ولد بمصر واشتغل بالطب حتى صار رئيسًا على سائر الأطباء (986م)، ووضع عددًا ضخمًا من المصنفات الطبية منها (أصول الطب)، (رسالة في شرف الطب)، وقال عنه ابن تغري بردي: «إنه كان إمامًا في الطب والحكمة». وقد وضع ابن رضوان في مصنفاته سبع خصال يجب أن تتوافر في الطبيب؛ وهي أن يكون على خلق، حسن الملبس، كتومًا لأسرار المرضى، أن تكون رغبته في علاج المرضى أكثر من رغبته فيما سيلتمسه من أجر، وأن يكون حريصًا على التعليم، وأن يكون سليم القلب عفيف النظر، مأمونًا وثقة. كما يقدم ابن رضوان للأطباء عددًا من النصائح حتى يتعرفوا على المرض بوسائل صحيحة فيقول: «يجب أن تتفقد الأعضاء الباطنة والظاهرة وأن تنظر إلى هيئة الأعضاء السحنة، والمزاج، وملمس البشرة، فيعتبر حال سمعه بأن تناديه من بعيد، ويعتبر بصره بنظره للأشياء البعيدة والقريبة، ولسانه بجودة الكلام وقوته، ويجب أن تنظر إلى مشيه مقبلاً ومدبرًا، ويؤمر بالاستلقاء على ظهره ممدود اليدين وقد نصب رجليه وصفهما ويعتبر بذلك حال أحشائه، وتتعرف على حال مزاجه وقلبه بالنبض وبالأخلاق، ومزاج كبده بالبول، ويعتبر عقله بأن يسأل عن أشياء، حتى يعتبر كل واحد من العيوب فتعرف هل هو عيب حاضر أو كان أو متوقع، أم الحال حال صحة وسلامة».

وقد توافر بالبيمارستان عدد من الموظفين أطلق عليهم أرباب الوظائف، فسمي الرئيس العام للبيمارستان ساعور البيمارستان، وكان لكل قسم من الأقسام رئيس؛ فهناك رئيس للأمراض

الباطنية ورئيس للجراحين ورئيس للكحالين، وكانت توجد وظيفة اشبه بوظيفة الصيدلي اليوم ويشترط في صاحبها الأمانة والدين، وهو يتولى حفظ الأدوية والعقاقير ويصرف الأدوية حسب أوامر الأطباء. ثم يتسلم الأدوية رجل آخر عمله أشبه بوظيفة الممرض اليوم يقوم بتوزيع الأدوية على المرضى ويتأكد من أن كل مريض يتناول الدواء الموصوف له، كما يشرف على المطبخ وعلى عملية توصيل الطعام إلى المرضى كل حسب ما وصف له. وهناك الفراشون الذين يقومون بخدمة المرضى من الرجال والنساء وغسل ثيابهم وتنظيف أماكنهم والقيام بمصالحهم، وكان للبيمارستان مطبخ يجهز الطعام للمرضى بعناية شديدة فتعد لحوم الطيور والأغنام وتقدم لهم أصناف الفاكهة.

وقد وهب السلطان قلاوون وقفًا ليتم الصرف من ريعه على البيمارستان، وزودنا المؤرخ ابن شاهين بمعلومات قيمة فذكر أن السلطان قلاوون قرر وقفه في كل سنة أربعين ألف مثقال ذهب، أفرد من ذلك لعمارته وخدامه أربعة آلاف، وقرر مصروفه في كل يوم مائة مثقال، ويضيف ابن تغري بردي أن هذا البيمارستان وأوقافه وما شرطه فيه لم يسبقه إلى ذلك أحد قديمًا ولا حديثًا، شرقًا ولا غربًا.

ونعود لمنشئ البيمارستان السلطان المنصور سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي، من أعظم سلاطين دولة المماليك، حكم (1279 - 1290م) وظلت السلطنة في عائلته لمدة قرن من الزمان، وقلاوون كلمة تركية معناها البط، ولذلك شاعت رسوم البط في كثير من الزخارف التي صنعت في عصر دولة قلاوون. ويروى عن سبب تشييد المارستان أن المنصور قلاوون عندما كان أميرًا في عهد السلطان الظاهر بيبرس البندقداري توجه إلى دمشق للمشاركة في غزوة الروم (1276م) فأصابه القولنج فعالجه أطباء بيمارستان نور الدين محمود الذي أطلق عليه البيمارستان النوري بدمشق، وبعد شفائه ذهب إلى البيمارستان وأعجب به ونذر إن آتاه الله عز وجل ملك مصر أن يبني بيمارستانًا مثله، وعندما تقلد عرش السلطنة وفى بنذره وبنى البيمارستان القلاووني الذي لا يوجد له مثيل. وقد اعتاد سلاطين المماليك أن يصطحبوا معهم في أسفارهم الأطباء والكحالين والجراحين الذين يحملون معهم العقاقير المختلفة لعلاجهم أثناء سفرهم إذا اقتضى الأمر.

ولم تقتصر الرعاية الصحية على المرضى المقيمين بالبيمارستان أو المرضى المترددين عليه، بل شملت أيضًا المرضى الفقراء في بيوتهم، وقد ازداد عدد مرضى المنازل الذين يتولى البيمارستان علاجهم على المائتي مريض، ويذكر جومار أحد علماء الحملة الفرنسية في كتاب (وصف مصر) أن المريض الواحد في البيمارستان المنصوري في عصور ازدهاره كان يتكلف دينارًا في اليوم، وله في خدمته شخصان كما أن المرضى المصابين بالأرق كانوا ينتقلون إلى قاعات منفصلة حيث يستمعون إلى عزف جيد الإيقاع، أو يتولى رواة متمرنون تسليتهم بالحكايات، وتكون علامة الشفاء أكل رغيف من الخبز وفروج كامل، وفور أن يسترد المريض صحته يتم عزله عن بقية المرضى، ويمنح عند مغادرته للبيمارستان ثوبًا مع كمية من الدراهم ليقوم بنفقاته الضرورية خارج المستشفى، وكان الناس يتمارضون رغبة منهم في الدخول إلى البيمارستان والتنعم بما فيه. ويقول المؤرخون إن المشافي العربية والإسلامية كانت للجميع، وكان الخلفاء والأمراء والسلاطين وذوو الجاه يتبارون في بناء هذه المشافي حتى صارت منتشرة في كل المدن الإسلامية.

ومع توالي العصور وبعد مرور أكثر من نصف قرن من الزمان يظل البيمارستان القلاووني رابضًا مكانه في أعرق شارع بالقاهرة التاريخية، يقوم على أرضه اليوم أقدم مستشفى في طب العيون افتتح عام 1910م ولا يزال يمارس نفس دوره القديم لعلاج أمراض العيون.

موكب المحمل الشريف

تَشُد القوافل الرِّحال، تجتاز البلاد والأقطار وتقطع آلاف الأميال في طريقها إلى الحجاز، ويمر المحمل الشريف محمولاً فوق ظهور الجمال حاملاً كسوة البيت المعمور يتبعه آلاف الحجيج يدفعهم شوق وحنين لتلبية النداء، وفي العصر المملوكي كانت القاهرة تتجمل كالعروس بالزينات ويجوب المحمل الشريف بين الشوارع والطرقات المحتشدة بالجموع الغفيرة، وتتطلع العيون وتهفو القلوب لرؤية الموكب المهيب الذي تبارى كل سلاطين مصر في الاحتفال به.

قال تعالى: (فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) (آل عمران: 97).

الكعبة المشرفة أشرف المقدسات الإسلامية، تتآلف حولها الأرواح، تتعلق بها القلوب، النظرة لها عبادة، الطواف حولها خضوع للخالق وتسليم بالحب الإلهي، حج إليها الملائكة والأنبياء والصالحون.

وقد نالت مصر شرف صناعة كسوة الكعبة المشرفة على أرضها لقرون طويلة على أيدي أمهر الصناع الذين أبدعوا في صناعاتهم، وطرزوا الكسوة بخيوط الذهب والفضة لكساء البيت العتيق في أشرف بقعة من بقاع الأرض، ولحرمة الكعبة المشرفة كان الاهتمام بكسائها يُعد من المفاخر الإنسانية التي تتوق إليها قلوب البشر، فسعى الملوك والسلاطين إلى كسوتها بأجمل وأفخر الكسوات. ويقول المؤرخون: إن أول من كسا بيت الله الحرام هو نبي الله إسماعيل ﷺ. وهناك رأي آخر أن أول من كساها هو عدنان بن أد حفيد سيدنا إسماعيل ﷺ. ويقول المؤرخ البلاذري: إن كسوته كانت من الأديم أو الجلد. كسا الرسول ﷺ بيت الله الحرام بعد فتح مكة (8هـ)، كما كساها خليفته أبو بكر الصديق، ثم كساها الفاروق عمر بن الخطاب بقباطي مصر، وكان ينزع الكسوة القديمة كل عام ويفرقها على الحجيج. أما أول من وضع على الكعبة المشرفة كسوتين فهو الخليفة عثمان بن عفان ذو النورين، إحداهما فوق الأخرى، الأولى من قباطي مصر، والثانية من برد اليمن، رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين.

وفي العصر الأموي صار الصحابي الجليل معاوية بن أبي سفيان يكسو الكعبة المشرفة مرتين في العام؛ الكسوة الأولى من الديباج أي الحرير في عاشوراء، والثانية من قباطي مصر في التاسع والعشرين من شهر رمضان، وسار على نهجه الخلفاء العباسيون، فكانت الكعبة المشرفة تكسى في بعض الأحيان ثلاث مرات في السنة، وتصنع الكسوة من أجود أنواع الحرير والديباج الأحمر والأبيض. وفي العصر الفاطمي كسيت الكعبة المشرفة بكسوة بيضاء؛ لأن اللون الأبيض كان هو رمز الدولة الفاطمية، وطوال عصر سلاطين المماليك نالت مصر شرف صناعة الكسوة، وكان سلاطين المماليك يرون أن هذا الشرف يجب ألا ينازعهم فيه أحد، وللمحافظة على هذا الفضل أوقف الملك الصالح إسماعيل بن الملك الناصر محمد بن قلاوون (1350م) وقفًا خاصًا لكسوة الكعبة المشرفة عبارة عن قريتين من قرى القليوبية هما بيسوس وأبو الغيث قدره ثمانية آلاف وتسعمائة درهم. وفي العصر العثماني اختصت مصر بكسوة الكعبة الخارجية في حين انفردت الدولة العثمانية بكسوة الكعبة الداخلية، وفي عهد السلطان العثماني سليمان القانوني أضاف إلى الوقف المخصص لكسوة الكعبة المشرفة سبع قرى أخرى ليصبح عدد القرى الموقوفة تسع قرى للوفاء بالتزامات الكسوة. وتوقفت مصر عن إرسال الكسوة لمدة ست سنوات فقط (1807 - 1813م) في عصر محمد علي باشا بسبب الحروب الوهابية وعدم استقرار الأمور في الحجاز، ثم عاودت إرسالها حتى عام 1962م عندما تولت المملكة العربية السعودية شرف صناعة الكسوة.

كانت رحلة الحج قديمًا تنطوي على مشقة وعناء شديدين وتستمر على ظهور الجمال لشهور عديدة، وفي حالة عدم القدرة على الحصول على دابة يذهب الناس مشيًا على الأقدام، كان هناك أربع قوافل للحج تصل إلى مكة المكرمة في وقت واحد تقريبًا قبل موسم الحج؛ وهي القافلة المغربية التي تضم الحجاج القادمين من سائر بلاد المغرب وهي قافلة برية كانت تتوقف في المدن لينضم إليها الحجاج، أما القافلة الثانية فهي القافلة المصرية التي تنطلق من مصر وتحمل معها كسوة الكعبة المشرفة، والثالثة هي قافلة الشام التي تضم الحجاج القادمين من تركيا والأناضول وأرض كنعان، والقافلة الرابعة هي قافلة الهند التي تنطلق من جزر الهند الشرقية. وينادي المنادي في الناس إيذانًا ببدء الحج، ويبدأ الراغبون في قيد أسمائهم، ومن لم يلحق بالقافلة المصرية يستطيع اللحاق بالقافلة المغربية التي تمر بأرض مصر في طريقها إلى الحجاز.

والمحمل الشريف هو الهودج الذي يتقدم قافلة الحجيج لينقل كسوة الكعبة المشرفة من مصر إلى مكة المكرمة، ويُحمَل الهودج فوق جمل له قبة مطلية بالفضة ومغطاة بالحرير الأصفر، وينقش على قماش الهودج آيات قرآنية ورسوم زخرفية مطرزة بخيوط من الحرير الذهبي، ويزين رأس الجمل حامل الهودج بالعقود الملونة، وتتبعه الجمال التي تحمل أموال الصُرة الشريفة في صناديق مغطاة بقماش مطرز فاخر، والصرة الشريفة هي الأموال التي يرسلها السلاطين والأمراء والأثرياء إلى أهالي الحرمين الشريفين وتكون عادة على هيئة أوقاف من الأراضي الزراعية والمباني والمنشآت.

ويقال: إن السلطان المملوكي الظاهر بيبرس البندقداري هو أول من أرسل محملاً مرافقًا لقافلة الحجاج إلى مكة المكرمة (1272م) وخصص للكسوة مراسم ملكية وطقوسًا دينية عند خروجها من مصر. تبدأ مراسم الاحتفال ويتحرك الموكب المهيب الذي يرأسه أمير المحمل يطوف بسائر أنحاء القاهرة قبل السفر إلى مكة المكرمة يسبقه فرسان المماليك مستعرضين مهاراتهم في اللعب بالرماح والألعاب البهلوانية فوق ظهور الخيول، وتغلق الدكاكين أبوابها، ويحرص على مشاهدة الاحتفال جميع سكان القاهرة فيصطف الناس في الطرقات لانتظار المحمل الشريف، ويبدأ الموكب من عند باب النصر مخترقًا الشوارع حتى يصل إلى ميدان الرميلة تحت القلعة حيث يكون السلطان جالسًا في الميدان لمشاهدة الاحتفال الذي يعود مرة أخرى إلى باب النصر، ويسير خلف الهودج الأمراء والوزراء وقضاة المذاهب الأربعة، والفقهاء وأئمة المساجد والمحتسبون وأعيان الدولة ورؤساء الطوائف والحرف ومشايخ الطرق الصوفية بأعلامهم الملونة، وتتجمهر النساء فوق أسطح المنازل على امتداد الطريق يطلقن الزغاريد وتعم البهجة في هذا اليوم المشهود، ويقام هذا الاحتفال عادة مرتين في العام، وكان هناك رجل يطلق عليه أمين الكساوي والحلوى يكون مرافقًا للمحمل، ومهمته توزيع الأكسية والحلويات على أهل مكة.

وفي العصر العثماني في يوم السابع والعشرين من شهر شوال يبدأ سفر المحمل بعد تجهيزه واختيار المرافقين له، ويقام احتفال كبير يحضره الباشا الوالي والقضاة وكبار رجال الدولة، وتدق الطبول ويعلو صوت الموسيقى، ويكون وصول المحمل إلى المعسكر الذي يجتمع فيه الحجاج إيذانًا ببدء الرحلة المقدسة. وقد سجل العياشي في العصر العثماني مشاهدته للمحمل (1662م) فيذكر: «ولما بلغ شهر شوال نحو النصف خرج المحمل الخروج الأول، وذلك اليوم يؤتى بكسوة الكعبة المشرفة من دار الصناعة فتضرب سحابة على باب القلعة فيحضر السناجق كلهم والولاة والأفراد والقاضي وكل واحد مع أتباعه، ولكل واحد منهم مجلس معلوم في السحابة المضروبة، ومجلس الباشا في الوسط وعن يمينه مجلس القاضي، وكلما أتى واحد من الأفراد وأرباب الدولة جلس في مجلسه المعهود له»، ثم يصف لنا العياشي أن المحمل عبارة عن قبة ملونة من الخشب المتقن الصنع عليه كسوة من الديباج، والجمل الحامل للمحمل في غاية السمنة وعظيم «الجثة» وحسن الخلقة مخضب جلده كله بالحناء ويقوده سائق وقد خصص لهذا الغرض، ولا يستخدم الجمل لأي أغراض أخرى ما بقي على قيد الحياة.

ويرسم لنا ابن عبد السلام المتوفى 1823م في القرن التاسع عشر الميلادي صورة لركب الحجاج فيقول: «فإذا تكامل ذلك جيء بجميع ما يحتاج إليه أمير الحج من إبل وقرب ومصابيح وخيل ورماح وغير ذلك من الأشياء التي تخرج من بيت المال، فيحضر في الميدان كل طائفة لها أمير متقدم عليها حتى الطباخون والفراشون والسائقون، ثم يؤتى بالمحمل على جمله المذكور ويقوده سائسه حتى يناول رأس الجمل للباشا فيأخذه بيده ويناوله لأمير الحج في حضور القاضي والأمراء ومعاونيهم، ثم يناوله أمير الحج لسائسه فيذهب به، ثم يتبع ذلك مرور كافة الطوائف على الباشا؛ وذلك من أجل اطمئنان الباشا على الركب فإذا لم يبق أحد ممن يمر بين يديه خلع الباشا على أمير الحج خلعة وعلى أمرائه الذاهبين معه».

وأول من لقب بأمير الحج هو خليفة المسلمين أبو بكر الصديق رضي الله عنه بعد أن رأس الحجاج بنفسه، وفي العصر المملوكي كان يعين للمحمل الشريف أمير من كبار أمراء المماليك يسمى أمير المحمل ليقود قافلة الحجاج إلى مكة المكرمة ويوفر لهم سائر احتياجاتهم ويؤمّن لهم الطريق والحراسة اللازمة ويصطحب معه كسوة الكعبة المشرفة وأموال الصُّرة الشريفة التي توزع على أهالي الحرمين الشريفين من أئمة المساجد وفقراء المسلمين في مكة المكرمة ويثرب، ثم يقوم بتسليم الكسوة لأمير الحج المكلف بوضعها على جدران الكعبة المشرفة، والذي يتسلم أيضًا كسوة المقام الإبراهيمي وستارة باب التوبة.

حظيت مصر بشرف صناعة كسوة الكعبة المشرفة منذ خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي طلب أن تحاك الكسوة الشريفة بقباطي مصر، والقباطي هي نسيج كتاني مزخرف عالي الجودة يتكون من لونين أو أكثر. وسبب هذا التكليف أن مكة المكرمة كانت تمر بعام قحط شديد أطلق عليه عام الرمادة فطلب الصحابي الجليل عمرو ابن العاص من والي مصر صناعة الكسوة لشهرة ومهارة العمال المصريين في صناعة الغزل والنسيج، وخرجت أول كسوة مصرية للكعبة المشرفة من قباطي الفيوم. وقد تعددت أماكن صناعة الكسوة في المدن المصرية فتنقلت بين مدينة قوص بصعيد مصر والشرقية ومدن الدلتا والفسطاط والإسكندرية والقاهرة. وفي الدولة الفاطمية كانت كسوة الكعبة المشرفة تصنع في مدن بحيرة المنزلة التي تفوق أهلها في صناعة المنسوجات وبلغوا درجة عالية من المهارة مثل تنيس وتونة وشطا ودمياط، وظلت الكسوة تصنع على أرضها طوال العصر الفاطمي وبداية العصر الأيوبي ثم توقفت صناعتها بها نتيجة للحروب الصليبية، وكان يكتب على الكسوة تاريخ صناعتها والبلدة التي صنعت بها، وتسجل أسماء الملوك عليها ويتم الدعاء لهم في خطبة عرفة. وقد صنعت الكسوة بأنفس المواد وأغلاها بأمهر الأيادي المدربة، وتفنن الصناع في زخرفتها وتزيينها بالجواهر الثمينة وأضافوا لها ستورًا سميت بالمظلة، ويروي المؤرخ المعروف الفاكهي الذي عاش في القرن التاسع الميلادي أنه رأى كسوة من قباطي مصر مكتوبًا عليها (بسم الله بركة من الله مما أمر به عبدالله المهدي محمد أمير المؤمنين أن يصنع في طراز تنيس كسوة الكعبة على يد الخطاب بن مسلمة عامله سنة تسع وخمسين ومائة). وفي العصر الأيوبي كانت الكسوة تصنع بمدينة الفسطاط، أما في العصر المملوكي فصارت الكسوة تصنع في دار الطراز بالإسكندرية، أو في مشهد الإمام الحسين بالقاهرة من الحرير الأسود وتطرز بكتابات بيضاء، كما قيل إنها كانت تصنع بداخل القصر الأبلق الذي شيده السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون بقلعة الجبل، وظهرت وظيفة ناظر الخاص الذي كانت مهمته عمل الكسوة الشريفة.

وتنشط التجارة بمصر سنويًّا في موسم الحج بسبب مرور قوافل الحجيج بأرضها، ونتيجة لذلك ازداد عدد الوكالات وازدهرت حركة البيع والشراء. تصل قافلة الحجاج المصريين العائدة من مكة إلى القاهرة في نهاية شهر صفر ثاني شهور التقويم الهجري الذي يعرف بنزلة الحج، وعند عودة قافلة الحجاج كان الناس يخرجون للقاء أقاربهم عند «بركة الحج» الواقعة على بعد أحد عشر ميلاً من العاصمة بالطبل والزمر، حاملين الفاكهة والمأكولات والثياب الجديدة، ويحضر الحجاج بدورهم الهدايا من الأراضي المقدسة ومنها ماء زمزم في قِنانٍ خزفية أو نحاسية وقطع

من كسوة الكعبة المشرفة. ويزين المصريون مدخل منزل العائد من الحج قبل نحو ثلاثة ايام من وصوله فيلونون الباب والحجارة باللونين الأحمر والأبيض، ويصبغون الجمال باللون الأخضر.

ومع مرور السنين انتهى الأمر بصناعة كسوة الكعبة المشرفة في مدينة القاهرة حيث تأسست دار كسوة الكعبة في حي الخرنفش (1824م) وظلت تصنع بها الكسوة حتى 1962م ثم توقف العمل بها حين أنشأت المملكة العربية السعودية مصانع مخصصة وعمالًا مهرة وقامت بتصنيعها.

ومن أغاني المسافر إلى الحجاز في الفلكلور الشعبي:

يا جمل يا جمل يابو خف زيني

أشرق مشرق والله وأنظره بعيني

وإن مدحت النبي ياما خايل مديحه إن عطاني ربي لأصلي في ضريحه

رايحة فين يا حاجة يام الشال قطيفة

رايحة أزور النبي محمد والكعبة الشريفة

رايحة فين يا حاجة يام الشال سماوي

رايحة أزور النبي محمد وارجع ع الجناوي

اللي عشق النبي يروح له ع الجريدة

والبخيل يقول دا طريقه بعيدة

نبي يا نبي قول عاللي دعيته بلغ حجته يا نبي وترده لبيته إلى بلاد الأشواق.

الملك المؤيد
وسـيفه المهنـد

ما أصعب الخيانة عندما تأتي من المقربين! ما أشد غدر الزمان وقسوة الإنسان على أخيه الإنسان! كم هي مؤلمة صيحات الندم! كم هي قاسية قلوب البشر! هل يستطيع الزمان أن يمحو آثار الظلم ويزيل شروره؟ هل يستطيع الإنسان أن يسبح عكس التيار بدون أن ينجرف إلى قاع النهر؟ بطل الأحداث ترك سيرة ذاتية تمتلئ بالمفارقات المذهلة والمشاعر الإنسانية المتداخلة والآلام التي تنصهر وتتوحد في لحظة واحدة عند نهاية الطريق، فمن هو المؤيد شيخ؟

المؤيد شيخ هو السلطان المملوكي الملك المؤيد أبو النصر شيخ ابن عبدالله الحموي الظاهري، وكان يعرف بالخاصكي، وهو الثامن والعشرون من سلاطين المماليك، والرابع من المماليك الجراكسة. يرجع أصل المؤيد شيخ المحمودي إلى طائفة جركسية كانت تقيم بآسيا الصغرى، وقد سبِيَ وهو صغير واشتراه تاجر مماليك يدعى محمود الرومي، أحضره إلى مصر (1376م)، وقد أجاد المملوك الصغير أصول الفروسية وفنون الطعن بالرمح ورمي النشاب والمبارزة، ولتهوره الشديد ولكثرة ما كان يبدر عنه من أعمال طائشة أطلق عليه زملاؤه من

المماليك الشيخ المجنون. وبعد موت الشيخ محمود الرومي اشتراه الملك الظاهر برقوق بثلاثة آلاف درهم فضة وتدرج المؤيد في المناصب حتى صار جمدارًا أي حاملاً للمرآة السلطانية، ثم خاصكيًا وصارت له مكانة كبيرة وحظوة عند الملك الظاهر برقوق فمنحه إمرة أربعين مملوكًا وعينه أميرًا للحج (1398م)، وبعد وفاة الملك الظاهر برقوق صار المؤيد مقدمًا لألف من المماليك وهي من أعلى الرتب العسكرية، وحدثت فتنة بين المماليك اتهم فيها المؤيد بالتآمر مع بعض الأمراء على السلطان الناصر فرج بن برقوق الذي تولى السلطنة بعد أبيه، فأمر بسجن المؤيد ولكنه فر هاربًا إلى الشام حيث تولى نيابة طرابلس وإمرة معظم ولايات الشام، وظل في حالة عصيان على السلطان حتى أمضى أكثر عمره متمردًا كما يقول عنه إبن إياس.

كانت طموحات المؤيد جامحة ولم يقنع بالبقاء في الظل بعيدًا عن دائرة السلطة والنفوذ، فما إن توفي الملك الناصر فرج بن برقوق حتى قرر المؤيد شيخ العودة إلى مصر والاستحواذ على السلطنة، فخلع الخليفة العباسي المستعين بالله أبا الفضل وسجنه بالقلعة وتولى عرش مصر (1412م)، وأيده الأمراء والقضاة وأهل الحكمة، وتلقب بالملك المؤيد، وكني بأبي النصر، ولبس خلعة الخلافة، وعمت الأفراح ودقت الطبول وتزينت القاهرة، ورفع المؤيد منزلة ابنه إبراهيم وعينه أميرًا على ألف وكان عمره وقت توليه السلطنة أربعة وأربعين عامًا وقد حكم لمدة ثمانية أعوام.

ولم يخيب المؤيد ظن من ساندوه، فكان ملكًا راجح العقل، حازمًا، ملمًا بأحوال البلاد، قائدًا مقدامًا، له حيل ومكائد في الحروب حتى ضرب به المثل فكانوا يقولون (نعوذ بالله من ثبات شيخ). كانت فترة حكم المؤيد رغم قصرها متسمة بالاضطرابات والمؤامرات؛ فقد تمرد عليه نواب الشام طوال فترة حكمه ودخل معهم في مواجهات عديدة وبعث بابنه إبراهيم لمقاتلتهم، وبسبب انتشار هذه الفتن والاضطرابات وكثرة الإنفاق على تجهيز الجيوش حدث تدهور اقتصادي بالبلاد. وفي بداية حكم المؤيد انخفض منسوب النيل وساد الجفاف وانتشرت المجاعات تبعها انتشار وباء الطاعون الكبير الذي أصاب جميع الكائنات الحية: الإنسان على الأرض، الأسماك في البحار، الطيور في السماء، والوحوش في البرية، وكان الناس يكتبون أسماءهم فوق أذرعتهم حتى لو سقطوا موتى في الشوارع يتم التعرف عليهم، وساءت أحوال البلاد الداخلية وعم البلاء. ويروي المؤرخون أن المؤيد شيخ لبس ملابس الدراويش وارتدى جبة صوف بيضاء وفوقها مئزر مع عمامة صغيرة وركب فرسه وخرج في حاشية كبيرة مصطحبًا العلماء رافعين المصاحف والقساوسة حاملين الأناجيل واليهود ممسكين بالتوراة وصلوا صلاة الاستسقاء على الرمال وأخذوا يتضرعون إلى الله عز وجل ليسقط المطر ويرفع البلاء، وقام المؤيد بتفريق ثلاثين ألف رغيف من اللحم على الفقراء ليزول الكرب. وبالرغم من قصر فترة حكم المؤيد وما اشتملت عليه من تدهور في الحالتين الصحية والاقتصادية، فإن ذلك لم يصرفه عن الاهتمام بأعمال التشييد وإقامة العمائر كعادة سلاطين المماليك، فشيد بيمارستانًا لعلاج المرضى وخانقاه للصوفية وجامعًا ومدرسة، وحمامين ومجموعة من البساتين والصهاريج والقباب، كما قام بتجديد عدد من العمائر القديمة التي أصابها التلف.

كان المؤيد رجلاً معتدل القامة واسع العينين، يقول عنه ابن إياس إنه يحب التمتع بمباهج الحياة، يولع بالتنزه في البساتين، ولم يكن يقيم كثيرًا في قلعة الجبل مثل سائر سلاطين المماليك، بل كان يهوى الإقامة في قصره بحي بولاق الذي اشتهر بحدائقه الغناء واعتاد أن يعقد فيه مسابقات المبارزة بالرماح والسيوف بين الفرسان، وكان يعشق اللهو والطرب ويهوى الموسيقى وينظم الشعر ويغنيه بنفسه، وقد تغنى بشعره مطربو عصره وهذه عدة أبيات من نظمه:

وعيون نواعس وقدود فتنتنا سوالف وخدود

خضعنا لها ونحن الأسود أسرتنا الظبا وهن نعاس

نظم شعري جواهر وعقود وانا الخاصكي شيخ المؤيد

ويذكر المؤرخون أن المؤيد تغالى في الاحتفال بيوم وفاء النيل وكسر السد، وكان الاحتفال بيوم الوفاء يتم في السادس والعشرين من شهر بؤونة (يونية)، فيتم قياس ارتفاع منسوب النيل عن طريق المقياس القائم بجزيرة الروضة، ويخرج الفرسان رافعين الأعلام يجوبون الشوارع ويبلغون الناس بمقدار ارتفاع الماء، فلو وصل منسوب النيل إلى ست عشرة ذراعًا تكون علامة الوفاء ويعلق على شباك المقياس ستارة صفراء ويتم دهن العمود بالعطر. وفي اليوم التالي يخرج السلطان إلى المقياس في موكب عظيم يتبعه الأمراء والموسيقيون، وكان المؤيد يلزم الأمراء بتزيين مراكبهم الضخمة التي تدعى الحراريق ويركب هو في ذهبيته يحيط به الأمراء في مراكبهم المحملة بسائر أنواع المشروبات فيسدون الأفق ويتوجه المؤيد بنفسه إلى مقياس النيل ويكسر السد ويكون يومًا مشهودًا، ويبدأ الاحتفال الشعبي الضخم وتمد الموائد الحافلة ويجلس إليها السلطان والمماليك ويكون للعامة نصيب منها، وتستمر هذه الاحتفالات سبعة أيام بلياليها.

كان المؤيد شيخ شخصية عجيبة، رجلاً من الصعب سبر أغوار نفسه، جامحًا في ميوله متناقضًا في طباعه، فهو ملك كفء جليل عارف بأحوال المملكة ولكنه يكثر من مصادرة أملاك العامة، وهو رجل خير يحسن إلى الفقراء يكرم من يستحق الكرم، ولكنه شحيح على من يستحق الشح، يحب العلم والعلماء ولكنه يتغالى في عقوباته، يسفك الدماء وإذا ظفر بأحد من أعدائه لا يرحمه، مرهف الحس يعشق الطرب والشعر والفنون ولكنه لا يتوانى عن التفوه بسفيه الكلام.

وتضم سيرة المؤيد قصة من أعجب قصص التاريخ؛ جسدان يرقدان متجاورين إلى الأبد تفصلهما أمتار قليلة ولكن تفرقهما أهوال لا تخطر على قلب بشر، هما السلطان المؤيد وابنه الصارمي إبراهيم. كان إبراهيم شابًا شجاعًا، وسيمًا، محبوبًا من الناس، قائدًا عسكريًا عظيمًا أتم فتوحات الشام وضمها إلى ملك أبيه، وكان السلطان يزهو فخرًا بابنه ويرى فيه خليفته المنتظر. ولكن كم هي ضعيفة النفس الإنسانية، فمن السهل أن يزين الشيطان طريق المعاصي فيهوي فيها ابن آدم، وبعد أحد فتوحات إبراهيم الناجحة في الشام استقبله الناس استقبالاً حافلاً كعادتهم معه، وفي محاولة لتملق السلطان أخذ كاتب السر ابن بارزي يبث سمومه وأوعز للملك المؤيد بأن شعبية ابنه إبراهيم قد تزايدت بصورة كبيرة بين الأمراء وصارت تهدد شعبيته ونصحه بضرورة التخلص منه لو كان يحرص على استمرار سلطانه، وأشار ابن بارزي على المؤيد بدس السم في الحلوى لابنه إبراهيم حتى يموت موتًا بطيئًا ولا ينكشف أمرهما. وللأسف باع المؤيد نفسه للشيطان وأعمى تقديس السلطة قلبه، وقويت أطماعه حتى حجبت بصيرته وطاوعه قلبه المتحجر على دس السم البطيء لفلذة كبده. ومرض إبراهيم مرضًا شديدًا وأخذ السم يقطع أمعاءه وهو لا يدري ما أصابه ولا يعلم أن أباه هو قاتله، وتوفي إبراهيم في مطلع شبابه وحزن عليه الناس حزنًا شديدًا وشيعوا جنازته بالدموع ودفن يوم الجمعة واقتبس الخطيب الذي ينعيه قول الرسول ﷺ عند موت ابنه إبراهيم: «إن القلب ليحزن، وإن العين لتدمع، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون». فازداد بكاء الناس وندم المؤيد وشعر بفداحة جريمته وظل صدى صوت ابنه وهو يئن يتردد في مسامعه مرارًا وتكرارًا حتى كاد قلبه ينخلع من فرط الألم، فكيف سولت له نفسه قتل ابنه؟ ولكن لو استطاع الاختباء من الناس فكيف سيختبئ من ضميره؟ وانكشف أمره وأخذت صيحات الناس تتعالى فكانوا ينادونه (يا قاتل ابنك). وأراد المؤيد أن يخفف عن نفسه آثار جريمته فدس السم لابن البارزي الذي أوعز إليه بقتل ابنه فقتله. وظلت نفس المؤيد حبيسة في سجن الندم المظلم تبحث عن طريق للخلاص، وجنى ثمار الذل عما قدمت يداه، فمرض من شدة الأسى مرضًا في المفاصل أقعده عن الحركة ولحق بابنه بعد سبعة شهور فقط ولم يدفع عنه نفوذه ولا جاهه ملك الموت.

أما أعظم ما بنى المؤيد فهو مسجده الواقع بداخل باب زويلة البوابة الجنوبية لمدينة القاهرة وقد

شيد مئذنتيه فوق ابراج الباب الشهير، واستغرق بناء الجامع خمس سنوات (1415 - 1420).
ولبناء الجامع في هذا المكان قصة عجيبة، ففي أوائل القرن الثالث عشر الميلادي في حكم السلطان الظاهر برقوق وقعت فتنة كبيرة بين المماليك تدعى فتنة الأمير منطاش، وقد قبض خلال هذه الفتنة على العديد من المماليك وكان من بينهم الشيخ المحمودي الذي تم إرساله إلى خزانة شمايل السجن القاسي الذي لاقى فيه العذاب حيث تم (شكه في الزنجير) أي تم وضعه في القيود فقيدوا يديه وساقيه وربطوا عنقه بسلاسل حديدية مثبتة في الحائط في الظلام الكثيف وسط الروائح الكريهة، فنذر لله تعالى إن تيسر له ملك مصر أن يجعل مكان هذه البقعة مسجدًا ومدرسة لأهل العلم، وبعد خروجه من سجنه تبدلت الأحوال وابتسمت له الدنيا وتقلد ملك مصر فكان أول ما فعله أن وفى بنذره وهدم السجن المخيف وشيد مكانه مسجدًا من أروع مساجد العصر المملوكي.

والجامع يُعد جزءًا من مجموعة معمارية تضم ضريحين ومدرسة على المذاهب الأربعة مخصصة للمتصوفين ولذلك تعد مدرسة وخانقاه في آن واحد، كما احتوى على مكتبة عظيمة ولكنها زالت اليوم. يتوسط المسجد صحن أوسط تحيط به أربعة إيوانات أكبرها إيوان القبلة، أما جدرانه فمغطاة بالرخام الملون، كان للمسجد في بداية عهده ثلاث مآذن تقع اثنتان منها فوق باب زويلة، أما المئذنة الثالثة التي كانت مختلفة في شكلها فكانت تقع بالقرب من المدخل الغربي ولكنها تهدمت في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي. ويقول المقريزي في خططه عن هذا الجامع: «يقع هذا الجامع بجوار باب زويلة من داخله، كان موضعه خزانة شمائل حيث يسجن أرباب الجرائم، وقيسارية سنقر الأشقر، ودرب الصغيرة، وقيسارية بهاء الدين أرسلان». وللمسجد أربع واجهات، وأرضياته مصنوعة من الرخام الملون، أما قبته فمبنية بالحجر وتضم مدفنين؛ واحدًا للسلطان المؤيد شيخ والآخر لأبنائه.

ويروي المؤرخ المعروف الإسحاقي أن السلطان العثماني سليم الأول عندما دخل مصر زار مدرسة السلطان حسن وقال: «هذا حصار عظيم» أي أنها مكان شديد التحصين كالقلاع والحصون، وعندما زار مدرسة السلطان الغوري قال: «هذه قاعة تاجر» لأنها مغلقة لا تضم صحنًا أوسط، وعندما دخل مدرسة المؤيد قال: «هذه عمارة الملوك» لشدة انبهاره بعمارتها.

افتتح المسجد (1415م) وأقيمت به أول خطبة جمعة ولم يكن قد اكتمل فيه سوى إيوان القبلة، ويوم الافتتاح نزل السلطان إلى صحن المسجد، وأقام احتفالاً كبيرًا جمع فيه الأمراء والمهندسين والبنائين الذين شيدوا المسجد وخلع عليهم الخلع الثمينة وأمر بأن تملأ الفسقية في صحن المسجد سكرًا وماء وليمونًا ووقف النواب يفرقون السكر على الناس بالطاسات، ومُدَّ سماط عظيم يضم سائر أنواع المأكولات. وتوفي السلطان المؤيد قبل اكتمال أجزاءالمسجد ودفن بالقبة الشرقية إلا أن كاتب السر الذي تولى الإشراف على أعمال العمارة بعد وفاة السلطان أكمل الأجزاء الباقية، وترك السلطان المؤيد ثلاثة أبناء تولى أحدهم السلطنة بعد أبيه وهو رضيع فكانت أول سابقة من نوعها أن يتولى حكم مصر طفل رضيع.

ولما بنى المؤيد شيخ جامعه صادر الكثير من ممتلكات الناس ظلمًا وقسرًا حتى يستكمل البناء، كما استولى على باب وتنور مدرسة السلطان حسن وضمهما لجامعه ودفع فيهما خمسمائة دينار، ولم تكن هذه الأفعال مقبولة فلا يمكن أن يقترن تشييد مسجد بالظلم والقهر وإحداث الضرر للناس، ويقول في ذلك ابن إياس: «فلما بنى السلطان هذا الجامع حصل للناس بسببه غاية الضرر فكان بناء المسجد يحتاج لكمية كبيرة من الرخام، لهذا كان أن استولى السلطان على باب مدرسة السلطان حسن الذي يُعد من التحف الفنية والتنور النحاس المكفت الذي كان بذات المدرسة ليضمهما لمجموعته، وصار المؤيد يكبس الحارات التي بها بيوت المباشرين وأعيان الناس بسبب الرخام، وكان والي القاهرة يهجم على الناس في بيوتهم، ومعه المرخمون فيقلع رخام الناس طوعًا أو كرهًا وخرب دورًا كثيرة». ومن شدة غضب الناس من هذه الأعمال أطلقوا على

هذا المسجد لقب (المسجد الحرام) كناية عن بنائه باموال منزوعة قهرًا عن طريق المصادرة بدون وجه حق.



جـامــع البرديني

جامع البرديني لؤلؤة من قلب التاريخ تزين جيد القاهرة المحروسة. خليط متناغم يجمع ما بين عظمة الطابع المملوكي الذي امتاز بالثراء الفني وروعة الزخرفة وعشق الفنون، وبين جمال وبساطة الطابع العثماني الذي يعكس قمة الإبداع في التصميم، يجتاز الزائر المدخل البسيط فينغمس في قلب هذا العالم الشفاف الذي تصفو فيه السرائر وتضيء فيه البصائر فتقر العيون ويستشعر المرء مدى اتصال المخلوق بالخالق في لحظات تفيض بالحب الإلهي.

الإنسان منذ بدء الخليقة في بحث دائم عن الجمال، استمد من الطبيعة أشكالها وألوانها بصدق نابع من وجدانه يعبر عن آماله وآلامه ويعكس معتقداته وأفكاره، وبعد انتشار الإسلام ابتكر الفنان المسلم أجمل الأشكال التجريدية الهندسية والزخرفية ذات الطابع الفريد وأضاف لها ماء الذهب فصارت تلمع كأنها ضياء الجواهر أو كأنها الموسيقى تنساب فوق الأسطح الناعمة، يسري جمالها في الوجدان فيضفي عليه لمسة حانية. ويعتبر الفن الإسلامي فنًا روحيًا يهدف إلى الارتقاء بالنفس الإنسانية والتحليق بها عاليًا، ويدفع المرء إلى التأمل في عظمة الخالق سبحانه وتعالى من خلال مزج العمارة والفنون بطريقة راقية تعكس الفلسفة الخفية للعمارة، فيتحقق التوازن التام ما بين الجوانب المادية والجوانب الروحانية المستمدة من روح الإسلام. القبة في العمارة الإسلامية ترمز للسماء وتعبر عن الحماية والعناية الإلهية، أما المئذنة فترمز للسمو وتعبر عن ابتهال الإنسان إلى الله عز وجل، ومبنى المسجد نفسه يعبر عن الانفتاح في اتجاهين بتصميماته وتكويناته المعمارية، فالاتجاه الرأسي يدل على الاتصال بالسماء، والاتجاه الأفقي يتجه نحو الكعبة المشرفة، ويرمز المنبر للتوجه إلى السماء لتلقي المدد، أما المحراب فهو رمز الخضوع لله عز وجل ويعبر عن وحدة المسلمين واستوائهم أمامه في صفوف.

يقع في قلب القاهرة العتيقة جامع البرديني الذي يمتاز بثراء روحي ومادي ويُعد من أجمل وأروع الجوامع العثمانية بمصر، يأسر الجامع الفريد قلب كل من يشاهده، تنعكس قدسية المسجد على الحي البسيط، يعلو صوت الأذان من الجامع العتيق يسري بحيوية تلمس المشاعر فيهرول المصلون ليلبوا نداء ربهم، يصطفون أمام المحراب، يأوون بداخل الجدران القديمة التي تحويهم بحنان، يستمدون من المكان مشاعر الإيمان وتستنهض روعة نقوشه في نفوسهم آيات الجمال فتبث عتاقة الحجارة وارتفاع الأسقف السكينة في الروح، أما الزخارف فتمتد وتسترسل بلا بداية ولا نهاية كالروح تتوجه بخشوع إلى بارئها، ويسطع بريق ماء الذهب فوق المنبر كنور الإيمان فيضيء النفوس، وتنسكب الألوان من الشمسيات الزجاجية تلامس الأرض وتزاحم الساجدين في سجودهم فتهفو الأرواح للتقرب إلى خالقها يلفهم إحساس لا يضاهيه إحساس، حلاوة تأسر وتضيء القلوب.

يقبع جامع البرديني منذ أكثر من ثلاثمائة عام في شارع صغير يسمى الداودية بجوار القلعة، أنشأه كريم الدين بن أحمد البرديني الشافعي (1616م) وكان اسمه مسبوقًا بلقب «خواجا»، مما يشير إلى أنه كان من كبار التجار والأعيان في العصر العثماني. الجامع مبني بالحجر وهو يتكون من قاعة صغيرة مستطيلة كسيت جدرانها بوزرات من الرخام الملون تتخللها وزرات أخرى بها كتابات بالخط الكوفي المربع ويمتاز الجامع بعناصره المعمارية المتجانسة، ويحتوي على واجهتين فتطل الواجهة الغربية على الشارع الرئيسي شارع الداودية، أما الواجهة الشمالية الغربية فتطل على عطفة البرديني.

ما أجمل أن يطرق المرء باب ربه، يصل جسور المحبة مع خالقه، ما أعظم أن يتوجه العبد العاجز الضعيف إلى بارئه ملك الملوك الذي لا منتهى لكماله، أن يخضع العبد الفقير المعدم للعزيز الغني المغني، أن ينكسر القلب الذي قسا من المعاصي على أبواب الرحيم الودود، يقف

خاشعًا بين يديه وهو يناجيه، ينزع عنه ثوب المعاصي، يتبتل، يتضرع، يسير في دروب الطاعة، يبحث عن نور الهداية في زمن الضلال، ويستمد السعادة من أنوار العبادة فتطهر نفسه من الشهوات، وتخرج من ضيق الآثام لسعة ورحابة الإيمان، تعبر الحواجز، ترتقي وتسمو بذكر خالقها في آفاق رحيبة

ومع طول رحلته عبر الزمان لم يفقد الجامع بهاءه ولم تتغير ملامحه، وبرغم صغر حجمه فإنه يُعد تحفة فنية بالغة الروعة، يشتمل على العديد من العناصر الغنية التي تعكس روعة الفن الإسلامي، فالمحراب مكسو بالرخام الدقيق المتنوع الألوان ويعتبر من أروع المحاريب الرخامية في العمارة الإسلامية في العصر العثماني. أما الوزرات الرخامية التي تكسو الجدران فتتألق تناسقًا ودقة، وتنعكس أشعة الشمس من خلال الزجاج الملون الذي يغطي الشبابيك الجصية فتلقي بالألوان المتداخلة وتضفي على أرضية الجامع روعة وحيوية، ويعتبر السقف الخشبي بنقوشه المذهبة من أجمل أسقف المساجد الأثرية وأروعها. وتتجلى مهارة وبراعة الحرفي المصري الماهر في المنبر الخشبي الذي يعتبر من أجمل وأصغر وأدق المنابر تزينه حشوات مطعمة بالسن والصدف والزرنشان أي اللاكيه تتخللها قطع من الباغة الملصوق خلفها ورق من الذهب، أما دكة المبلغ فهي من الخشب النقي محمولة على عمود من الرخام ومزخرفة بالأطباق النجمية ولها درابزين من الخشب الزان الخرط المطعم بالصدف وسن الفيل ويخطف جمالها ودقة صناعتها الأبصار.

وبالرغم من أن هذا المسجد أنشئ في العصر العثماني فإنه تأثر بالطابع المملوكي الذي احتفظ بكثير من عناصره، فتعتبر مئذنته نموذجًا فريدًا لمآذن العصر العثماني فهي مثمنة الشكل، تبرز عن الواجهة وتبدأ من مستوى الأرض بقاعدة مربعة تتكون من ثلاثة أدوار وتزخر بالتفاصيل الزخرفية وتعلوها المقرنصات والنقوش الكتابية كما كانت في زمن المماليك الجراكسة بخلاف المآذن التركية التي تتسم بالبساطة.

ما أسمى أن ينطق اللسان بأحب الكلام إلى الله عز وجل، أن يلهج القلب بالذكر والتسبيح ليل نهار يتلمس كنوز الجنة، يسبح عند نزول الشدائد ويسبح عند إسباغ النعم، يسبح مع هزيم الرعد ويسبح مع سقوط المطر، يسبح مع خرير الماء وحفيف أوراق الشجر، تسبيح مطلق، يتوالى، يتتابع مع توالي الأنفاس، يملأ ما بين السماء والأرض، فتمحى ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر، وتحط خطاياه كما تحط الشجرة ورقها.

التغيرات التي حدثت في البنية الأساسية للقاهرة العثمانية نتجت عن المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية، ففي العصر المملوكي كانت منازل رجال الطبقة الحاكمة والأمراء متمركزة في القاهرة بحدودها الفاطمية وحول القلعة التي كانت تشكل مركز المدينة، ولكن في العصر العثماني فقدت القاهرة جاذبيتها وهجرها أفراد الطبقة الأرستقراطية طلبًا للهدوء والراحة لتكدس الأنشطة الصناعية والتجارية في قلبها، فانتقلت مساكن الأمراء والطبقة الحاكمة من القاهرة والمناطق المحيطة بالقلعة إلى شواطئ بركة الفيل جنوب القاهرة، ثم إلى الأحياء الواقعة في البر الغربي للخليج حول بركة الأزبكية، ونمت الأنشطة التجارية للمدينة في المنطقة الواقعة بين باب زويلة والقلعة في شارع الدرب الأحمر وشارع التبانة وشارع باب الوزير حاليًا، وقد أدى انتشار هذه الأنشطة التجارية إلى استقرار صغار التجار والحرفيين في هذه المناطق وأنشئت بها العديد من الوكالات وصار بها واحد وثلاثون سوقًا واثنا عشر خانًا وبُنيت بها المساجد وصارت مركزًا للزحام والضوضاء، وكان شارع الداودية الذي يضم جامع البرديني يقع في قلب هذه المنطقة التجارية الشديدة الحيوية وقد تم ذكره في كتاب وصف مصر.

ما أحوج الإنسان إلى أن يعود إلى رحاب بارئه تائبًا مستسلمًا، يطرح ذنوبه بين يديه، يندم على ساعة هوت فيها نفسه وانغمست في المعاصي، يندم على ساعة غره فيها نعيم الدنيا فاستظل

بظلها، يندم على ساعة قسا فيها قلبه فاستحى من الناس ولم يستح من خالقه، يندم على ساعة لجأ فيها لغير الله ولم يلجأ لباب إلهه المفتوح للسائلين، يستجير من غشاوة رانت على قلبه فجعلته عاجزًا عن تأمل آيات الكون، يبكي نادمًا تتوه نفسه في بحر الدموع، تتلمس سبل النجاة، ينيب إلى مولاه ويخر خاشعًا طالبًا عفوه ورضاه.

ومع الفتح العثماني لمصر (1517م) فقدت القاهرة رونقها مع فقدانها لقبها كعاصمة للعالم الإسلامي وصارت مجرد ولاية تابعة للدولة العثمانية، وبالرغم من اضمحلال مكانتها السياسية فإن نشاطها التجاري ومكانتها الثقافية ظلا بمثابة تعويض لها، كما احتفظت بمكانة خاصة في الدولة العثمانية؛ حيث كانت تعد المدينة الثانية بعد إستانبول. واستمر حكم العثمانيين في مصر حوالي ثلاثة قرون من 1517 - 1798م ولم يهتم العثمانيون بتعمير القاهرة مثل الفاطميين والمماليك فلم تزد رقعة المدينة ولم يتبدل تخطيطها كثيرًا ولم تتسع مساحتها عما كانت عليه في عهد المماليك، ودخل البناء والعمارة فترة من الركود النسبي، ومن أهم منشآت العصر العثماني مسجد المحمودية ومسجد الملكة صفية ومسجد البرديني ومسجد سنان باشا، وخان الزراكشة، ومنزل جمال الدين الذهبي، وبيت السحيمي بالدرب الأصفر، ولكن لم تصل هذه المنشآت إلى فخامة وروعة منشآت المماليك.

تتوالى الأيام وتمر الأعوام، يفنى الإنسان وتظل الأماكن شاهدة على سيرة الزمان الذي يمر بخطاه الوئيدة، ويبقى الجامع الصغير بملامحه القديمة وحجارته الضخمة شامخًا في قلب القاهرة العتيقة يجسد عظمة الإعجاز المعماري وروعة الفنون الإسلامية، يشهد على المجد والعز القديم ويذكرنا بالزمان الجميل.

جمــدار وخازنــدار ورأس نوبــة

هل الألقاب - تكسب الناس عزًّا، أم أن الناس هم من يكسبون الألقاب عزًّا؟

تَلَقَّب ملوك العالم قديمًا بألقاب متعددة كانت تضاف لأسمائهم لتضفي عليهم هيبة ووقارًا وتدلل على أهميتهم، فتلقَّب ملوك مصر القديمة بلقب فرعون وتلقب ملوك اليونان ببطليموس وتلقب ملوك الروم بقيصر وتلقب ملوك الفرس بكسرى وتلقب ملوك الحبشة بالنجاشي وتلقب ملوك الترك بالخاقان وتلقب ولاة الإسكندرية بالمقوقس، وفي العصور الإسلامية ظلت الألقاب متداولة وظهرت ألقاب جديدة مستمدة من روح الإسلام فتلقب الخلفاء والسلاطين بالظاهر والمعز والمؤيد والرشيد والمتوكل، ولكن لا يسير الدهر على وتيرة واحدة، يمر الزمان ماضيًا إلى غايته فتزول المعالم ويذهب الملوك وتتلاشى الألقاب وتظل الأرض حية تروي سيرتهم التي حفروها فوق جدران الزمان.

تطلق الألقاب على الإنسان كنوع من التقدير وتشتمل عادة على صفات المدح والثناء لتدلل على قدر معلوم، ويختلف المعنى اللغوي لكلمة لقب عن المعنى الشائع، فمعنى اللقب لغويًّا هو النبز أي ذكر عيوب الشخص نفسه، وقد ورد هذا المعنى في القرآن الكريم في قوله تعالى: (وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ) [الحجرات: الآية 11]. ومع مرور الوقت صار لفظ اللقب يستخدم للدلالة على المدح أو الذم ثم كثر استخدامه مع المدح. ويمكن ذكر أربعة أنواع مهمة من الألقاب التي ظهرت منذ بداية نظام التلقيب هي ألقاب النسبة وهي الألقاب الشخصية التي تميز فردًا بذاته مثل الظاهري، الحموي، الألفي، وهناك الألقاب الوظيفية التي تشتمل على نوعين فتشير إلى طبقة أو طائفة كالأمير والوالي، أو تشير إلى وظيفة معينة مثل الوزير أو القائد، وهناك الألقاب الفخرية التي يقصد بها تكريم صاحب اللقب والإشادة بفضائله مثل عز الإسلام، ناصر الإسلام، فخر الدين، وهناك ألقاب الكناية المكانية التي كانت تطلق على الخلفاء العباسيين والسلاطين العثمانيين مثل الأبواب الشريفة، الأبواب السلطانية، الباب العالي.

في صدر الإسلام كانت الحياة بسيطة وكان النبي ﷺ يطلق على بعض الصحابة ألقابًا اختارها لهم كنوع من التقدير والتكريم اكتسبوها عن استحقاق، فلقب عمر بن الخطاب بالفاروق، ولقب خالد بن الوليد بسيف الله المسلول، ولقب أبو عبيدة بن الجراح بأمين الأمة رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين، وأول من تلقب بلقب أمير المؤمنين هو الصحابي الجليل عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وفي العصر الأموي لم يهتم الخلفاء الأمويون بالمظاهر ولم يستخدموا سوى لقب أمير المؤمنين، وكانت الألقاب تشير فقط لأسماء الوظائف.

ولكن شيوع الألقاب الرسمية وانتشارها ظهر في العصر العباسي بعد أن طرأ تغير كبير في الدولة الإسلامية فقد اقتبس العباسيون الكثير من حضارة الفرس وصار للألقاب شأن عظيم في الدولة، وكثر عدد الألقاب المستخدمة حتى اضطروا لتصنيفها وتنظيمها، وكان حق التلقيب يختص به الخليفة وحده. وأول من تلقَّب من بني العباس هو مؤسس الدولة العباسية أبو العباس عبدالله محمد بن علي بن عباس الذي تلقب بالسفاح، ويظن الكثيرون أن لقب السفاح صفة ذم والصحيح أنه صفة مدح، فقد ورد هذا اللفظ في خطبته في أهل الكوفة حين قال: (استعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المبيد)، ومن بعده صارت الألقاب الشخصية من مراسيم الخلافة العباسية، وتلقب الخلفاء بألقاب مختلفة مثل المنصور والمهدي والمأمون والهادي والمعتمد. منح الخلفاء العباسيون وزراءهم ألقابًا فخرية مثل ذي الوزارتين، الأخ في الله، ذي الرياستين، كما لقبوا رجال دولتهم بالكثير من الألقاب مثل سيف الدولة، عضد الدولة، وأمين الدولة، وأطلقوا عليهم الألقاب المضافة إلى الدين مثل عز الدين، بهاء الدين، وسيف الدين، وألقابًا أخرى مضافة إلى الملك مثل عميد الملك، ونظام الملك. وفي القرن التاسع الميلادي ازداد نفوذ الولاة الأتراك في

الدولة العباسية واستبدوا بالسلطان دون الخلفاء وتلقبوا بلقب جديد هو امير الامراء للدلالة على نفوذهم، وجرت العادة على أن تصير هذه الألقاب جزءًا لا يتجزأ من اسم الشخص الملقب ولا يخاطب إلا بذكرها

وفي العصر الفاطمي احتفظ الخلفاء الفاطميون بسلطة التلقيب وحق منح الألقاب، وتميز الحكم الفاطمي بالعناية الفائقة بالمراسيم والتشريفات والألقاب، واتخذ الخلفاء الفاطميون ألقابًا كثيرة وأغدقوها على أمرائهم ووزرائهم وسائر رجال دولتهم ففاقوا العباسيين في اتخاذ الألقاب، وكانوا يستخدمون نفس الألقاب الفخرية وألقاب الوظائف التي استخدمها العباسيون مثل أمير المؤمنين، الإمام، الحضرة الشريفة. وصارت هذه الألقاب تنقش على الطرز والمنسوجات وعلى المباني وحتى على العملات، وقد استخدم الخلفاء الفاطميون النعوت الشخصية التي لا يحق لأحد استعمالها غيرهم مثل: (المعز لدين الله)، و(العزيز بالله)، و(الحاكم بأمر الله)، و(الآمر بأحكام الله).

أطلق الفاطميون على رجال دولتهم الكثير من الألقاب، وكانت الألقاب الممنوحة تصدر في كتاب يسمى «كتاب التنويه» وتتم قراءته على منابر مصر، وأول من منح الألقاب للوزراء هو الخليفة الفاطمي العزيز بالله، فلقب وزراءه بلقب (الوزير الأجل) و(أمين الدولة)، و(شمس الملك) و(صفي أمير المؤمنين)، وكان لقب الأمير يستخدم للدلالة على الرتبة، ولقب أمير الجيوش يمنح لمن يتولى قيادة الجيش، ولقب زعيم الدولة يطلق على القادة، ولقب السيد يطلق على الأجلاء من الرجال، ولقب سيف الإسلام يرمز إلى أن حامله هو حامي حمى الإسلام، ولقب عفيف الدولة يُمنح لمن يتمتع بالنزاهة.

وفي العصور الإسلامية تمتعت المرأة بمنزلة كبيرة، ولم يكن يشار للنساء أبدًا بأسمائهن الشخصية كنوع من الاحترام والتوقير ويستعاض عن ذلك بالإشارة إليهن بألقاب وعبارات فتلقبت نساء السلاطين وأميرات القصر بعدة ألقاب مثل بركة الدولة، بركة الملوك والسلاطين، الشريفة العفيفة، صاحبة الحجاب المنيع والستر الرفيع، الدرة والجليلة أي عظيمة القدر، وهناك لقب الجهة وتعني الناحية وتلقب أيضًا بالجهة الكريمة والجهة الشريفة، وكان هناك لقب السيدة وهو مؤنث للقب السيد، ولقب الكبرى ويقصد به الكبيرة، كما تلقبوا بالكريمة، والمحروسة.

وفي العصر الأيوبي فطن الكتاب إلى أن منح الألقاب صار يتم جزافًا دون قيود فانتقل حق تنظيم التلقيب إلى ديوان الإنشاء وأنشئوا له قسمًا خاصًا سمي بقسم الألقاب والمراسيم ووضعت أسس منظمة للتلقيب، وتلقب الأيوبيون بألقاب مختلفة مثل الناصر والأفضل والعادل والكامل والصالح، وظهرت ألقاب جديدة اتصلت بظروف الحروب الصليبية فظهرت الألقاب الجهادية مثل العبد الفقير إلى رحمة مولاه، ومنصف المظلومين، والمجاهد في سبيل الله، وأمير المجاهدين، وحامي الثغور.

وفي العصر المملوكي اقتصرت ألقاب السلاطين على صفات المدح التي تأخذ صيغة المفرد مثل المعز، السعيد، الأشرف، والموفق وهو من الألقاب التي تحمل أيضا معنى التأييد من الله سبحانه وتعالى، وهناك الظاهر أي الذي يظهر الحق على الباطل، والقاهر أي الذي يقهر أعداءه، والمنصور، والمظفر. وهناك ألقاب كثيرة أطلقت على أمراء المماليك مثل أمراء المئين مقدمو الألوف وكان لهم جيش خاص يتكون من مائة فارس، وهناك أمراء الطبلخانة ولهم جيش يتكون من أربعين فارسًا، وأمراء العشرات ولهم جيش يتكون من عشرة فرسان، وأمراء الخمسات وهم أولاد الأمراء ومسموح لهم بتكوين جيش يتكون من خمسة فرسان. وتلقب أفراد الجيش في العصر المملوكي بألقاب كثيرة مثل أتابك العسكر ومعناه أبو العساكر، وهو بمثابة قائد الجيوش، وأتابك الجيوش وتطلق على النائب، وأمير كبير وكان هذا اللقب يطلق على كبار الأمراء، وهناك المماليك السلطانية وهم أجناد الحلقة التابعون للسلاطين وكانوا ينقسمون إلى عدة أقسام؛

المماليك الذين يعملون مع السلاطين ويطلق عليهم الجلبان، والمماليك الذين انتقلوا إلى السلطان ويطلق عليهم القرانيص، والمماليك الذين يعملون في خدمة الأمراء ثم انتقلوا لخدمة السلطان بعد مصادرة أملاكهم وعرفوا بالمماليك السيفية، والمماليك الخاصكية وهم جماعة من مماليك السلطان يقومون بترتيب البروتوكول المملوكي تمتعوا بمكانة كبيرة وكان مسموحًا لهم بالدخول على السلطان في أوقات فراغه واشتهروا بحسن مظهرهم وأناقة ملابسهم.

ويسجل المؤرخ بدر الدين العيني ألقاب السلطان المؤيد في كتابه «السيف المهند في سيرة الملك المؤيد» الذي كتبه عن السلطان المؤيد شيخ في القرن الخامس عشر الميلادي فيقول: «وقد اجتمعت في السلطان المؤيد هذه المحاسن، وهي لقب سلطان، ومعناه الحجة يعني هو حجة في الأرض، واسمه الشريف شيخ الذي يدل على أنه شيخ الملوك والسلاطين، وكنيته الشريفة أبو النصر التي تدل على أن النصر صار جزءًا منه لا يفارقه، ولقبه الشريف المؤيد الذي يشعر برفعة المسمى ويدل على أنه مؤيد من عند الله، ومؤيد لدينه وشرائعه».

وأطلق على حاملي الوظائف الكبيرة في الدولة عدد من الألقاب مثل ملك الأمراء الذي كان بمثابة نائب السلطنة يشرف على شئون الدولة في غياب السلطان، والطبردار وهو حامل فأس السلطان عند ركوبه في المواكب، وأمير آخور وهو المشرف على دواب إصطبل السلطان، وأمير سلاح وهو لقب من يتولى أمرسلاح السلطان وتسمى الوظيفة إمرة سلاح، وأمير مجلس وهو لقب من يتولى أمر مجلس السلطان. وهناك ألقاب أطلقت على حاملي وظائف القصر الملكي مثل حاجب الحجاب وتطلق على من يرتب مواعيد ومقابلات السلطان، والأستادار وتطلق على من يشرف على بيت المال والبيوت السلطانية، وهناك الخازندار وهو مدير مخازن البيوت السلطانية ويحفظ ما يجلبه الأستادار من مؤن وأقمشة، والمهمندار وتطلق على من يستقبل السفراء الوافدين للسلطان ويسهر على تلبية طلباتهم وراحتهم، والجمدار وتطلق على حامل المرآة السلطانية، والدوادار ومهمته حمل الدواة ويتولى أمر تبليغ الرسائل إلى السلطان ويقدم له الأوراق للتوقيع عليها، والجوكندار الذي يحمل العصوين اللتين يلعب بهما السلطان الكرة، والبندقدار الذي يحمل السهام للسلطان، والبشمقدار الذي يتولى أمر أحذية السلطان، والجمقدار الذي يحمل الدبوس أمام السلطان، والعلمدار الذي يتولى أمر الأعلام السلطانية، والسلحدار الذي يتولى أمر الأسلحة، والجاشنكير وهو المشرف على إعداد الأسمطة والموائد للسلطان، والشرابدار وهو المشرف على أشربة السلطان كما يتذوق المأكولات والمشروبات قبل السلطان خوفًا من أن يدس له أحدهم فيها السم.

وفي العصر العثماني ظهرت مجموعة جديدة من الألقاب التي أطلقت على الولاة والوزراء وسائر رجال الدولة، فكان يطلق على والي مصر الباشا، وهو ممثل السلطان العثماني مهمته تطبيق أوامر السلطان وحفظ الأمن والنظام وفي حالة وفاة الباشا الوالي يتم اختيار أحد رجال الدولة الأكفاء ليحل محله بصفة مؤقتة حتى يتم تعيين والٍ جديد ويطلق عليه القائمقام، وكان لقب كتخدا يطلق على نائب الوالي، والأغا هو رئيس وقائد الجيوش، أما المهردار فهو حامل الأختام، والدفتردار هو المسئول عن شئون المالية، يحفظ الدفاتر والسجلات ويعرف أيضًا باسم ناظر الأموال، والخازندار هو المسئول عن الخزانة والأموال، والروزنامجي هو المسئول عن الإدارة المالية ويطلق عليه كبير الأفندية، وأمير الحج هو من يحمي قافلة الحج ويحمل هدايا السلطان إلى مكة المكرمة والمدينة، وشيخ البلد وهو المشرف على القرى يوفر الأمن للفلاحين، وشيخ العرب هو زعيم البدو، والجاويش هو جابي الضرائب، والبيرقدار هو حامل العلم.

لقد طويت الصفحة الوضاءة بين همسات الماضي ولم يبق من ذكرى هؤلاء سوى ألقابهم التي نقشت على جدران آثارهم، يأتي كل عصر ويحمل كل ما فيه من معانٍ جميلة، وعند انتهائه تختفي كل المعاني وتتلاشى الموجودات بين طيات الزمان وتلك سنة الله في أرضه.

همســات
من أعمـــاق الزمـــان

بيوت القاهرة القديمة حلم يتجلى قادمًا من أعماق الزمان، يسحرنا بهمساته، يجسد لنا عوالم تغمرها السكينة والهدوء فتضيء معها كل ملامح الحياة، تشرق شمس مدينة القاهرة الدافئة كل صباح علي منازلها العتيقة المتفردة في أشكالها، والمتناسقة في معالمها. تتألق البيوت تحت الأشعة الذهبية فتظهر تفرد الشخصية المصرية وعظمة التقدم الحضاري للمدينة عبر العصور.

يُعد منزل زينب خاتون من أجمل بيوت القاهرة التي تعود بأصولها للعصر المملوكي، يقبع المنزل العتيق خلف الجامع الأزهر الشريف منذ أكثر من خمسمائة عام، يروي لنا كل حجر في الدار تاريخ قاطنيها، أقام بداخلها أناس كثيرون ورحل عنها أناس أكثر، ذابت ملامحهم في الماضي ولكن تسكن ذكرياتهم بين حنايا المنزل وتنطبع على كل ركن من أركانه، هنا كانت تتردد أنفاسهم، هنا كان يتردد صدى همساتهم، هنا تركوا آثار لمساتهم الناعمة، يسري عبير الزمان في أنحاء المنزل فيحرك في النفس ذكرى الأيام السوالف، وينقلنا إلى عالم ساحر طواه الزمان. ويرجح أن بعض أجزاء هذا المنزل كانت جزءًا من دار الأميرة شقراء بنت الناصر حسن بن قلاوون والتي توفيت (1388م) كما يذكر المقريزي. وقد شيد بيت زينب خاتون في العصر المملوكي على بقايا منزل الست شقراء (1446م)، وامتلك المنزل الأمير مثقال السوداني الظاهري جقمق الحبشي الطواشي ساقي السلطان قايتباي، فجدده وزاد في مساحته كما يذكر المؤرخ المعروف السخاوي، ويؤكد ذلك وجود رنك الساقي فوق جدران المنزل في الإزار الكتابي الذي يدور أسفل سقف الغرفة الواقعة بين المقعد والقاعة. وفي العصر العثماني تعاقب الوافدون على الدار، وقد حمل المنزل لقب آخر سكانه زينب خاتون بنت عبدالله البيضا معتوقة محمد بك المغربي، وبعد أن أعتقها سيدها تزوجت من أمير يدعى الشريف حمزة الخربوطلي وتملكت البيت بعد وفاته (1780م). وفي عام (1798م) جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر، وبدأت مقاومة المصريين ضدها، وشاركت زينب خاتون في المقاومة الشعبية وفتحت بيتها لإيواء الفدائيين الهاربين من بطش الفرنسيين ولتضميد الجرحى، وقد عثر في البيت على سبع وعشرين جثة دفنت في سرداب تحت الأرض يعتقد أنها جثث الجرحى الذين كانت تؤويهم بداخل منزلها.

يجمع هذا المنزل الفريد في عناصره المعمارية بين مميزات العصرين المملوكي والعثماني، فيرجع أغلب المنزل للعصر المملوكي باستثناء بعض أجزائه مثل القاعة العلوية بالدور الأول والمقعد والقاعات الواقعة في الجانب الغربي، يتكون المنزل من طابقين يعلوان الطابق الأرضي، ويتوسطه فناء كبير يطلق عليه الصحن، يضم الطابق الأرضي حجرة المندرة التي يستقبل فيها صاحب المنزل ضيوفه من الرجال، وإسطبل الخيل والمطبخ وطاحونة ومخزنًا للغلال والمزيرة وهي مكان مخصص لحفظ المياه، ويضم الدور الأول مقعد الرجال الشتوي الذي يطلق عليه السلاملك والمقعد الصيفي، كما يضم الحرملك وهو عالم النساء الخاص وغير مسموح للغرباء بارتياده، وتمتد الزخارف بالحرملك إلى أعلى السقف بارتفاع أربعة عشر مترًا، وتتدلى من سقفه ثريا كبيرة تضاء بالزيت، ويعلو السقف شخشيخة تساهم في إضاءة وتهوية الحجرة، ويتصل بالحرملك الحمام الذي يضم مغطسًا وحجرة للتدليك يدخل إليها البخار من فتحات خاصة، ومن أعجب عناصر المنزل غرفة تشتمل على سرير علوي، كانت تمكث فيها سيدات المنزل بعد الولادة لمدة أربعين يومًا.

يرتبط منزل زينب خاتون بقصة مثيرة، فقد عثر بداخل جدران إحدى حجرات الطابق الأرضي على كنز أثناء ترميم المنزل في تسعينيات القرن الماضي، فوجئ فريق الترميم عند هدم أحد الجدران الآيلة للسقوط بقدر كبير من الفخار مخبأ بداخل الحائط، وتساقطت العملات الذهبية التي ترجع إلى العصرين المملوكي والعثماني بعد أن اصطدمت فأس أحد العمال بهذا القِدر، وقد

شاعت في العصر المملوكي ظاهرة اكتناز العملات الذهبية والفضية بداخل جدران المنازل وتحت البلاطات في أماكن خفية بعيدة عن أعين اللصوص ليستعين بها الناس وقت الشدة، ومن الجائز أن صاحب هذا الكنز قد توفى قبل إبلاغ ذويه بمكانه، وبعد وفاة صاحبته آل المنزل إلى الأوقاف المصرية وتم ترميمه، وحولت وزارة الثقافة حجرات الدور الأول إلى قاعات تستقبل المعارض الفنية التشكيلية والحرف التقليدية.

ومن أجمل وأروع بيوت القاهرة العثمانية بيت الست وسيلة الذي يُعد لوحة تشهد على عظمة الفن المصري، يقع المنزل العتيق خلف الجامع الأزهر الشريف في حارة كتامة التي أطلق عليها هذا الاسم نسبة لقبيلة كتامة التي جاءت إلى القاهرة مع القائد الفاطمي جوهر الصقلي، وهو موقع متميز بقلب القاهرة التاريخية يجاوره مجموعة من الآثار الإسلامية التي تنتمي إلى حقب تاريخية مختلفة منها منزل الهراوي الملاصق له، ومنزل زينب خاتون، وقاعة شاكر بن الغنام، ومدرسة العيني، وسبيل ووكالة السلطان قايتباي.

تطالع المرء في قاعة الاستقبال عبارة: (إذا جاءكم الزائر فأكرموه). فتكشف لنا عن شيم أهل الدار الكريمة وحسن ضيافتهم التي ترك أثرها إحساسًا بالراحة لا يزال باقيًا حتى اليوم. ومن أهم ما يتميز به منزل الست وسيلة انفراده بلوحات جدارية رائعة تنم عن ذوق فني رفيع، اللوحة الأولى تصور الكعبة المشرفة والحرم المكي تحيط بهما المنازل بشرفاتها الصغيرة، وتجسد اللوحة الثانية المسجد النبوي الشريف تحيط به منازل المدينة المنورة وأشجار النخيل المتعددة، وفي المقعد الصيفي صورة لمدينة إستانبول تصور المنازل حول البوسفور والمراكب التي تبحر بداخله، كما يوجد صور لزهريات يخرج منها أشجار وارفة الظلال فوق أرضيات نباتية رائعة، وهذه الصور الزيتية أضيفت للمنزل بعد بنائه.

أما أغرب ما عثر عليه بمنزل الست وسيلة فهو حجاب المحبة وقد وجد مطويًّا وملفوفًا بخيوط من الصوف الأخضر ومدفونًا في جدران إحدى غرف الدور الأول المطلة على المقعد الصيفي، والحجاب مكون من ورقتين عبارة عن طلاسم وآيات قرآنية تدعو لاستمرار الألفة والمحبة بين صاحب البيت الأصلي الذي قام ببنائه ويدعى لطفي، وبين زوجته التي تدعى صفية وقامت بدفنه ليظل قلب زوجها محبًّا لها. والورق المستخدم في الحجاب هو نوع من أنواع الكاغد الذي انتشر استعماله في القرن السابع عشر الميلادي، وهي أوراق كانت تصنع من الحشائش والألياف والعشب الصيني، وانتقلت إلى العرب عن طريق أسرى الحروب الصينيين.

أنشأ هذا المنزل كما هو مثبت بالنص التأسيسي بإزاء المقعد الصيفي الحاج عبدالحق وشقيقه لطفي ابنا الحاج محمد الكناني (1664م) في ولاية عمر باشا الذي تولى الحكم من قبل الدولة العثمانية، وينسب المنزل إلى الست وسيلة التي كانت آخر من امتلكه وسكنت به، وهي وسيلة خاتون بنت عبدالله البيضا معتوقة المرحومة الست عديلة هانم بنت المرحوم إبراهيم بك الكبير، (وقد توفيت الست وسيلة في مايو (1835م).

وخاتون كلمة فارسية معناها المرأة صاحبة الأمر والنهي في الدار، ونستشف من اسم الست وسيلة (وسيلة خاتون بنت عبدالله البيضا) أنها كانت بيضاء البشرة، ولابد أنها كانت جارية مقربة لسيدتها التي أعتقتها وأكرمتها حتى استطاعت امتلاك هذا المنزل الكبير. كان الرقيق في مصر يتمتعون بحب واحترام سادتهم الذين كانوا يعتبرونهم من أفراد العائلة وينالون منهم العطف الشديد والمعاملة الحسنة، ويغدقون عليهم المنح والعطايا ويتم إعتاقهم من قِبَل رب المنزل أو زوجته في المناسبات المختلفة تقربًا لوجه الله تعالى، وقد بلغ بعض الرقيق منزلة رفيعة وتمتعوا بثراء عظيم، وكان من الممكن أن تظل الجارية بعد عتقها وزواجها في منزل سيدها، وفي هذه الحالة تحمل لقب مولاة، إنه زمان اتسم بالفطرة السليمة وبصدق المشاعر، ولكنه أصبح ذكرى انطوت بين صفحات الزمان.

ينفرد بيت الست وسيلة بعمارته الفريدة، تزينه زخارف إسلامية بديعة، يضم المنزل اربع واجهات وقد بني على مساحة مستطيلة، وروعي في تصميم المنزل الفصل بين الرجال والنساء، فقسم إلى جناحين الأول خاص بالاستقبال يتوصل إليه من خلال الباب الرئيسي بالطرف الغربي، والثاني خاص بالحرملك والقاعات الداخلية ويتوصل إليه من خلال باب السر بالطرف الشرقي.

يتكون المنزل من فناء مكشوف يتوسطه حجرة يطلق عليها قاعة المندرة السفلية وهي قاعة مستطيلة الشكل يستقبل فيها رب الدار ضيوفه. وفي الدور الأول يقع المقعد الصيفي وهي غرفة مفتوحة تتجه للشمال لتستقبل الهواء المنعش وتستخدم كمجلس لرب البيت وأصدقائه المقربين في فصل الصيف ولها درابزين من الخشب وأرضيتها مفروشة بالبلاط، وهناك الحرملك وهو الجناح المخصص للنساء لا يدخله سوى رب المنزل وأقرب الأقرباء، أما الحمام فيقع بالدور الأول وبه مغطس وكانت المياه تصل إليه عن طريق مواسير من الفخار، وهناك التختبوش وهو مساحة مستطيلة بالدور الأرضي مسقوف ومحمول على أعمدة ومفتوح على الفناء ويدور حول جدرانه أرائك خشبية يجلس عليها الزوار. كما يضم المنزل بئرًا واسطبلًا وحواصل وغرف خدمات. أسقف المنزل خشبية وأرضياته مكسوة بالرخام، واستخدم الجص في بياض جدرانه.

وبعد أن رحلت عن المنزل صاحبته وسيلة خاتون في عام (1835م) تحول المنزل إلى حطام وأطلال وواجه الكثير من الصعوبات ليبقى على قيد الحياة؛ فعلى مدار أكثر من ثمانين عامًا لم يجرؤ أحد على التفكير في ترميم هذا المنزل لكثرة ما تعرض له من كوارث طبيعية وبشرية أتت على كثير من عناصره المعمارية، فالمدخل كان مهدومًا والقاعة الكبرى منهارة، والمياه الجوفية أغرقت كل أرضياته، فكانت إعادة المنزل للحياة مهمة في غاية المشقة، ولكنها تمت بنجاح مذهل ورجع اليوم متألقًا مبهرًا يرحب بزائريه، وقد فقد المنزل الكثير من عناصره الأساسية عبر السنين وما تبقى لنا منه لا يزيد على نصف حجم المبنى الأصلي، وقد تم تخصيص بيت الست وسيلة اليوم ليكون بيتًا للشعر يبث الثقافة والفنون في قلب مصر كمركز لإبداع الشعر العربي يطلق عليه (مركز إبداع الست وسيلة) تقام فيه الندوات الشعرية والأنشطة المختلفة.

كلمـات تنطـق بالحكمـة

علي حبيبك خير الخلق كلهم مولاي صـلِّ وسلم دائمًا أبدًا

على البشير وآل البيت كلهم مولاي صـلِّ وسلم دائمًا أبدًا

على المحبين للمختار كلهم مولاي صـلِّ وسلم دائمًا أبدًا

هناك كلمات معسولة تطرب الآذان، أنفس من الجواهر، وأغلى من الذهب، سطرها أجدادنا على جدران العمائر القديمة ونقشوها على المجلدات فزكت الأرواح وطهرت النفوس، فكم من كلمات خطتها أقلام المبدعين نطقت بالحكمة فهذبت مشاعر وأحاسيس البشر.

تعود نشأة فن المديح النبوي في الشعر العربي إلى صدر الإسلام، وتعكس صدق المشاعر وسمو المعاني ونبل النوايا، ومن أوائل المدائح النبوية (القصيدة الدالية) للشاعر الجاهلي الأعشى وقصيدة (بانت سعاد) للشاعر كعب بن زهير، أما أشهر قصائد المدح النبوي وأكثرها ذيوعًا وانتشارًا فهي (نهج البردة) للإمام البوصيري. والبردة لغويًّا هي نوع من الكساء، وقد تطورت هذه الكلمة بمناسبة مشهورة في السيرة النبوية، كان هناك شاعر جاهلي يُدْعى كعب بن زهير بن أبي سُلمى هجا الإسلام والمسلمين، وبعد فتح مكة أسلم وجاء تائبًا نادمًا باكيًا، ونظم قصيدة يمدح فيها النبي ﷺ ويعلن إسلامه صريحًا، يقول في مطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيـم إثرهـا لم يفـد مكبـول

فعفا عنه النبي ﷺ وخلع عليه بردته.

عاش الإمام البوصيري في العصر المملوكي أي بعد حوالي ستمائة عام من ظهور الإسلام وكتب قصيدته المشهورة التي صارت من أشهر المدائح النبوية وأطلق عليها (نهج البردة) من باب المحاكاة لقصيدة كعب بن زهير -رضي الله عنه- في مدح رسول الله ﷺ، وقد سمى البوصيري هذه القصيدة أيضًا (بالكواكب الدرية في مدح خير البرية)، كما أن لهذه البردة اسمًا آخر هو (البراءة)؛ لأن البوصيري كما قيل نظم بردته وهو مصاب بداء الفالج أي الشلل وتضرع إلى الله تعالى أن يشفيه فرأى في منامه كما يذكر في روايته أن الرسول ﷺ ألقى عليه ببردته فاستيقظ من النوم وقد برئ من علته. والإمام البوصيري هو محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله بن صنهاج البوصيري، ولد في دلاص إحدى قرى بني سويف (1211م) وقد اشتهر بالبوصيري نسبة إلى بلدة أبو صير التي نشأ بها بين الفيوم وبني سويف وانتقل إلى القاهرة حيث تلقى العلوم والآداب. عمل الإمام البوصيري بالكتابة والتأليف واشتهر بين شعراء القرن السابع الهجري بشعره الصوفي في حب الله تعالى ومدائحه النبوية التي امتازت بالحس المرهف وقوة العاطفة وجمال التعبير، وقد نظم أيضًا (القصيدة الهمزية) في مدح النبي ﷺ، (وتوفي بالإسكندرية (1297م).

وقد تبوأت بردة الإمام البوصيري مكانة مهمة من الناحية الفنية والأدبية. فقد أجمع الشعراء

والنقاد على انها افضل المدائح النبوية بعد قصيدة كعب بن زهير ، وقد خلدت اسم صاحبها ورفعته، كما ترجمت إلى العديد من اللغات وظلت مصدر إلهام للشعراء على مر العصور؛ ينسجون على منوالها مثل قصيدة (نهج البردة) لأمير الشعراء أحمد شوقي. وكانت بردة الإمام البوصيري سببًا مباشرًا في ميلاد فن جديد في العصر المملوكي عرف باسم فن البديعيات، يلتزم فيه الشاعر بقافية بسيطة على غرار بردة البوصيري، ويحفل كل بيت منها بمحسن بديعي واحد على الأقل، وتتضمن مدحًا لسيد الأولين والآخرين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

ازدانت جدران المساجد والبيوت بشرائط كتابية تحوي أبياتًا من نهج البردة، وكان هذا تقليدًا متبعًا في العصور الإسلامية. فنجد نصوص البردة قد نقشت على الكثير من العمائر، فكتبت بخط الثلث بمنزل الرزاز (1422م) أحد منازل العصر المملوكي بأسلوب يتسم بالدقة ويعكس مهارة الخطاط، كذلك دونت نصوص البردة بخط الثلث بمنزل السحيمي (1648م) بالقاعة اليمنى بالدور الأرضي وبالمقعد الصيفي، وقد امتازت هذه الكتابات بالدقة الشديدة والروعة والانسيابية، أما كتابات البردة بجامع الأمير همام (1757م) فحملت توقيع الخطاط الماهر، كما دونت نصوص البردة بجامع قبة ابن آمر (1655م) التي استخدم فيها الخطاط خط النسخ على أرضية نباتية، كما دونت أيضًا نصوص البردة بخط النسخ بجامع الإمام الليث (1725م) بأسلوب فني يتميز بالبساطة. أما كتابات البردة بكل من جامع محمد علي بالقلعة (1246 - 1848م) وجامع البوصيري بالإسكندرية (1854م) فقد نفذها الخطاط المشهور عبد الغفار بيضا خاوري الذي ينتمي إلى بلدة البيضاء إحدى بلاد فارس، وقد جاء هذا الخطاط إلى مصر (1824م) وصار خطاطًا رسميًا في الحكومة، وهو من الخطاطين الذين تخصصوا في النقش على الرخام، وقد تميز الأسلوب الفني لكتاباته بالدقة والمهارة الشديدة وحافظ الخطاط على قواعد وميزان خط النستعليق في تنفيذ الكتابات وجمع بين خط النستعليق وخط الثلث في آن واحد في كتابات البردة بجامع البوصيري.

وبعد وفاة الإمام البوصيرى (1297م) دفن بالإسكندرية في زاوية صغيرة أنشأها له يحيى باشا، وفي عام (1854م) هدمها والي مصر محمد سعيد باشا، وشيد مكانها بناء الجامع الحالي حسبما ورد في اللوحة التأسيسية لهذا الجامع، كما تم إجراء العديد من التجديدات والترميمات للجامع في عهد الخديوي توفيق (1889م). يقع جامع البوصيري في منطقة الأنفوشي في مواجهة جامع المرسي أبي العباس الذي كان البوصيري من تلاميذه، ويتكون الجامع من بيت للصلاة وصحن مكشوف تحيط به أربعة أروقة وحجرة ضريح، وللجامع أربع واجهات، وينفرد بمكانة خاصة بين مساجد الإسكندرية وذلك لثرائه بكم هائل من العناصر الزخرفية والنقوش والكتابات الأثرية.

الخط العربي هو فن تصميم الكتابة، وهو ذو تاريخ عريق انتشر مع انتشار الإسلام، وبلغ مرتبة لا تضاهى وصار يحتل مكانة هامة بين الفنون الإسلامية، وتنوع الخطوط العربية وتعدد أشكالها منحتها خصائص جمالية تمتاز بالرقة والجمال. ومنذ أربعة عشر قرنًا ظهر أربعة عشر نوعًا من الخط العربي تتمتع بالمرونة والطواعية والقابلية للمد والاستدارة والتشابك والتداخل برقة وانسيابية، وأصبح فن الخط العربي من أرقى الفنون، يدل على سمو الذوق والمشاعر. كان الولاة والأمراء يدفعون الهبات الطائلة للخطاطين المهرة ليدونوا آيات القرآن الكريم، وتتميز الحروف العربية بأنها متصلة مما يجعلها قابلة لاكتساب أشكال هندسية مختلفة، وتقترن بالزخارف وبالأشكال المتشابكة ذات الزوايا والاستدارات، واستخدم الخطاطون ماء الذهب في الكتابة. وقد استخدم الخط العربي لنسخ القرآن الكريم، ولزخرفة جدران المساجد والمدارس والأسبلة والقصور والكتب والمخطوطات. ومع الوقت تطور الخط العربي، وسميت الخطوط بأسماء المدن، فسمي الخط الفارسي والكوفي والحجازي، كما أطلق على عدد من الخطوط أسماء الخطاطين المبدعين مثل الخط الياقوتي والغزلاني والرياسي، وأطلق على عدد آخر من الخطوط نسبة مقادير الخط مثل الخط الثلث والنصف، كما سميت بعض الخطوط نسبة إلى الأداة التي تسطرها مثل الخط الغباري. ويوجد الكثير من الأنماط في الخط العربي، فهناك الخطوط

الجافة ذات الحروف المستقيمة، والزوايا الحادة مثل الخط الكوفي، وهناك الخطوط اللينة المستديرة مثل الخط النسخ والخط المدني. ويعتبر الخط الثلث من أروع الخطوط منظرًا وجمالاً ويتميز بالمرونة، ويستخدم هذا النوع في كتابة المصاحف، ومن أجمل الخطوط الخط الفارسي الذي تتميز حروفه بالدقة والامتداد، ويمتاز بسهولته ووضوحه فيظهر إبداع الحروف، أما الخط الكوفي فيتسم بتنسيق وتنظيم الحروف، وله عدة أنواع: فهناك الكوفي المزهر وفيه تزدان الحروف بالمراوح المزخرفة بورق الشجر، والكوفي العباسي الذي تظهر فيه المدات بشكل واضح، ويستخدم الخط الديواني في الدواوين الملكية فقط، أما الخط النسخ فكان يتسم بسهولة كتابته مع إيضاح الحروف وإظهار جمالها، وهناك الخط الرقعة الذي يتسم بسهولة تدوينه، وتضم دار الكتب المصرية اليوم مجموعة فريدة من المصاحف والمخطوطات.

كانت مصر من أبرز الأقطار الإسلامية التي قامت بتجويد الخط الكوفي باعتبارها مركزًا حضاريًا مهمًا طوال التاريخ الإسلامي، وظهرت الكتابات الكوفية المزهرة لأول مرة في مصر، فكانت الزخارف النباتية تخرج من الحروف بطريقة جمالية رائعة، وقد وجدت نماذج مبكرة من الخط الكوفي المضفر والخط الكوفي ذي العقود المعمارية المستديرة. وتزخر متاحف العالم بأعداد لا حصر لها من شواهد القبور المصرية التي بلغت كتاباتها درجة عالية من الجودة والإتقان ساهمت بدور كبير في تتبع مراحل تطور الفن الكتابي، بالإضافة للنقوش التأسيسية والشرائط الكتابية المحفورة فوق جدران الجوامع المختلفة المدون بها الآيات القرآنية والعبارات الدعائية.

حب الله عز وجل نور يشرح الصدور فلا تضاء إلا بهداه، ويُسيِّر القلوب فلا تحيا إلا بحبه، ويملأ العقول فلا تختار سوى رضاه، وحب الرسول أقوى من حب المرء لنفسه، شمعة تنير الطريق في ظلمات الحياة، نبراس يُقتدى به، وسبيل إلى الجنة، ما أجمل أن تحيا النفس في رضوان جنة الحب في الدنيا، وفي رضوان جنة رب العالمين في الآخرة.

حي الجماليـــة

يتوقف إيقاع الزمن في حي الجمالية العتيق الذي يحمـل ملامـح العصور المولية، نتلمس أصداء العابرين، نخطو بداخـل القصور التي شيدها سلاطين المماليك، نبحث عن عروشهم فنجدها قد اندثرت بين ثنايـا الدهـر، نقتفي خطى ابن البلد الشهم ببنيتـه القويـة وعمامتـه المطـويـة بين الأزقة الضيقـة والحـارات فنجـده تـوارى بين طيـات الزمان، يرنو بصرنـا بلهفة داخل الدكاكين الصغيرة بحثًا عن الحرفيين المبدعين بأناملـهـم الذهبيـة، فـلا نقف لهم على أثر، فنمضي في طريقنا، ونتجول بين دروب الحي العريق الذي تتعانق به روح البيئة الشعبية مع جمال العمارة والفنون الإسلامية.

يضم حي الجمالية عدة أحياء شهيرة بين جنباته؛ منها حي الحسين العريق الذي يضم مسجد وضريح الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب حفيد سيدنا محمد ﷺ وقد أطلق على الحي اسمه تكريمًا له، ويوجد على واجهة المسجد لوحة رخامية كبيرة كتب عليها الحديث النبوي الشريف: «الحسن والحسين مني، من أحبهما أحببته، ومن أبغضهما أبغضته»(1). كما يضم حي الجمالية شارع المعز لدين الله الفاطمي أقدم وأطول شارع أثري في العالم تبلغ مساحته أربعة آلاف وثمانمائة متر، ويُعد أكبر متحف مفتوح للآثار الإسلامية، يجسد تاريخ مصر عبر رحلة عمرها ألف عام. كما يضم حي الجمالية شارع الغورية وهو حي تجاري عريق عرف قديمًا باسم سوق الشرابشيين؛ لأنه كان يضم الدكاكين المخصصة لصناعة العمائم وحياكة الملابس السلطانية، ثم أطلق عليه الغورية نسبة إلى السلطان المملوكي قنصوه الغوري الذي كان مغرمًا بالعمارة، شيد به مجموعة معمارية فريدة (1517م). ويضم حي الجمالية أشهر سوق شرقي في مصر؛ سوق خان الخليلي الذي صارت شهرته عالمية، أنشأه الأمير جهاركس الخليلي أحد أمراء السلطان برقوق فوق مدافن الخلفاء الفاطميين التي كانت تجاور القصر الشرقي الكبير، وتعرف باسم تربة الزعفران، وقد نبش جهاركس قبور الفاطميين وألقى ما كان بها من رفات على التلال الموجودة خارج القاهرة لإنشاء الخان، ويُعد خان الخليلي واحدًا من ثمانية وثلاثين سوقًا كانت تمارس نشاطها في العصر المملوكي. ويقول المؤرخ المعروف المقريزي: إن الخان كان عبارة عن مربع كبير يحيط بفناء ويشبه الوكالة، تشمل الطبقة السفلى منه الحوانيت، وتضم الطبقات العليا المخازن والمساكن. وفي عام (1511م) هدم السلطان الغوري خان الخليلي وأنشأ مكانه حواصل ودكاكين وربوعًا ووكالات يتوصل إليها من ثلاث بوابات، وفي عصور لاحقة هدمت هذه الحواصل والحوانيت وأعيد بناء الخان مرة أخرى. ويضم حي الجمالية عددًا من الآثار الرائعة، أشهرها الجامع الأزهر الشريف وباب النصر وباب الفتوح والجامع الأقمر ومسجد السلطان برقوق ومجمع قلاوون وبيت السحيمي.

الجمالية هو أكثر أحياء القاهرة تعبيرًا عن العصور الإسلامية لمصر، وغلبت أسماء حكام هذه العصور على شوارعه وأزقته، فأشهر شوارع هذا الحي هو شارع المعز لدين الله الفاطمي، مُشيِّد مدينة القاهرة، وأول الخلفاء الفاطميين الذين حكموا مصر، وهناك حارة برجوان التي اكتسبت اسمها من الخصي أبو الفتوح برجوان الخادم المخلص للخليفة الفاطمي العزيز بالله والذي صار وصيًّا على ابنه الحاكم بأمر الله لصغر سنه، وقد بنى برجوان قصرًا فخمًا بشارع الخرنفش استخدم فيما بعد كدار للوزارة الفاطمية، وهناك أيضًا شارع المرجوشي الذي ينسب لأمير الجيوش بدر الجمالي. أما حي الجمالية نفسه فقد اكتسب اسمه من الوزير بدر الدين الجمالي أشهر وزراء مصر في العهد الفاطمي ووزير الخليفة المستنصر بالله، كان بدر الجمالي مملوكًا أرمنيًّا قويًّا طموحًا وجادًّا اشتراه والي دمشق جمال الدولة بن عمار وترقى في المناصب فتولى ولاية دمشق مرتين واستقر به المقام واليًا لمدينة عكا. شهدت مصر شدة عظيمة وأزمة طاحنة في عصر الخليفة الفاطمي المستنصر بالله، فقد مرت بواحدة من أسوأ المجاعات التي اجتاحتها في تاريخها واستمرت لمدة سبع سنوات، وتبعها طاعون قضى على ثلث سكان مصر.

واستغل الجنود المغاربة والاتراك والمرتزقة الفرصة فعاثوا فسادًا واحترفوا السلب والنهب، وشاعت الفوضى في أرجاء البلاد وعجز الخليفة الفاطمي عن التصدي لهم، ولم يكن أمام المستنصر بالله وسيلة للخروج من هذه الأزمة العاتية سوى الاستعانة بقوة عسكرية قادرة على فرض النظام وإعادة الهدوء والاستقرار وإنهاء حالة الفوضى التي عمت بالبلاد فاتصل بوالي عكا بدر الجمالي المشهود له بالقوة والصلابة والحزم وطلب منه القدوم لإصلاح الأحوال المضطربة فأجابه على الفور وأتى معه برجاله. ودخل بدر الجمالي وجنوده القاهرة سرًّا (1074م) ونزل في أحد بيوت حارة برجوان بجوار مسجد الحاكم بأمر الله في حي الجمالية، وأقام جنوده في أنحاء متفرقة من القليوبية، ثم تسللوا في مجموعات صغيرة ودخلوا مدينة القاهرة بدون أن يشعر بهم أحد. وعلى الفور أعد بدر الجمالي خطة للقضاء على رءوس الفساد في البلاد، فأرسل إليهم مندوبين برسائل متظاهرًا فيها بالود ويطلب منهم مساعدته في القضاء على الفساد ويدعوهم لمأدبة كبيرة في الجمالية لتدعيم أواصر المحبة والتعاون، ثم عهد إلى كل قائد من قواده بقتل أحد أمراء الجنود من رءوس الفساد من المغاربة والأتراك والمرتزقة، وقضى الأمراء الليل في مرح وسرور، وكلما استأذن أحدهم للانصراف ينقض عليه أحد قواد بدر الجمالي ويقومون بقتله ويقطعون رأسه حتى تكدست ساحة البيت بأجساد الأمراء فجمع بدر الجمالي الرءوس في جوال وحملها إلى الخليفة المستنصر بالله الذي أنعم عليه بوزارة مصر وأطلق عليه السيد الأجل أمير الجيوش ناصر الإمام المستنصري. وبدأ بدر الجمالي في إعادة النظام والاستقرار إلى مدينة القاهرة وبسط نفوذ الخليفة في سائر أنحاء البلاد، ويقول عنه المؤرخ ابن تغري بردي: «وقد تحكم بدر الجمالي في مصر تحكم الملوك ولم يبق للمستنصر معه أمر، واستبد بالأمور فضبطها أحسن ضبط، وكان شديد الهيبة، وافر الحرمة، مخوف السطوة، قتل من مصر خلائق لا يحصيها إلا خالقها».

وأعاد بدر الجمالي تعمير مدينة القاهرة، وإصلاح ما تهدم منها، فأعاد بناء أسوار القاهرة، وبنى بها ثلاثة أبواب تعد من أروع آثار الفاطميين الباقية إلى اليوم، وهي: باب الفتوح وباب النصر وباب زويلة، وشيد مساجد كثيرة فبنى جامع العطارين بالإسكندرية، ومشهد الجيوشي على حافة جبل المقطم خلف القلعة (1085م)، ومن الصعب الصعود إلى هذا الجامع المبني في وسط الصخور، وتعتبر مئذنة هذا المشهد من أقدم المآذن الفاطمية ذات المباخر القائمة بمصر ويُعد محرابه من المحاريب الجصية النادرة بزخارفه المتقنة ونقوشه الكتابية التي تُعد من أجمل النقوش الفاطمية على الإطلاق. وقد اختلفت آراء الباحثين حول وظيفة هذا المشهد، فاعتبره البعض مشهدًا شيده بدر الجمالي ليُدفن به هو وأسرته، واعتبره كريسويل المعماري المتخصص في العمارة الإسلامية مسجدًا، بينما أعده آخرون مرقبًا حربيًّا أنشئ في إطار خطة للتمويه الدفاعي عن مدينة القاهرة، واعتقدوا أن مئذنته استخدمت لإعطاء إشارات بالدخان لأبراج بوابات القاهرة. وبدأ بمجيء بدر الجمالي لمصر عصر جديد في تاريخ الدولة الفاطمية تحكم فيه الوزراء أرباب السيوف، وهو ما سمي بعصر نفوذ الوزراء، وأطلق المصريون اسم بدر الجمالي على أحد أشهر أحيائهم وهو حي الجمالية تقديرًا لإصلاحاته السياسية والإدارية.

اهتم سلاطين المماليك بحي الجمالية الذي كان يقع في قلب القاهرة المملوكية اهتمامًا بالغًا، فشيد الظاهر بيبرس البندقداري مدرسته في قلب هذا الحي العتيق، وشيد به السلطان قلاوون واحدًا من أروع مباني المماليك المعمارية الذي يضم بيمارستانه المشهور، وأقام السلطان المملوكي برقوق مؤسس دولة المماليك الجراكسة مدرسته بين جنباته، ومن أجمل ما شيد بهذا الحي المجموعة المعمارية التي أنشأها السلطان قنصوه الغوري والتي تضم مسجدًا وسبيلاً وضريحًا ووكالة كبيرة وقصرًا مهيبًا، وتعد من آخر منشآت عصر المماليك الضخمة. ويروي المؤرخون عن السلطان الغوري قصة توضح مدى ميل النفس البشرية للتمسك بالسلطة، فعندما عرض عليه المماليك تولي مقاليد السلطنة (1501م) بعد وفاة الملك العادل أبو النصر طومان باي بن الأشرف قايتباي، أعرض ورفض رفضًا باتًا حتى إنه ألقى بعمامته على الأرض وبكى وقال: «كيف أنام وثمة مسلم مظلوم لم أعلم به». ثم خضع ووافق بعد أن ضغط عليه الأمراء على

شرط الا يحكم إلا لفترة مؤقتة، ويعلق المؤرخ ابن إياس قائلا ويبدو بعد فترة قليلة ان السلطان تذوق حلاوة السلطنة فأرسل يستدعي ضارب الرمل وطلب منه أن يستطلع النجوم ليعرف طالعه ومن سيحكم بعده، فقال ضارب الرمل: إن من سيحكم مصر بعده يبدأ اسمه بحرف السين، وشهدت البلاد حوادث قتل غامضة راح ضحيتها عدد كبير من الأمراء يبدأ اسمهم بحرف السين بعد أن قرر الغوري التخلص منهم ليستبد بالسلطة، ولم يخطر على باله أن السلطان العثماني سليم الأول هو من سيحكم مصر بعده.

لقد عشق الأديب الكبير نجيب محفوظ مصر وهام حبًّا في عشق هذا الحي العريق الذي نشأ بين أهله البسطاء فعبر بفكره وقلمه ووجدانه عن واقع الحياة المصرية الأصيلة بفهم عميق امتلك به قلوب القراء، وقد ألهمه هذا الحي كتابة ثلاثيته الشهيرة التي تصور الحياة في مدينة القاهرة، ويقول الأديب العالمي عن حي الجمالية: «إن هذا الحي التاريخي حي الجمالية ظل يأسرني بداخله مدة طويلة من عمري وحتى بعد أن سكنت خارجه، وحين استطعت أن أفك قيود أسره من حول عنقي لم يأت هذا ببساطة، إنك تخرج منه لترجع إليه كأن هناك خيوطا غير مرئية تشدك إليه، وحين تعود إليه تنسى نفسك فيه، فهذا الحي هو مصر تفوح منه رائحة التاريخ لتملأ أنفك وتظل أنت تستنشقها دون ملل».

تمضي الأيام بسحرها وبهجتها بين أرجاء هذا الحي الذي لا يزال يحتفظ بطابعه الشرقي الأصيل، ويشغل حي الجمالية اليوم 2.5 ٪ من مساحة القاهرة الكلية يحده من الشرق جبل المقطم، ومن الشمال حي الوايلي والظاهر، ومن الغرب أحياء باب الشعرية والموسكي، ومن الجنوب حي الدرب الأحمر، ويموج الحي العتيق بالحركة التجارية والحياة والعديد من الحرف والصناعات اليدوية التي تساهم في إحياء التراث الإسلامي.

(1) (أخرجه الترمذي 2970).

الموالــد الشعبيــة

الموالد الشعبية احتفالات ذات صبغة دينية تعود بأصولها لآلاف السنين، تنشر مظاهر البهجة على البسطاء وتلقي بظلالها الغنية على تراث مصر الخالد، عالم الموالد الغامض يفتح لنا أبوابه ويبوح بأسراره فنستمع لتوسلات المريدين (يا نفيسة الدارين نظرة) و(مدد يام المساكين يا طاهرة يام هاشم يام العواجز)، (مدد يا سيدي يا حسين)، (مدد يا شيخ العرب يا سيد يا بدوي) ونشهد الكرامات ونستمع لدقات الطبول وحلقات الذكر والرقص الطقسي ونتذوق الحمص والحلاوة ونتبع الدورة أو زفة الأولياء الصالحين، ونعيش مع الأدعية والابتهالات حتى تحين اللحظة الفاصلة وتنطلق الليلة الكبيرة.

يحتفل المصريون بذكرى مولد العديد من آل البيت النبوي الشريف بعد رحيلهم في موعد يتجدد كل عام لحفظ سيرتهم العطرة، وكل من دخل مصر بجسده له ضريح ومزار ومن لم يدخل مصر بجسده له ضريح معنوي في مكان رمزي، ومن أشهر هذه الموالد مولد السيدة زينب بنت الإمام علي بن أبي طالب التي يقال إنها أول من دخل مصر من آل البيت، ومولد الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب، ومولد السيدة نفيسة من نسل الإمام الحسن - رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين. كما يتم إحياء العديد من موالد الأولياء الصالحين مثل مولد السيد البدوي بطنطا، ومولد العارف بالله عبدالرحيم القناوي بقنا، ومولد السيد ابراهيم الدسوقي بدسوق رضي الله عنهم أجمعين، ويحتفل المصريون أيضًا بمولد العديد من القديسين المسيحيين مثل القديسة ماري جرجس والقديسة سانت تريزا والقديس مارمينا، وتتضمن هذه الموالد إنشادًا دينيًا وحلقات ذكر وابتهالات وترانيم ومواكب وطقوسًا متوارثة مثل إطلاق البخور ونحر الذبائح وإقامة المآدب العامرة، والزينات المتلالئة ، وما من قرية أو مدينة مصرية إلا ولها ولي أو قديس تحتفل بمولده كل عام، ويشترك أبناء كل البلدة في الاحتفال بغض النظر عن دينهم.

والاحتفال بالموالد تقليد شعبي يرجع بأصوله إلى المصريين القدماء الذين اعتادوا الاحتفال بآلهتهم المتعددة التي كانت تُعد رمزًا للمدن المختلفة، ويتم الاحتفال بكل إله مرة كل عام، وقد تأصلت هذه الموروثات في وجدان المصريين عبر السنين، ومع دخول المسيحية لمصر وبعد انتشار الإسلام لم يتخل المصريون عن عاداتهم القديمة وتمسكوا بالاحتفال بالقديسين والأولياء الصالحين وشيدوا لهم المقامات والأضرحة، وفي بعض الأحيان أنشئت أحياء أو قرى جديدة حول ضريح أو مقام ولي أو قديس لتستمد منه البركة. ويظهر تشابه كبير مع قدماء المصريين في الاحتفال بمولد أبي الحجاج الأقصراني المشيد فوق معبد آمون بالأقصر والذي يقام في يوم النصف من شعبان من كل عام، وهو احتفال يحمل طابعًا خاصًا يتضمن عادات وتقاليد وموروثات شعبية ترجع إلى العصور الفرعونية مأخوذة من طقوس احتفال المصريين القدماء بالإله آمون الذي كانت تجري مراسمه على أرض المدينة منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام، وموكب المراكب الذي كان يخرج من معبد الكرنك إلى معبد الأقصر يتشابه مع موكب المراكب الذي يخرج من عند مقام أبي الحجاج الأقصراني ويعرف بالدورة ويطوف بشوارع مدينة الأقصر وسط الأناشيد الدينية.

ولا تختلف طقوس وعادات الاحتفال بموالد الأولياء المسلمين عن موالد القديسين المسيحيين فلكليهما مكانة رفيعة يشغلونها في وجدان مريديهم بسبب ما يروى عن مواقفهم وكراماتهم واستشهادهم لرد الظلم. ويحتفل المصريون كل عام بموالد أوليائهم وقديسيهم في الأيام التي يعتقدون أنها ذكرى ميلادهم، وتجتذب الموالد جموعًا عريضة من الناس وتمتد الاحتفالات عادة ما بين أربعة أيام إلى أسبوع وتختتم بالليلة الكبيرة التي يبلغ الاحتفال الشعبي فيها ذروته ويشارك فيها الرجال والنساء والأطفال والشيوخ، وكانت الموالد تعد متعة كبيرة لكثير من المصريين. وهناك موالد مرتبطة بتاريخ معين، وليس بتاريخ الميلاد نفسه كمولد السيدة زينب التي ولدت في

شهر شعبان في السنة الخامسة الهجرية ودخلت مصر في اواخر شهر رجب سنة 61 هجرية وتوفيت في منتصف شهر رجب سنة 62 هجرية، ويتم الاحتفال بمولدها في شهر رجب الذي يواكب دخولها مصر وتاريخ وفاتها.

ويعتبر بعض الناس إحياء موالد أهل البيت والأولياء الصالحين مشاعر طيبة وكريمة ووسيلة للتقرب إلى الله عز وجل تسود فيها أجواء روحانية، ولكن للأسف يقوم البعض بممارسات خاطئة تخالف العقيدة الصحيحة فيطوفون حول الضريح ويسجدون له ويتمسحون بأسواره ويقومون بتقبيله لأخذ البركة. وقديمًا كان هناك فئات من العامة تعتبر الموالد مصدر رزقهم الأساسي مثل الغجر والغوازي والحواة والمغنين الشعبيين وباعة الحلوى وأصحاب المراجيح.

وقد اتفق معظم الباحثين على أن أول من احتفل بالموالد في الإسلام هم الفاطميون الذين ينسبون أنفسهم إلى السيدة فاطمة الزهراء ابنة الرسول ﷺ وزوجة الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وقد أنشئوا عاصمة لحكمهم أطلقوا عليها المهدية بإفريقية وكانوا يدينون بالمذهب الشيعي. ويذكر أن الفاطميين عرفوا عن أهل مصر حبهم للاحتفالات وتعلقهم بالدين وبآل بيت رسول الله الكرام ولكسب ود المصريين أكثروا من الاحتفالات الدينية، فاحتفل الفاطميون بستة موالد، هي: المولد النبوي الشريف، ومولد الإمام الحسين، ومولد السيدة فاطمة الزهراء، ومولد الإمام علي، ومولد الإمام الحسن، رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين، كما احتفلوا بمولد الخليفة الفاطمي. وقد أحضر الفاطميون رفات أجدادهم وشيدوا العديد من المشاهد والأضرحة بمصر وأقاموا القباب على القبور. ولم تقتصر احتفالات الفاطميين على أعياد المسلمين فقط بل شملت أيضًا أعياد المسيحيين فاحتفلوا بعيد الميلاد المجيد، وكانوا يزينون الكنائس، ويوقدون المشاعل والشموع الملونة فوق المنازل والأسواق وأمام الحوانيت، وكان الفاطميون يوزعون الحلوى والسمك المعروف بالبوري في هذه المناسبة، كما كان الاحتفال بعيد شهداء المسيحيين المعروف بعيد النيروز عيدًا شعبيًا يعتبر عطلة عامة تغلق فيه الأسواق، ويفرق الخليفة الكسوة على رجال الدولة ونسائهم وأولادهم ويصرف حوائج العيد من بيت المال.

ومن أعظم الأعياد وأكثرها بهجة المولد النبوي الشريف الذي سنه الفاطميون لأول مرة في التاريخ الإسلامي، وتطور المولد الفاطمي عبر التاريخ وانتشر في باقي العالم الإسلامي وما زالت هذه السُّنة راسخة حتى اليوم. وقد اتفق العلماء على أن المولد النبوي لم يكن في زمن النبوة، ولا في زمن دولة الخلفاء الراشدين ولا في زمن الدولة الأموية، ولكنه بدأ في زمن الدولة الفاطمية بمصر، ويذكر أن الخليفة الفاطمي المعز لدين الله هو أول من احتفل بهذه المناسبة في محاولة لاستمالة قلوب المصريين. ومن مظاهر الاحتفال بالمولد النبوي الشريف في العصر الفاطمي أن الاستعداد كان يبدأ في دار الفطرة وهي دار شيدها الخليفة الفاطمي العزيز بالله خارج قصر الخلافة أمام الباب الذي يدخل منه إلى المشهد الحسيني واسمه باب الديلم؛ حيث تُعد كميات كبيرة من الحلوى يستخدم في إعدادها عشرون قنطارًا من السكر أي ما يوازي تسعمائة كيلوجرام، وتوضع الحلوى في ثلاثمائة صينية توزع على الناس في الجامع الأزهر الشريف. وكان الاحتفال الرسمي يبدأ بعد صلاة الظهر بخروج قاضي القضاة في موكب يصحبه المكلفون حمل تلك الصواني إلى مكان جلوس الخليفة، وترش الطرق بالرمال، ويصطف الجنود على جانبي الطريق.

وقد حارب الأيوبيون تلك الاحتفالات والتقاليد الفاطمية في فترة حكمهم للبلاد وألغوا الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، إلى أن عاود المصريون الاحتفال به مرة أخرى في العصر المملوكي. حرص سلاطين المماليك على إحياء هذه المناسبة الكريمة بما يتناسب مع مكانتها الدينية فكان يقام احتفال عظيم وتنصب خيمة كبيرة تسمى خيمة المولد في حوش القلعة يكون في مدخلها حوض يملأ بعصير الليمون بالسكر وتعلق الزينات وتقام الولائم وتوزع الصدقات على الفقراء، وكان الاحتفال بالمولد النبوي يتم منذ اليوم الأول من شهر ربيع الأول حتى الليلة الختامية للمولد

في الثاني عشر من ربيع الاول؛ حيث تسير المواكب وتنشد الاناشيد. يذكر ان السلطان المملوكي قنصوه الغوري كان يقيم احتفالاً ضخمًا في المولد النبوي الشريف تنصب فيه خيمة كبيرة في وسطها قبة مرفوعة على أربعة أعمدة مرتفعة وتزين بالأواني والطاسات النحاسية ويجلس على رأسها السلطان الغوري ومن حوله القضاة والأمراء وأعيان البلاد والقراء والوعاظ وتمد الولائم الحافلة بمختلف أنواع الأطعمة والمشروبات. وكانت الاحتفالات الشعبية تقام في الشوارع ويجـوب المخايلـون لتقديم تمثيليـات خيـال الظل والقرقوز وهي ألعاب شعبية ساخرة تنتقد الأوضاع الاجتماعية والسياسية فتثير إعجاب المشاهدين. ويذكر ابن إياس والجبرتي أن تجارًا من الهند وبلاد الروم والشام كانوا يشدون الرحال إلى مولد السيد البدوي بطنطا للتجارة ولعرض بضائعهم النادرة.

وقد احتفل العامة بهذه المناسبة بإقامة الولائم، وربما أحضر البعض المغنين وآلات الطرب مثل الدفوف، وانتشر عدد من البدع والمخالفات في هذه الليلة بين الطبقات الشعبية؛ حيث يذكر لنا المؤرخ ابن الحاج: «إذا تمكن الطرب من الرجل ذهب حياؤه ووقاره فيقوم ويرقص وينادي ويبكي ويتباكى، ويرفع رأسه نحو السماء وربما مزق ثيابه وعبث بلحيته»، كما احتفل المصريون في العصر المملوكي بموالد الأولياء الصالحين، ويأتي الناس من كل القرى والمدن للمشاركة في الاحتفالات التي تدوم لعدة أيام.

وألغى العثمانيون بعد دخولهم مصر الاحتفال بالمولد النبوي الشريف لفترة قصيرة، لكنهم رجعوا بعد ذلك وسمحوا بإحياء هذه المناسبة؛ لما لها من مكانة في قلوب المصريين. وتذكر كتب التاريخ أن نابليون بونابرت كان حريصًا على الاحتفال بالمولد النبوي الشريف لاستمالة قلوب المصريين، وقد ذكر الجبرتي أن بونابرت قام بإرسال ثلاثمائة ريال فرنسي إلى منزل الشيخ البكري نقيب الأشراف في مصر لإقامة الاحتفالات بالمولد النبوي بعد أن أرسل إليه الطبول الضخمة والقناديل.

وتعتبر «العروسة والحصان وحلاوة المولد» من أشهر موروثات العصر الفاطمي، وإن كان شكل العروسة والحصان من الأشكال التي ظهرت في العصور الفرعونية لصنع الحلوى فإن هذه الأشكال القديمة اكتسبت معنًى جديدًا في عصر الفاطميين وخصوصًا في عصر الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله الذي قرر إلغاء كل الاحتفالات طوال العام ومنها احتفالات الزواج مع الإبقاء فقط على الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، فصار المصريون يحتفلون بالزفاف مع ذكرى المولد النبوي حتى لا ينالهم عقاب الخليفة الفاطمي، وجهز بائعو الحلوى العرائس المصنوعة من السكر المعقود تيمنًا بالزواج في هذه المناسبة السعيدة وصارت عادة لا تنقطع، وكانت عروسة المولد تصنع في دار الفطرة، ويتم تصنيع الحلوى على شكل فارس تجسيدًا للعريس الذي يذهب في العادة إلى منزل عروسه للعودة بها ممتطيًا جواده. وجرت العادة على أن يقدم العريس لعروسه عروسة من الحلوى تضعها في المنزل اعتقادًا بأن هذا العمل يمنع الحسد؛ فكل الأنظار ستتجه إلى عروسة الحلوى وروعة زينتها بدلًا من العروس الحقيقية التي يتم زفافها.

وفي القاهرة اليوم تقام سرادقات حول المساجد الكبرى والميادين للاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف كمسجد الإمام الحسين، ومسجد السيدة زينب، ومسجد السيدة نفيسة رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين؛ حيث تعقد حلقات الذكر وتلاوة القرآن الكريم وترديد بعض الأناشيد الدينية والمدائح النبوية، مثل:

يا بو المقام عالي

طه النبي الغالي

حبيبي يا نبي

ضَمِينِي يا نبي

ما تصلوا بينا ع النبي

تعالوا لبيته

لحد باب بيته

بالدمع أنا ناديته

لما تجيلي

حبيبي يا نبي

ما تصلوا بينا ع النبي

يا بخت مين زاره

واتملى من أنواره

حبيبي يا نبي

المطـابـخ السلطانيــة

القاهرة مدينة زاخرة بالأسرار تحوي بين طياتها أحداث الزمان، تمر الأيام يوم يفضي إلى يوم، وسنة تفضي إلى سنة، وعصر يفضي إلى عصر، ولا تزال القاهرة تبوح بخباياها وتفصح بمكنوناتها فتطلق لخيالنا العنان تدهشنا وتمتعنا ونحن نعيش مع ماضيها، هيا نتجول بين أسواق القاهرة المملوكية وحوانيت الطباخين، ولندخل المطبخ السلطاني لنكشف مدى الترف والعظمة في قصور السلاطين ولنتعرف جوانب من الحياة الاجتماعية في هذا الزمان البعيد.

تميزت القاهرة في العصر المملوكي بأسواقها التي تمتد على مرمى البصر، كان شارع القصبة يُعد من أعظم أسواق القاهرة ويحتوي على اثني عشر ألف حانوت بامتداد الشارع ممتلئة بسائر أنواع البضائع التي يصعب على المرء حصرها، تزدحم الشوارع بالمشترين الذين يقبلون على شراء أجمل السلع المجلوبة من الشرق، ومن الغرب صابون تونس، منسوجات تنيس، سيوف دمشق، لؤلؤ مسقط، سجاجيد أرمينيا، حصائر اليمن، توابل الهند وسائر أنواع البضائع، تفوح الروائح العطرية في الجو، هي خليط من شذا المسك والعنبر.

كم كانت حياة الناس بسيطة في العصور القديمة فلا تتكلف الطبقات الشعبية عناء إعداد الطعام في منازلهم التي لا تحتوي على مطابخ، فكانوا يقومون بشراء ما يحتاجون إليه من أطعمة جاهزة من حوانيت يطلق عليها المطابخ أو حوانيت الطباخين تقدم الطعام للزبائن في أطباق من الخزف الأحمر. وقد أقبل على هذه المطابخ الغرباء الوافدون على المدينة أو العامة الذين ليس لديهم القدرة على إعداد الطعام في منازلهم لارتفاع أسعار الوقود ولقلة الوقت؛ حيث إنهم يمكثون في أعمالهم طوال اليوم. منذ الصباح الباكر تهب روائح الطعام الذكية اللحوم المشوية على السفود أي في الأسياخ والطيور المحمرة والطواجن المطهوة فتشبع الناس قبل أن يأكلوا، وقد انتشرت في مدينة القاهرة أعدادًا كبيرة من هذه المطابخ والمطاعم التي كانت تفتح أبوابها قبل شروق الشمس بساعة ولا تغلق إلا بعد صلاة العشاء. وقد وُجد نوعان من هذه المطابخ؛ المطابخ التي تُعد فيها الأطعمة الجاهزة وتباع لعامة الناس ويطلق عليها حوانيت الطباخين؛ والمطابخ التي يطلق عليها الشرايحية يرسل إليها الناس ما يريدون طهوه من لحوم وخضراوات، ويقوم الشرايحية بخلطها بالتوابل المختلفة ويطهونها ثم يرسلونها إلى البيوت في قدور مع صبيانهم مقابل أجر معين. وانتشرت في القاهرة طائفة من الطهاة الجائلين الذين يجوبون الشوارع والأسواق قاصدين سائر أنحاء المدينة ينادون على الطعام المطهو يفترشون الطرقات ويستخدمون مواقد مشتعلة حتى يظل الطعام ساخنًا.

ويقول المستشرق الفرنسي المعروف جاستون فييت الذي عمل مديرًا للآثار العربية في القاهرة لمدة عشرين عامًا (1924 - 1944): «لقد سمعت جميع من أدركتهم يفاخرون بمصر ويقدمونها على سائر البلاد ويقولون إنه يرمى بمصر في كل يوم ما قيمته ألف دينار ذهبًا على الكيمان والمزابل، يقصدون بذلك ما يستعمله اللبانون والجبانون والطباخون من الشقاف الحمر التي يوضع فيها اللبن أو الجبن والتي يأكل فيها العامة طعامهم بحوانيت الطباخين، وما يستعمله باعة الجبن والعطارون من القراطيس والورق والخيوط التي تلف بها القراطيس ويبيعون فيها حوائج الطعام من الحبوب والتوابل وغيرها». وكانت كمية المخلفات التي يتم إلقاؤها في نهاية كل يوم في القاهرة ضخمة جدًا تعكس حجم الحركة التجارية الكبيرة.

ويُعد سوق باب الفتوح من أشهر أسواق القاهرة وأكثرها ازدحامًا يقصده الناس من سائر أنحاء البلاد لشراء الخضراوات واللحوم، ويلف القصابون - أي الجزارون - اللحم في أوراق شجر الموز، وعلى طول الطريق في شارع القصبة من باب الفتوح إلى المسجد الأقمر يباع سائر أنواع الطعام من خبز وزيت وجبن ولبن والتوابل التي كانت تباع في قراطيس من الورق

المقوى وتلف بالخيوط. ويثني «فييت» على تجار مصر وامانتهم فيقول: «وتجار مصر يصدقون في كل ما يبيعون ويعطي التجار في مصر من بقالين وعطارين وبائعي خردوات الأوعية اللازمة لما يبيعون من زجاج أو خزف أو ورق حتى إن المشتري لا يحتاج أن يحمل معه وعاء ليضع فيه ما يشتريه».

ويصف لنا الرحالة الإيطالي «فريسكو بالدي» الذي زار القاهرة في القرن الرابع عشر الميلادي قائلًا إن هؤلاء الطهاة كانوا يضعون الأطعمة في أوعية نحاسية مزخرفة وكان من المألوف أن يجلس القاهريون أو زائرو القاهرة القادمون من الأقاليم المختلفة على جانبي الطرقات يفترشون رقاعًا من الجلد يضعون فوقها أواني الطعام، ثم يلتفون حولها جالسين القرفصاء لتناول اللحوم الضأن والدجاج والأرز والمقليات أو المشويات، وكان الطباخون يقطعون اللحم قطعًا صغيرة يرشقونها في الأسياخ ثم يضعونها فوق الفحم المشتعل. وقد استخدم العامة الكئوس والأطباق الخزفية والقدور والصحون وكانوا يلونونها ويزخرفونها بزخارف نباتية وهندسية ويكتبون عليها العبارات التي تحوي الحكم والأقوال المأثورة (بالهناء والشفاء)، (البركة في اللمة)، (كلوه هنيئًا مريئًا)،كما استخدموا الأدوات المصنوعة من النحاس، والقلل لتبريد المياه والقوارير والأواني الزجاجية. ويحدثنا الرحالة الإيطالي جونشي دي دينو فيقول: «إذا كان لي أن أصف القاهرة وثراءها فلن يكفيني كتاب واحد إذ لو أمكن ضم مدن روما وميلانو وباروا وفلورنسا وأربع مثلها من المدن الإيطالية بعضها إلى بعض فإنني أقسم إنها جميعًا لا تحتوي على نصف ثروة القاهرة التي تتمتع بحركة تجارية ضخمة لما يتدفق عليها من البضائع من الهند والحبشة وشمال إفريقيا وآسيا الصغرى وأوربا».

كانت أحوال الطبقة الغنية والأمراء والسلاطين تختلف اختلافًا بينًا عن أحوال العامة؛ فقصور وبيوت الأثرياء لها مطابخ ملحقة بها لطهي ما لذ وطاب من ألوان الطعام المختلفة. ومما يثير الدهشة أن المطبخ السلطاني بالقلعة كانت لا تنطفئ النيران بداخله ليلًا أو نهارًا ويتم طهي القناطير المقنطرة من اللحوم والدجاج والإوز والغزلان والأرانب والجديان والحلويات يوميًا للسلطان وحاشيته ومماليكه، وتمد الأسمطة والموائد، ويشرف على المطبخ السلطاني أمير يسمى الأستادار ويتبع ديوانًا يسمى ديوان النظر. ويذكر المؤرخون أن مصروف مطبخ الملك الظاهر بيبرس بلغ عشرة آلاف رطل لحم يوميًا يفي بثمنها الديوان، وبلغ استهلاك اللحوم في عهد السلطان العادل كتبغا عشرين ألف رطل يوميًا يتناولها السلطان وأمراؤه ومماليكه، وازداد هذا العدد في عصر الناصر محمد بن قلاوون فبلغ ستة وثلاثين ألف رطل يوميًا. وضم المطبخ السلطاني القدور النحاسية الكبيرة الحجم والجفان أي الأواني الفخارية، وكان كبر حجم الأواني دليلًا على رفعة قدر صاحبها وتعد من دلائل الكرم. وقد تعددت الأشربة في العصر المملوكي فكان هناك شراب الليمون المضاف إليه السكر، وشراب التفاح، وشراب الورد العطري، وشراب الخوخ، وشراب العناب، وشراب الفقاع الذي يصنع من الشعير.

خضعت الأسواق لإشراف المحتسب الذي كانت مهمته مراقبة الأسعار وعمليات البيع والشراء ومنع الغش في المكاييل والموازين، وقد وضعت كتب الحسبة شروطا واضحة يلتزم بها أصحاب المطابخ والمطاعم الذين خضعوا لمراقبة شديدة من المحتسب، فكان المحتسب يراقب أساليب إعداد المواد الغذائية وطهيها ويمنع محاولات الغش التي تضر بالصحة العامة، ويلازم المحتسبون الأسواق ويأمرون الطباخين بتغطية أوانيهم وحفظها من الذباب وهوام الأرض بعد غسلها بالماء الحار، كما يلزمون اللبانين بتغطية أوانيهم، ويأمرون أصحاب الحوانيت بمراعاة سعة الأماكن وتهويتها ورفع أسقفها، ويراعون إقامة الصناعات المقلقة للراحة أو الضارة بالصحة كمسابك النحاس وغيرها في أطراف المدينة.

لقد أخمدت نيران المطبخ السلطاني وأغلقت حوانيت الطباخين أبوابها وولى هذا العالم الساحر بين طيات الزمان.

الأميـــر طـــاز

في القاهرة التاريخية يتجول السائر بين صفحات التاريخ تتلاشي الفواصل بين الخيال والواقع وتنصهر القرون ما بين ربوع مدينة الألف مئذنة التي تعكس آثارها عبقرية وروعة العمارة الإسلامية؛ قصر طاز تاريخ حي ينبض بالحياة شهد على أحداث العصور المتعاقبة؛ لمسة جمال تنثر عبير الأزمنة المولية وتحرك في النفس حنينًا لدفء الماضي الذي يتناغم بإبداعه مع الحاضر.

بطل الأحداث هو الأمير سيف الدين عبدالله طاز بن قطغاج أحد الأمراء البارزين لدولة المماليك البحرية، كان طاز مملوكا من مماليك الناصر محمد بن قلاوون ترقى في الوظائف وتقلد منصب أمير مجلس مهمته ترتيب مجالس السلطان ثم ساقٍ وصار من الأمراء المقربين من الملك الناصر فزوجه من ابنته خوند زهرة. ويذكر عن طاز أنه كان رجلًا جريئًا ذا طموحات جامحة، لم يكتفِ بالعز والجاه والنفوذ التي أنعم الله بهما عليه فكانت تطلعاته بعيدة المدى وعشقه للسلطة بلا حدود فجرفته أطماعه إلى الهاوية وبددت أحلامه في الهواء. وعلى الرغم من أهمية طاز السياسية كأمير مملوكي فإنه واحد من بين آلاف الأمراء الذين طوتهم ذاكرة الزمان ولم يعِد إحياء اسمه سوى القصر الضخم الذي شيده بشارع السيوفية ولا يزال قائمًا حتى اليوم ويُعد آية من آيات الجمال.

يعتبر العصر المملوكي من الفترات التاريخية التي شهدت على الكثير من الفتن والصراعات بين الأمراء والسلاطين، دامت فترة حكم دولة المماليك البحرية قرابة المائة وأربعة وأربعين عامًا توالى فيها على الحكم تسعة وعشرون سلطانًا لم يتعدَّ حكم أكثرهم العام أو العامين، وساده الكثير من المنازعات والانقلابات والاضطرابات فقتل عشرة من السلاطين التسعة والعشرين وتم خلع اثني عشر منهم في الصراع الأزلي بين المماليك لاقتناص السلطة.

تولى الناصر محمد بن قلاوون العرش وكانت فترة حكمه مزدهرة وبعد وفاته (1340م) نصب أمراء المماليك ثمانية من أبنائه على العرش بالتوالي تحت وصايتهم لكونهم أطفالًا صغارًا واشتعلت المنازعات بين الأمراء للحصول على هذه الوصاية. وبرز اسم الأمير طاز في هذه الفترة، كأحد أمراء المماليك المتنافسين على السلطة. كان طاز رجلًا قوي الشكيمة، شجاعًا، عالي الهمة، عظيم الهيبة، واسع المطامع، وقد بدأ نجمه في الصعود في عهد المظفر حاجي بن الناصر محمد بن قلاوون (1346م)؛ حيث صار واحدًا من الأمراء الستة أرباب الحل والعقد الذين يملكون بأيديهم مقاليد الدولة. وبعد مقتل المظفر حاجي تم تتويج أخيه الملك الناصر أبو المحاسن حسن الذي نطلق عليه اليوم السلطان حسن. جلس الأمير الصغير على العرش وعمره ثلاثة عشر عامًا وعلى الرغم من صغر سنه فإنه اتسم برجاحة العقل والحكمة وتصدى لمطامع الأمراء الجامحين وعزل بعضهم من مناصبهم، ولكن طاز الذي تذوق حلاوة السلطة والنفوذ لم يكن ليسمح للسلطان الصغير بتهديد طموحاته فتآمر مع المماليك لخلعه (1351م) . صعد الأمير طاز إلى القلعة ومعه أعوانه وعزل السلطان حسن بعد ثلاث سنوات من حكمه ووضعه بدور الحرم التي يقيم فيها النساء ويسكن بها الأمراء الصغار أولاد السلاطين. فلنتخيل شعور السلطان حسن عندما أسر بالحرملك لابد أنه شعر بوطأة الظلم والقسوة، وصارت نفسه تصرخ غضبًا ولكن توسلاته لا تصل إلى طاز الذي أغلق كل حواسه، لابد أنه تساءل مرارًا وتكرارًا كيف يخونه أقرب الأقربين، كيف يطمع زوج أخته في عرشه؟ ولكن ليس أمامه سوى التضرع والصبر حتى يقضي الله أمرًا.

وتنفس طاز الصعداء بعد أن أزاح من طريقه السلطان الجريء وقلد الملك لأخيه الأصغر الملك الصالح صلاح الدين بن قلاوون، وصار طاز أقرب ما يكون من تحقيق حلمه باعتلاء كرسي

السلطنة، فهو الوصي على العرش والحاكم الفعلي للبلاد الامر الناهي الذي لا يُعصى له امر، وأصبح السلطان الصغير كالأداة في يده وأطوع إليه من بنانه.

ولكن لم تهنأ الحياة طويلًا لطاز، فبعد فترة وجيزة دب خلاف بينه وبين بعض أمراء المماليك فأضمروا له السوء وتوجهوا للهجوم على قصره، فلما علم طاز بذلك قرر أن يستغل سيطرته المطلقة على الملك الصالح صلاح الدين للتخلص من أعدائه، فأنزل السلطان الصغير من القلعة واصطحبه معه لمواجهة الأمراء ودقت كؤوس الحرب ونودي في الناس أن من يجد مملوكًا من المماليك المتآمرين يقتله، فقتل عدد كبير منهم وذهب السلطان مع طاز إلى قبة النصر حيث دار قتال عنيف بينهم وبين الأمراء رءوس الفتنة وتم القبض عليهم وسجنوا بخزانة شمايل، وكان من ضمن الأمراء المسجونين الأتابكي شيخو العمري الذي عفا عنه السلطان بعد انقضاء هذه الواقعة وأطلق سراحه مع آخرين.

ومرت الأيام والأمور هادئة ظاهريًا وطاز غافل عما يحيكه له أعداؤه المتربصون في الخفاء وعلى رأسهم الأمير شيخو العمري الذي كان يدين بالولاء الشديد للسلطان حسن الذي خلعه طاز. وفي عام (1354م) خرج الأمير طاز إلى البحيرة لمحاربة بعض العربان المنشقين فاغتنم شيخو العمري الفرصة واصطحب بعض الأمراء وصعد إلى القلعة وقام بخلع الملك الصالح من السلطنة وسجنه بدور الحرم وأعاد الملك الناصر حسن مرة أخرى إلى العرش.

واستعاد السلطان حسن عرشه وأمسك بيده زمام الحكم وقد زادته الأيام الصعبة التي قضاها مأسورًا في دور الحرم قوة وصلابة فصارت كلمته مسموعة وخضعت له رقاب الأمراء، وقد علا شأن الأميرين صرغتمش وشيخو العمري في حكمه حتى إنه منح شيخو لقب أمير كبير فكان أول من يُدعى بهذا اللقب. ونعود لطاز الذي ترامى لمسامعه وهو في البحيرة واقعة خلع السلطان الصالح من الحكم وتنصيب الملك الناصر حسن بدلًا منه فأسرع عائدًا إلى القلعة لمواجهة الكارثة الكبرى، وكان الأمراء ينتظرون عودته على أحر من الجمر فما إن عاد حتى أسرعوا بإلقاء القبض عليه وسجنوه بقلعة الجبل هو وأخاه جنتمر، ولكن شفع له بعض الأمراء فأفرج السلطان حسن عنه وعينه نائبًا على حلب. ولم يقنع طاز بهذا المنصب الجديد الذي اعتبره تراجعًا لطموحاته ولم يكف عن إثارة المتاعب فعلى الرغم من كل صفاته الطيبة التي عددها له المؤرخون كبطل شجاع، محب للعلماء، فاعل للخير - فإنه كان متقلبًا ومتمردًا حاول الاستقلال بولايته الجديدة عن دولة المماليك، فانقلب عليه أمراء حلب ودخل معهم في صراعات عسكرية طاحنة.

ولا تهدأ صراعات المماليك؛ ففي عام (1357م) قتل الأمير شيخو العمري على يد أحد المماليك بسبب خلاف دب بينهما على قطعة أرض فازدادت قوة الأمير صرغتمش وصار أتابكا للعسكر أي أميرًا للجيوش بدلًا من شيخو العمري، وتقلد منصب رأس نوبة النوب أي رئيس الأمراء وقوي نفوذه. واغتر صرغتمش بمنصبه فقرر الاستبداد بسلطته وتخطى إرادة السلطان وقبض على طاز بدون علم السلطان حسن وسجنه بالإسكندرية. وشعر طاز بالخطر المحدق به، ولم يرحمه صرغتمش ولم تأخذه به شفقة وتم تكحيل عيني طاز حتى يفقد بصره لإبعاده عن الحياة السياسية نهائيًا، ومضت اللحظات الرهيبة وخمدت الأنوار من حول طاز وغرق في بحر من الظلام وهو يئن من شدة الألم. وبعد أن أطلق سراح طاز ذهب إلى القدس ومنها إلى دمشق وأقام بها حتى وافته المنية (1361م)، وقد قضى ما تبقى له من حياته ضعيفًا منكسرًا بعد أن كان يملك الدنيا بأسرها، ودارت الأيام بدورها على صرغتمش فغضب عليه السلطان حسن وجرده من سلطته مع حياته.

وقد بنى طاز قصرًا ضخمًا بشارع السيوفية المتفرع من شارع الصليبية (1352م)، وكان هذا الشارع يُعد من أهم شوارع القاهرة المملوكية؛ مما يدلل على مدى نفوذ وقوة طاز. وقد شيد

القصر على انقاض بيوت اشتراها من اهلها وتم هدمها برضا اصحابها او بغير رضاهم، وتولى الأمير منجك عمارته وصار يشرف عليه بنفسه حتى اكتمل البناء وأصبح قصرًا مشيدًا. وتصف كتب التاريخ طاز بأنه كان حسن الشكل وسيمًا، طويل القامة، وقد شيد هذا القصر احتفالًا بزواجه من خوند زهرة ابنة الملك الناصر محمد بن قلاوون وكان هذا الزواج موافقًا لطموحاته إذ جعله من المقربين للسلطان. افتتح الأمير طاز القصر (1353م) فأقام وليمة كبيرة حضرها السلطان الصالح صلاح الدين صالح بن الناصر محمد بن قلاوون، وكان حضور السلطان حدثًا غير مسبوق وشرفًا كبيرًا لطاز. ويعلق المقريزي على ذلك قائلًا: «ولم يعهد قبل ذلك أن أحدًا من ملوك الترك بمصر نزل إلى بيت أمير قبل الصالح هذا وكان يومًا مذكورًا»، ولم يقم طاز بقصره العظيم الذي شيده سوى ثلاث سنوات وبضعة أشهر ؛ لأنه شغل نفسه بحروب وصراعات قضت على مستقبله السياسي وذهبت بمجهوداته أدراج الرياح فخبا نجمه الساطع في السماء.

ويروي القصر تاريخ عدة عصور تعاقبت عليه؛ فقد شهد على العديد من الأحداث المهمة والصراعات السياسية والمواجهات الحربية، وبعد وفاة مالكه انتقلت ملكية القصر إلى الأمير المملوكي جارقطلوا، وفي عام (1489م) دارت أحداث معركة حربية كاملة بداخل جدرانه بين المماليك السلطانية ومماليك الأمير الكبير جارقطلوا في حكم السلطان الأشرف بارسباي. وقد بدأت المعركة بمشادة بسيطة بين مملوكين صغيرين بعد أن ضرب أحد المماليك الجلبان مملوكًا للأمير جارقطلوا فشج رأسه، فتعصب لكل مملوك عدد كبير من الجنود والقادة وتجمعوا على باب قصر طاز واتفقوا على قتل جارقطلوا ومماليكه وتحولت المشادة البسيطة إلى معركة حربية عنيفة خشي معها الناس على أنفسهم فأغلقت الأسواق والدكاكين والطرقات وشلت الحياة في القاهرة. وأرسل السلطان الأشرف بارسباي إلى المقاتلين يأمرهم بأن يوقفوا القتال ولكن لم ينصاعوا لأمره، وأغلق الأمير جارقطلوا باب القصر وترامى الفريقان بالنشاب من فوق الأسوار وفشل المماليك السلطانية في تحطيم الأبواب أو في اقتحام القصر رغم استخدامهم سائر أنواع الأسلحة التي تستخدم في المعارك الكبيرة مما يدل على متانة عمارة القصر. وفي العصر العثماني اتخذ الأمير علي أغا دار السعادة القصر مقرًا له (1715م)، واستقطع جزءًا كبيرًا منه وشيد عليه سبيل مياه للسقاية وهو من طراز الأسبلة ذات الشباك الواحد يعلوه كتاب لتحفيظ القرآن الكريم. وفي عصر محمد علي باشا تم استخدام القصر كجزء من مدرسة حربية ضمن الخطة التي تبناها والي مصر محمد علي لإعادة تكوين جيش نظامي في مصر، ثم أصبح القصر مقرًا للباشاوات المعزولين عن الحكم مثل ولي باشا ويكن باشا. ولكن سرعان ما دخل القصر في مرحلة الإهمال المطلق حتى إنه تم تحويله إلى مدرسة للبنات واستخدمت بعض قاعاته كمخازن في عصور لاحقة.

ويُعد قصر طاز نموذجًا نادرًا لقصور العصر المملوكي فهو من أقدم وأكبر وأفخم القصور الباقية من هذا العصر، ويتميز بالنقوش الزخرفية الرائعة والأشكال النباتية بديعة الصنع وبأعمال الحفر على الخشب المميزة التي تزين السقف.

تبلغ مساحة القصر الكلية أكثر من ثمانية آلاف متر مربع وهو عبارة عن قصر سكني مقسم لجزءين يقع بالجزء القبلي الإسطبلات والمخازن وأحواض الدواب والسلاملك الخاص بسكن الرجال والمقعد وهو القاعة التي كان يستقبل فيها طاز ضيوفه وهي مستطيلة الشكل أرضيتها مصنوعة من الرخام الأسود وسقفها ملون بألوان زاهية من الخشب المزخرف بالرسوم الهندسية والنباتية والزخارف الكتابية، أما الجزء البحري فيضم الحرملك الخاص بسكن السيدات وكانت الساقية العلوية المندثرة الآن تقوم بتغذية الحمامات والنوافير. يضم القصر العديد من المشربيات الرائعة والشبابيك العلوية المستديرة التي يطلق عليها القماريات المغطاة بالزجاج الملون لتوفير الإضاءة للغرف. وللقصر فناء كبير في الوسط يشتمل على حديقة، ويحيط بالفناء من الجهات الأربع مباني القصر المختلفة والساقية الأرضية وهي أول ساقية مكتشفة باقية حتى الآن من

العصر المملوكي. وقد انهارت العديد من أجزاء القصر ولم يتبق منه اليوم سوى الواجهة الرئيسية المطلة على شارع السيوفية والواجهة الخلفية المطلة على حارة الشيخ خليل والمقعد الذي تم تجديده في عهد علي أغا دار السعادة. وبالإيوان الشمالي للقصر بقي شريط كتابي تبقى منه النص التالي: (بسم الله الرحمن الرحيم، أمر بإنشاء هذا المكان المبارك السعيد من فضل الله الكريم وكل عطائه العميم المقر الأشرف العالي المولوي المخدومي الغازي المجاهدي المرابطي) وهي كلها ألقاب خاصة بالأمير طاز، كما يتوسط هذه الكتابات رسم لكأس يرمز إلى وظيفة الساقي إحدى الوظائف التي تقلدها الأمير طاز، وكان بالقصر موضع يسمى الطبلخانة وهو مساحة مخصصة للموسيقيين بجانب بوابة المدخل يعلن منها نافخو الأبواق وقارعو الطبول دخول سيد القصر ومواقيت الصلاة.

ومع توالي الأعوام تعرض القصر للهدم خاصة بعد زلزال (1992م) وبدأت عمليات الإنقاذ السريعة لتحمي هذا الصرح العظيم من الانهيار الكامل (2005م)، ونتج عن عمليات الترميم وإزالة الأتربة والمخلفات اكتشاف العديد من العناصر الخشبية والمعدنية والحجرية التي كان لها أكبر الأثر في عودة القصر الى رونقه القديم بنفس مكوناته الأصلية. وأصبح قصر طاز اليوم مركز إبداع تابعًا لصندوق التنمية الثقافية بدار الأوبرا تقام به الورش الفنية والندوات الثقافية والأنشطة العديدة، ويشتمل حاليًا على معرض دائم بعنوان (روائع المماليك) عبارة عن خمس حجرات؛ تعرفنا الحجرة الأولى من هم المماليك، وتقدم الثانية نبذة مختصرة عن فنون المماليك وعصرهم وسياستهم وتجارتهم، وتتحدث الحجرة الثالثة عن حياة الأمير طاز وقصره، بينما تشتمل آخر حجرتين على ناتج حفائر القصر أثناء ترميمه.

الإسكندرية ماريـــة
وترابهـــا زعفـــران

الإسكندرية القديمة مدينة بديعة نابضة بالفن والجمال، حوت بين طياتها ملامح من الرومانسية والواقعية، توحدت بها الديانات واندمجت على أرضها الأفكار الفلسفية فصارت مصدرًا للمعارف الإنسانية في العالم، فمنحها الإسكندر الأكبر اسمه فخلدته على مر العصور وصارت العاصمة الأولى للحضارة الهلينستية، ضمت ثالثة عجائب العالم السبع القديمة منارة جزيرة فاروس ودار الحكمة جامعة الإسكندرية التي فاقت شهرتها الآفاق. حازت إعجاب الصحابي الجليل عمرو بن العاص بعد فتح مصر حتى كادت تكون عاصمة مصر الإسلامية، ويعتبر عصر دولة المماليك البحرية هو العصر الذهبي للمدينة بلغت فيه قمة تقدمها العمراني والاقتصادي فأسرت قلب زوارها وجذبت أقطاب العلم والفكر من سائر أنحاء المعمورة، الإسكندرية عروس البحر الأبيض المتوسط امتزج صفاء السماء وزرقة الماء مع طبيعتها الهادئة فصارت الحياة بين ربوعها رمزًا للحب والبهجة.

في يوم مشهود من القرن الرابع قبل الميلاد وعلى شاطئ البحر المتوسط اختار الإسكندر الأكبر موقع قرية راقودة وجزيرة فاروس ليقيم مدينة عظيمة، وأصبحت الإسكندرية صرحًا للحضارة وعاصمة لمصر لفترة تقرب من ألف عام، واحتلت مركز الصدارة بين حواضر العالم القديم. لم تكن الإسكندرية عاصمة سياسية فحسب بل كانت أيضًا عاصمة ثقافية تستقطب العلماء والأدباء والفلاسفة وتبوأت مكانها كميناء مصر الأول على البحر الأبيض المتوسط. وأحاطت بالمدينة الأسوار العظيمة ذات الأبراج العالية والحصون، وكان لها العديد من الأبواب أهمها باب الشمس في الشرق وباب القمر في الغرب.

كون الإسكندر الأكبر إمبراطورية عظيمة فوحد بلاد اليونان (336 ق.م.)، ثم سار شرقًا إلى آسيا فاتحًا فهزم داريوس ملك الفرس ووصل إلى بلاد السند وأراد أن تمتزج ثقافتهم ودماؤهم امتزاجًا ينهي النزاع الطويل بين الشرق والغرب فشجع الآلاف من جنوده على أن يتخذوا لهم

زوجات فارسيات وتزوج هو من إستاتيرا ابنة الملك دار الثالث، وولدت الحضارة الهلينستية نتيجة لامتزاج الحضارة الإغريقية اليونانية بجميع الحضارات الشرقية.

وبعد وفاة الإسكندر في بابل تم تقسيم إمبراطوريته بين قواده فقامت ثلاث ممالك هي الدولة السلوقية التي أسسها القائد سلوقس وعاصمتها مدينة أنطاكية، وضمت إيران والعراق وسوريا وآسيا الصغرى، والدولة الأنتيغونية التي أسسها القائد أنتيغون في مقدونيا وعاصمتها بيلا، ودولة البطالمة التي أسسها القائد بطليموس بن لاجوس في مصر (306 ق.م.) وعاصمتها الإسكندرية، وحمل بطليموس لقب ملك وجعل الإسكندرية عاصمة لحكمه وبدأ حكم البطالمة فتولى ثلاثة وثلاثون حاكمًا حملوا كلهم اسم بطليموس وكان آخرهم كليوباترا السابعة. وتوالى اندماج البطالمة مع المصريين عبر محاولات لتوحيد الديانات الفرعونية مع الديانة البطلمية، وقد أضفوا على الإسكندرية من مظاهر النهضة العمرانية والثقافية والاقتصادية ما جعل منها أعجوبة بين حواضر العالم القديم.

وأنشأ بطليموس الأول جامعة الإسكندرية القديمة أو دار الحكمة كمركز للبحث والدراسة، واستقدم البطالمة من بعده أبرز العلماء والمفكرين للتدريس بها، وفاقت شهرة الجامعة الآفاق وجمعت بين تراث العلوم والفنون وخلاصة الإبداع العلمي والأدبي وصارت مركزًا للإشعاع الثقافي واجتذبت صفوة أهل العلم والفكر من جميع أرجاء العالم الهلينسي. كما أنشأ البطالمة مكتبة الإسكندرية القديمة لإثراء الحركة الفكرية بالجامعة وضمت المكتبة أكبر عدد من المجلدات واللفائف المكتوبة التي بلغت أعدادها نحو (700.000) لفافة وأضافت إليها الملكة كليوباترا السابعة نحو (20.000) لفافة أخرى. وقد شملت مكتبة الإسكندرية على التراث الثقافي للمعابد المصرية والنسخ الأصلية للكتب والمسرحيات اليونانية ومؤلفات عهد البطالمة، ومن أهم مقتنيات المكتبة تاريخ مصر باللغة اليونانية وترجمة التوراة من العبرية إلى اليونانية المشهورة باسم الترجمة السبعينية. وظلت الجامعة والمكتبة منارًا مشعًّا للعلم والثقافة حتى عهد بطليموس الثامن حين هجر الإسكندرية عدد كبير من العلماء خوفا من اضطهاده بعد أن تمرد عليه الشعب وأعلنوا حركة العصيان. وفي عام (47 ق.م) اشتعلت الحرائق في المكتبة نتيجة للمعركة التي دارت بين جنود يوليوس قيصر والجيش المصري، واندثرت بقية المكتبة في العصر الروماني.

تُعد منارة الإسكندرية ثالث العجائب السبع في العالم القديم، كانت تقع في الجزء الشرقي من جزيرة فاروس، قام بتصميمها المهندس سوستراتوس في حكم بطليموس الأول لترشد السفن في الليل واكتمل بناؤها في حكم بطليموس الثاني (279 ق.م) وكانت تتكون من أربعة طوابق وترتفع مائة وخمسة وثلاثين مترًا وبداخلها منحدر حلزوني يصل بين طوابقها، وقد استخدم الحجر الجيري والجرانيت في البناء وفي تشييد الأعمدة والرخام والبرونز في الزخرفة.

كانت الإسكندرية العاصمة الأولى للحضارة الهلينستية ازدهرت سياسيًا واقتصاديًا وثقافيًا وعمرانيًا طيلة ثلاثة قرون واشتهر هذا العصر تاريخيًا باسم العصر السكندري فقد مزجت الإسكندرية بين الحضارة الشرقية وبخاصة حضارة مصر القديمة وبين الحضارة الهلينستية غير أن ضعف وتفكك البطالمة في أواخر هذا العصر دفع الإمبراطورية الرومانية للتدخل في شئون مصر طمعًا في ثرواتها وانتقامًا من كليوباترا السابعة آخر ملوك البطالمة. وفي عام (31م) وقعت معركة أكتيوم البحرية و انتصر فيها أوكتافيوس - الذي عرف بعد ذلك باسم الإمبراطور أغسطس - على الملكة كليوباترا وحليفها مارك أنطونيوس، وانتهى هذا العصر الذهبي بانتحار كليوباترا ودخول مصر تحت حكم الإمبراطورية الرومانية. انبهر الرومان بعظمة الحضارة المصرية وأدركوا مدى أهميتها الاقتصادية فجعلوا مصر ولاية رومانية وتمركز في الإسكندرية أكثر من نصف الحامية العسكرية الكبيرة التي وضعها الإمبراطور في مصر.

وازدهرت الأفكار الفلسفية في الإسكندرية في العصر الروماني نتيجة لمشاعر القلق الروحي

والاختلاف العقائدي الذي ساد في ظل تعدد واختلاط الديانات بين مختلف الشعوب التي ضمتها الإمبراطورية واتصلت ببعضها تجاريًا وثقافيًا. وكان على رأس فلاسفة مدرسة الإسكندرية الفيلسوف فيلون الذي أثر منهجه كثيرًا على التفكير الفلسفي والديني في العصور التالية، وارتكز هذا المنهج على إثبات قضايا الدين عن طريق الفلسفة، ومن أهم فلاسفة الإسكندرية أيضًا الفيلسوف أفلاطون زعيم الأفلاطونية الحديثة الذي جمع فكره بين الفلسفتين اليونانية والشرقية. وظلت الإسكندرية مركزًا مهمًا لالتقاء هذه العقائد المتباينة حتى ظهور الدين المسيحي الذي وجدوا فيه الخلاص الروحي الذي كانوا ينتظرونه.

وفي العصر البيزنطي تأكدت أهمية كنيسة الإسكندرية ولعب أساقفة الإسكندرية دورًا كبيرًا في الدفاع عن العقيدة المسيحية وانتشر نظام الرهبنة الذي استحدثته الكنيسة المصرية في وقت مبكر بين سائر الكنائس في الشرق والغرب، وكان لرهبان الإسكندرية وأشهرهم القس هارون فضل كبير في ميادين الفلك والعلوم والطب. كما ازدهر الفن السكندري في هذا العصر وبدت فيه تأثيرات البيئة الشرقية واتجاهات استخدام الرموز والشعارات الدينية إلى جانب الإكثار من الزخارف والنقوش الملونة والحرص على الواقعية، وازدهر فن العمارة البيزنطية في كنائس الإسكندرية التي بني معظمها على الطراز البازيليكي.

وبعد مرور أربعة أعوام على وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم - تمكن المسلمون من فتح العراق والشام وأصبحت الظروف مواتية لفتح مصر، فموقع مصر الجغرافي المتوسط سوف يؤمن الفتوح الإسلامية في الشام وسيساعد العرب على مواصلة الفتوحات ونشر الإسلام في الكثير من البلدان. طلب الصحابي الجليل عمرو بن العاص من خليفة المسلمين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أن يأذن له بفتح مصر لمعرفته السابقة بها فوافق أمير المؤمنين على طلب ابن العاص وشجعه على الموافقة علمه بأحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن مصر وتوصيته بالقبط خيرًا وإشادته بجنودها، وبعث (عمرو) لفتح مصر يرافقه جيش مكون من أربعة آلاف مقاتل وكان هذا العدد ضئيلاً جدًا مقارنة بأعداد جيوش الرومان الضخمة.

ودخل الإسلام مصر (641م) بعد نجاح الصحابي الجليل عمرو ابن العاص في دخول حصن بابليون ثم سار إلى الإسكندرية حيث رحب المصريون بالفتح العربي الإسلامي الذي خلصهم من ظلم الروم واضطهادهم الديني ورحبوا بالعدل والمساواة والسماحة التي وفرها لهم الدين الإسلامي، واعتبروا المسلمين منقذين من اضطهاد الرومان فقدموا لهم كل معونة ممكنة خلال حصارهم للإسكندرية الذي دام تسعة أشهر، وأرسل المقوقس عظيم القبط ووالي مصر المعين من قبل الروم للتفاوض مع الصحابي الجليل عمرو بن العاص فاتح مصر على شروط الصلح. ويروي المؤرخون قصة أشبه بالأسطورة عن المقوقس فيقال إنه كان هناك باب مغلق في مدينة الإسكندرية وعليه أربعة وعشرون قفلاً فعزم المقوقس على فتحه لظنه أنه يوجد كنز ثمين بداخله فنهاه الرهبان ونصحوه بأن كل من سبقه من الملوك لم يفتحه بل وضع عليه قفلاً حتى صار عددهم أربعة وعشرين قفلاً وطلبوا منه أن يجعل عليه قفلاً وسيعطونه المال الذي ظن أنه فيه فرفض المقوقس واجتاز الباب فلم يجد مالاً وإنما رأى نقوشًا ورسومات على الجدران تصور العرب راكبين خيولاً وعلى رءوسهم عمائم وسيوف وكتب على الجدار (تملك العرب المدينة في هذه السنة).

وهناك رواية أخرى تذكر عن الصحابي الجليل عمرو بن العاص تقول إنه كان في بيت المقدس للتجارة فرأى شماسًا مصريًا أي خادمًا للكنيسة - قادمًا من السفر وكاد أن يهلك من شدة العطش بعد أن اجتاز الصحراء الجرداء، وطلب من عمرو أن يسقيه شربة ماء فسقاه عمرو الماء ونام الشماس، وأثناء نومه زحفت نحوه حية فرآها عمرو فقتلها وأنقذ حياته، وعندما استيقظ الشماس ورأى الحية ملقاة بجواره قال لعمرو: «لقد أحياني الله بك مرتين مرة من شدة العطش ومرة من الحية» وطلب من عمرو أن يرافقه إلى مسقط رأسه في مصر ليكافئه بمبلغ ألفي دينار على

صنيعه لانه غريب وجاء إلى القدس للصلاة. ذهب عمرو مع الرجل إلى مصر ونزل في الإسكندرية فانبهر من روعة مبانيها ومن عظمة حضارتها، وكان يوم دخول عمرو الإسكندرية عيدًا عظيمًا يجتمع فيه الملوك والأشراف ولهم طقوس يفعلونها في هذا اليوم وهو أن يحضروا كرة معينة مصنوعة من الذهب ويلقوها إلى بعضهم البعض ويتلقفوها بأكمامهم وأخبروا عمرًا أن من تستقر هذه الكرة في كمه يصبح ملكا على مصر، جلس عمرو يشاهدهم فوقعت الكرة في كمه فتعجبوا من ذلك وقالوا: ما خدعتنا هذه الكرة أبدًا إلا هذه المرة.

وصل الصحابي الجليل عمرو بن العاص إلى الإسكندرية ومعه جيش مكون من اثني عشر ألف مقاتل وكان عدد جيوش الروم خمسين ألف جندي مزودين بالمؤن الوفيرة، وحاصر ابن العاص الإسكندرية لمدة أربعة عشر شهرًا قبل أن يفتحها الله على أيديهم (642م). وبعد فتح الإسكندرية سجل عمرو وصفا دقيقًا للمدينة كتبه في رسالة إلى خليفة المسلمين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فأخبره أنه وجد بها أربعة آلاف حمام عام واثني عشر ألف بقال وقدم وصفا مفصلاً لموقعها الفريد وأسوارها الحصينة ومنارتها الشامخة والصهاريج التي تمتد كمدينة كاملة تحت الأرض، والكنائس والشوارع الواسعة ذات الأقواس المرفوعة على أعمدة رخامية ناصعة البياض. غير أن الصحابي الجليل عمرو بن العاص نقل عاصمة البلاد من الإسكندرية إلى الفسطاط لقرب موقعها من مقر الخلافة في الجزيرة العربية بناء على رغبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

بدأت في الإسكندرية بعد الفتح الإسلامي حركة التعريب التي دعمها استقرار بعض كبار الصحابة بها لفترات طويلة فرابطوا فيها وأخذت تفقد صبغتها غير الشرقية. وقد عني خليفة المسلمين عثمان بن عفان -رضي الله عنه- بالثغر السكندري فجعله مقرًّا لدار صناعة السفن التي أصبحت نواة للأسطول الإسلامي، كما صارت الإسكندرية في عهده من كبرى قواعد الأساطيل الخلافية، وحققت (34 هجريًّا) (645م) أول انتصار بحري على الروم في موقعة ذات الصواري التي عرفت بهذا الاسم لكثرة صواري المراكب في المعركة، وكانت هذه الموقعة فاتحة الانتصارات الكبرى التي حققها المسلمون في البحر. وخلال القرن الأول للهجرة أنشئ بالإسكندرية العديد من المساجد من أوائلها مسجد عمرو بن العاص مسجد الرحمة، مسجد موسى، مسجد سليمان، مسجد ذي القرنين، مسجد الخضر.

ويعتبر عصر دولة المماليك البحرية هو العصر الذهبي لمدينة الإسكندرية، فقد بلغت فيه قمة تقدمها العمراني وقامت فيه نهضة اقتصادية لم تشهدها المدينة في أي عصر من العصور الإسلامية السابقة نتيجة للاهتمام الكبير الذي أولاها إياه الملوك والسلاطين وامتلأت المدينة بالمساجد ومدارس الفقه واللغة والعلم والفلسفة ووفد إليها علماء الدين والقضاء والتجار من سائر أنحاء العالم.

ويرجع الفضل في ازدهار الإسكندرية وتألقها في عصر دولة المماليك البحرية إلى ثلاثة سلاطين هم الظاهر بيبرس البندقداري، والناصر محمد ابن قلاوون والأشرف شعبان. كان الظاهر بيبرس أول سلاطين المماليك البحرية الذي اهتم بمدينة الإسكندرية فزارها أربع مرات، وفي زيارته الأولى حصَّن الثغر ورمم أسواره، وفي زيارته الثانية أمر بتطهير خليج الإسكندرية من الرواسب الرملية التي تعوق مجراه، وفي الزيارة الثالثة أمر بنصب مائة منجنيق على أسوار الإسكندرية، وفي الزيارة الأخيرة (1273م) أمر بترميم المنارة. وواصل السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون سياسة الظاهر بيبرس في العناية بثغر الإسكندرية وقام هو أيضا بترميم المنار إثر الزلزال العنيف الذي أصابه (1302م) وحفر خليج الإسكندرية الذي ظل يعمل حتى عام 1368م)).

وفي حكم السلطان الملك الأشرف زين الدين أبو المعالي شعبان بن الناصر محمد بن قلاوون

(1362م) وقعت مدينة الإسكندرية فريسة للاطماع الصليبية وتعرضت لهجوم صليبي قبرصي استغرق ثلاثة أيام أحدث بالمدينة تدميرًا كبيرًا، وأريقت دماء الضحايا وتراكمت الجثث في الشوارع. كان الأتابكي يلبغا العمري هو المدبر الحقيقي والمتحكم في أمور الدولة في سلطنة الأشرف شعبان ، وبينما الملك الأشرف شعبان في نزهة بسرياقوس، ويلبغا العمري في نزهة بوادي العباسة إذا بأنباء عن الهجوم الصليبي تصلهما، وظن يلبغا أن تلك الأخبار ما هي إلا مكيدة من مكائد يدعى أمير طيبغا الطويل أمير سلاح الذي كان على خلاف معه فذهب إلى منزله بالقاهرة وتبعه السلطان إلى القلعة ليتحققا من صحة الخبر. وجاء ملك قبرص بطرس بقواته فظن الناس أن السفن التي ظهرت في الأفق هي سفن البنادقة الذين يأتون للتجارة، ولما اكتشف الناس أن هناك غزوًا أغلقوا أبواب المدينة؛ لأن الثغر كان قد خلا من المجاهدين، وخرجت القوات لملاقاة الجيش الصليبي، ونزل إليهم الملك بطرس فحمل عليهم حملة شرسة وظفر الفرنج بالمدينة في ساعتين فقط، وأكثروا من الأسر والقتل والسلب وأحرقوا المساجد والزوايا والحارات والأسواق والفنادق، واستمروا على ذلك ثلاثة أيام ثم رحلوا إلى بلادهم ومعهم خمسة آلاف أسير. ونعود إلى السلطان شعبان الذي نادى في القاهرة بعدما تأكد من صحة الخبر بالنفير في الرجال للقتال، فخرج الناس والعسكر أفواجًا لنجدة الإسكندرية، ولكن كان النيل في موسم زيادته فتعطل الطريق أمام الجيش، وعندما وصل السلطان شعبان بجيوشه إلى البحيرة جاءته الأنباء برحيل الصليبيين عن الإسكندرية فرجع إلى القاهرة حزينًا وأمر بدفن القتلى وأمد يلبغا بالأموال اللازمة لعمارة ما خرب منها. وأرسل السلطان شعبان برسله إلى قبرص للنظر في تخليص الأسرى، وأمر يلبغا بصنع السفن البحرية اللازمة لغزو الفرنج حتى إنه بعث إلى بلاد الشام فأمر بإخراج كل النجارين ليقطعوا الأخشاب ويحملوها إلى مصر ، واكتملت عمارة السفن البحرية (1366م) وعدتها مائة قطعة جهزت بالرجال والأسلحة استعدادًا للغزو. واستمرت المحاولات المملوكية للانتقام من الغزو القبرصي للإسكندرية بدون أي نجاح يذكر وتعاقب على حكم مصر أكثر من عشرة سلاطين حتى تولى السلطان الملك الأشرف برسباي أمور السلطنة (1421م) وبعد أربع سنوات من حكمه (1425م) ورد الخبر على السلطان بنجاح الجيوش في فتح قبرص وأسر ملكها جينوس بن جاك والأخذ بثأر الإسكندرية بعد كل هذه السنوات الطويلة، فكاد السلطان برسباي يطير فرحًا، ويذكر المؤرخ ابن تغري بردي أنه بكى من شدة الفرح وبكى الناس لبكائه.

وصارت الإسكندرية في عصر المماليك البحرية من أهم المراكز الثقافية في العالم الإسلامي وازدهرت بها العلوم، وبرز من العلماء أبو العباس المرسي وجابر بن إسحق الأنصاري والإمام البوصيري وأبو عبد الله الشاطبي وابن عطاء الله السكندري ومحمد دانيال الموصلي وغيرهم، كما ازدهرت بها الصناعات مثل صناعة المنسوجات الحريرية والمنتجات الخزفية، وقد انعكس هذا الازدهار والرخاء على المدينة فازدحمت بالأبنية الكبيرة مثل القلاع والمدارس، وازدهرت التجارة في المدينة بسبب استقبالها لكثير من التجار من مختلف أنحاء العالم.

وفي عصر دولة المماليك الجراكسة نالت الإسكندرية نصيبًا وافرًا من رعاية سلاطين المماليك، وقد اختار السلطان المملوكي الأشرف أبو النصر قايتباي موضع منار الإسكندرية القديم ليبني عليه حصنًا عظيمًا عُرف بقلعة قايتباي التي تعد من أروع منشآت العصر المملوكي الباقية في الإسكندرية حتى اليوم، أنشئت القلعة بأقصى غرب الإسكندرية مكان الفنار المتهدم في جزيرة فاروس على مساحة (17550) مترًا مربعًا لصد غارات الغزاة الصليبيين الذين كانوا يهاجمون سواحل مصر والشام في العصر المملوكي ولحماية دولة المماليك من أطماع الدولة العثمانية. القلعة مربعة الشكل يحفها البحر من ثلاث جهات، وتحيط بها الأسوار فلها سور داخلي وآخر خارجي، أما السور الداخلي فيشمل ثكنات الجنود ومخازن السلاح، والسور الخارجي يضم أربعة أبراج دفاعية تنتهي من أعلى بشرفات بارزة تضم فتحات لرمي السهام. تتكون القلعة من ثلاثة طوابق يضم الطابق الأول مسجد القلعة الذي يتكون من صحن وأربعة إيوانات، ويضم أيضًا ممرات دفاعية تسمح للجنود بالمرور بسهولة خلال عمليات الدفاع عن

القلعة، ويحتوي الطابق الثاني على ممرات وقاعات وحجرات داخلية، ويضم الطابق الثالث مقعد السلطان قايتباي الذي كان يجلس فيه لرؤية السفن على مسيرة يوم من الإسكندرية، كما يوجد في هذا الطابق فرن لإعداد الخبز وطاحونة لطحن الغلال للجنود المقيمين بالقلعة. وكانت هذه القلعة تُعد من أهم القلاع على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وقد اهتم بها سلاطين وحكام مصر على مر العصور فزاد السلطان قنصوه الغوري من قوة حاميتها وأمدها بالسلاح والعتاد. ولما فتح العثمانيون مصر احتموا بهذه القلعة وجعلوا بها طوائف من الجند المشاة والفرسان والمدفعية ومختلف الحاميات للدفاع عنها، وعندما ضعفت الدولة العثمانية بدأت القلعة تفقد أهميتها الاستراتيجية والدفاعية نتيجة لضعف حاميتها. ومع دخول الحملة الفرنسية مصر بقيادة الجنرال نابليون بونابرت (1798م) استطاع الفرنسيون الاستيلاء على مدينة الإسكندرية والقلعة، وعندما تولى حكم مصر محمد علي باشا عمل على تحصين السواحل الشمالية فقام بتقوية أسوار القلعة وتجديد مبانيها وزودها بالمدافع الساحلية، بالإضافة إلى بناء العديد من الطوابي والحصون التي انتشرت بطول الساحل الشمالي لمصر. ولما قامت الثورة العرابية (1882م) بقيادة الزعيم أحمد عرابي دخل الإنجليز مصر وخربوا قلعة قايتباي وأحدثوا بها تصدعات داخلية وخارجية حتى قامت لجنة حفظ الآثار العربية (1904م) بترميمها فعاد إليها رونقها وتُعد اليوم من أهم معالم مدينة الإسكندرية.

وقد أنشئت أيضًا في العصر المملوكي العديد من العمائر الدينية، من أهمها مسجد أبي العباس المرسي ومسجد الشيخ ياقوت بن عبدالله الحبشي المعروف بياقوت العرش تلميذ أبي العباس ومسجد الإمام البوصيري صاحب نهج البردة، كذلك أقيمت عدة دور للحديث أهمها دار الحديث التكريتية ودار الحديث النبيهية. وفي عام (1478م) اكتشف البرتغاليون طريقًا آخر للتجارة هو طريق رأس الرجاء الصالح فتحولت القوافل التجارية إليه وتدهورت أحوال المدينة بعد أن فقدت مكانتها كأكبر مركز تجاري في الشرق وتحولت التجارة إلى الأسواق الأوروبية. وبعد الفتح العثماني فقدت الإسكندرية مكانتها القديمة وتقلص عمرانها واقتصر على الرصيف الممتد من الشاطئ حتى جزيرة فاروس القديمة.

تفتحت أزهار الإسكندرية نحو ضوء الشمس فتصاعد شذاها ونشرت الرياح العطرة تحت سمائها الصافية وعكست أرضها البريق الذهبي للرمال، وتلألأت أشعة القمر على سطح بحرها بانسيابية فتمتعت العيون برؤية المدينة العتيقة وسبح العقل في أحلام ناعمة بين ربوع مدينة الإسكندرية عروس البحر الأبيض المتوسط.

العتبــة الزرقــاء

ترسم القاهرة ألوانها بفرشاتها الساحرة، تسكب الألوان البديعة، تنقش التفاصيل، تصور الأحداث وتخط الذكريات فتجسد لوحة ناطقة بتراث مصر الغني المفعم بالحياة. يطل علينا من بين ثنايا القاهرة عدد من الألوان الجذابة التي ارتبطت ارتباطا وثيقًا بأحيائها ومنشآتها، تبدأ الألوان عند الدرب الأحمر فتتوهج بقوة وحيوية ثم تتدرج بتمهل حتى تصل إلى الجامع الأزرق، وتلمع وتتألق عند الدرب الأصفر قبل أن تستقر بهدوء عند العتبة الخضراء، ولكي نكشف أسرار ارتباط هذه الألوان بأحياء ومنشآت القاهرة علينا أن نتوغل في قلب التاريخ ليروي لنا الأحداث الفريدة التي شهدتها هذه الأحياء لتتلون بشتى الألوان فتسحر العقول وتبهر العيون.

يهب علينا عبق التاريخ من حي الدرب الأحمر أقدم مناطق القاهرة التاريخية، يضم الحي العتيق خمسة وستين أثرًا إسلاميًا، استمد الدرب الأحمر اسمه من حدث تاريخي بارز يعود بنا مائتي عام إلى الوراء (1811م) بسبب واقعة شهيرة دبرها والي مصر محمد علي باشا للتخلص من أعدائه من المماليك تسمى مذبحة القلعة أو مذبحة المماليك التي راح ضحيتها أكثر من خمسمائة مملوك، أراد محمد علي باشا الانفراد بالسلطة وحكم مصر فقرر إزاحة المماليك من طريقه لتمردهم الدائم وفشل كل محاولات الصلح التي قام بها معهم. دعا محمد علي باشا زعماء المماليك إلى قلعة الجبل مقر الحكم بحجة التشاور قبل البدء بالحروب الوهابية وانطلت عليهم الخدعة، وفي يوم الحفل حضر زعماء المماليك بكامل زينتهم ممتطين خيولهم يتقدمهم جيش كبير بقيادة إبراهيم بك الابن الأكبر لمحمد علي باشا، وساروا في صفوف وراء الجيش وتحرك الموكب ليغادر القلعة عن طريق ممر ضيق يقود إلى باب العزب، وبدون سابق إنذار أغلق الباب الخارجي في وجه المماليك ومن ورائهم الجنود الذين أمطروهم بوابل من الرصاص فأخذتهم المفاجأة وساد الهرج والمرج وحاول المماليك الفرار ولكنهم سقطوا صرعى وامتلأ فناء القلعة بجثثهم الهامدة، ولم ينج من هذه المذبحة سوى مملوك واحد يدعى أمين بك كان في مؤخرة الركب، فلما شعر بالخيانة قفز من فوق سور القلعة بحصانه فهلك الحصان ونجى أمين بك وفر هاربًا إلى بلاد الشام. ونسج الخيال الشعبي العديد من الأحداث حول هذه الواقعة من ضمنها أن الحي الواقع تحت القلعة امتلأ بدماء المماليك فسمي حي الدم الأحمر وتحولت هذه التسمية مع مرور الوقت إلى حي الدرب الأحمر الذي ظل محتفظا باسمه حتى اليوم.

ويطل علينا لون جديد من الجامع الأزرق أو جامع آق سنقر، وقد اكتسب الجامع الأزرق لقبه بعد ثلاثمائة عام من تشييده. وفي العصر المملوكي أنشأ الأمير شمس الدين آق سنقر السلاري - ومعنى اسمه العصفور الأبيض - أحد أمراء الناصر محمد بن قلاوون وزوج ابنته جامعًا أطلق عليه اسمه (1346م) بشارع باب الوزير بين أسوار القاهرة الجنوبية وحي القلعة. كان الأمير المملوكي آق سنقر في الأصل مملوكا للأمير سلار فأعطاه اسمه السلاري، ثم أصبح فيما بعد مملوكًا للسلطان الناصر محمد بن قلاوون الذي عينه أميرًا لمائة مقدمًا لألف، وهو من أرفع المناصب في جيش المماليك، وقد حمل ألقابًا كثيرة؛ منها أمير شكار، أي المسئول عن رحلات الصيد الملكي، ثم ترقى لاحقًا إلى منصب أمير أخور أو سيد الخيل الذي يشرف على الإصطبلات السلطانية، ثم صار شاد العمائر السلطانية؛ أي المشرف على الأبنية السلطانية، فأثرى ثراء كبيرًا وتزوج من إحدى بنات الملك الناصر، ولعب دورًا هامًا في سياسة الدولة. ويروى أن الأمير آق سنقر كان يشرف على عمارة الجامع بنفسه ويرفع التراب مع العمال والبنائين بيده، ولكن دارت الدوائر على آق سنقر الذي تم عزله وصودرت ممتلكاته وخرج إلى حلب ومنها إلى دمشق حيث توفي بها. ترتفع مئذنة الجامع الأزرق الفريدة بشموخ، لقد ميزها مشيدها عن سائر مآذن العصر المملوكي بتصميم فريد وابتكارات هندسية لم تتكرر بعدها قط، قد شيدت المئذنة فوق قاعدة متعامدة الأضلاع، الدور الأول أسطواني مستدير الشكل بخلاف المآذن المملوكية التي تتخذ أولى دوراتها على هيئة شكل مربع أو مثمن، أما الدور الثاني فأقصر

من الاول ومزخرف بتضليعات تشبه المآذن السلجوقية في اسيا، والدور الثالث سداسي الاضلاع تعلوه شرفة لها خوذة ذات قبة خشبية مغلفة بالرصاص، وتمثل المئذنة قمة الإبداع المعماري للعصر المملوكي. وفي العصر العثماني قام رجل يدعى إبراهيم أغا مستحفظان بإصلاح هذا المسجد وجلب قيشاني أزرق من تركيا كسا به واجهة المسجد والقبلة والجدران مما جعله مميزا فأطلق عليه الناس الجامع الأزرق، والتصق به هذا اللقب حتى كاد يختفي اسم مشيده، كما أنشأ إبراهيم أغا مدفنًا بين المنارة والباب القبلي للمسجد، وإلى جوار هذا المدفن بالرواق القبلي يقع مدفن الأمير المملوكي آق سنقر.

ولو انتقلنا إلى حارة الدرب الأصفر المتفرعة من أقدم وأشهر شوارع القاهرة شارع المعز لدين الله ستروى لنا حكايات الماضي البعيد، اكتسب الدرب تسميته من لون النحاس الأصفر؛ لأن ورش تصنيع النحاس كانت منتشرة بين جنباته، وهناك رأي آخر يقول إن هذه التسمية ترجع إلى المنازل التي كانت تطلى جدرانها وحوائطها باللون الأصفر. يضم الدرب الأصفر عددًا من المنشآت الأثرية مثل منزل مصطفى جعفر وبيت الخرزاتي وسبيل وكتاب الأمير قيطاس بالإضافة إلى بعض المنازل الحديثة، أما أهم ما يضم الدرب فهو بيت السحيمي الذي شيد في العصر العثماني، ويعد من البيوت الأثرية النادرة التي بقيت تقاوم الزمن ونرى من خلاله عبقرية العمارة الإسلامية وفنونها، بيت السحيمي في الحقيقة أقرب إلى القصر لعظم مساحته ورقي عمارته وقد اعتاد الباحثون والمؤرخون للعمارة الإسلامية أن يذكروا عن بيت السحيمي أنه من أفضل البيوت التقليدية التي تعطينا فكرة عما كانت عليه بيوت القاهرة في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، يتجاوز عمر المنزل اليوم أكثر من ثلاثمائة وخمسين عامًا. تبلغ مساحة بيت السحيمي (2500) متر مربع، ويتألف من قسمين: الجنوبي أنشأه الشيخ عبد الوهاب الطبلاوي (1648م)، أما القسم الشمالي فأنشأه الحاج إسماعيل شلبي (1796م)، وجعل من القسمين بيتًا واحدًا، وقد اكتسب بيت السحيمي اسمه من الشيخ أمين السحيمي شيخ رواق الأتراك في الجامع الأزهر الشريف وهو آخر من سكن بالمنزل الضخم الذي يضم عدة طوابق وأكثر من مائة قاعة تدل على ثراء الأسر التي أقامت بداخله. يجتاز زائر بيت السحيمي رواقًا يسمى المجاز وهو مدخل منكسر وظيفته حجب أهل الدار ويجلس الزوار في التختبوش وهو عبارة عن مساحة مستطيلة مفتوحة على الفناء يدور حول جدرانها أرائك خشبية بانتظار صاحب المنزل الذي يصطحبهم إلى غرفة المندرة في الدور الأرضي، ومن أهم عناصر بيت السحيمي الحرملك وهو عالم النساء الخاص الذي لا يصح اختراقه وغير مسموح إلا لرب البيت وأقرب الأقربين بدخوله، أما أجمل غرف بيت السحيمي فهي غرفة بالدور الأول كسيت معظم جدرانها بالقيشاني الأزرق وتضم مجموعة من أواني الطعام التي كانت تستخدم في المنزل، ومن المعالم الجديرة بالذكر أنه يوجد في صحن البيت شجرتان عمراهما من عمر المنزل، إحداهما شجرة زيتون والثانية شجرة سدر أي نبق ولا زالت أوراقهما خضراء يانعة. وصارت اليوم حارة الدرب الأصفر نموذجًا حيًّا للحارة ذات الطابع الإسلامي في القاهرة التاريخية من ناحية آثارها وتوافق مبانيها الحديثة مع أرضيتها الحجرية وأسلوب الحياة.

أما أشهر ألوان القاهرة على الإطلاق فهو اللون الأخضر الذي التصق بميدان العتبة الخضراء كبرى المناطق التجارية بالعاصمة اليوم، والطريف أن العتبة قبل أن تكتسب اسمها العتبة الخضراء كان يطلق عليها العتبة الزرقاء، ويرجع أصل هذه التسمية إلى القرن الثامن عشر الميلادي عندما قام أحد تجار التوابل الأثرياء ويدعى قاسم الشرايبي (1732م) بتشييد جامع وسبيل أطلق عليهما العتبة الزرقاء في منطقة الأزبكية التي كانت تغطيها الرمال والأتربة، فسميت هذه المنطقة العتبة الزرقاء، وهناك رواية تنسب الاسم إلى زمن دخول العثمانيين مصر (1517م) فيقال إن رجلًا يدعى رضوان كتخدا قام بتشييد قصر كبير في الأزبكية على حافة بركتها أطلق عليه العتبة الزرقاء؛ لأن لون بوابته وعتبته كان أزرق فالتصق هذا الاسم بالحي، ولكن في عهد الخديو عباس الأول تم هدم القصر وأعيد بناؤه مرة أخرى باسم العتبة الخضراء تبركًا باللون الأخضر لمدخله حيث إن الخديو عباس حلمي كان غير محب للون الأزرق فتحول

اسم الحي للعتبة الخضراء.

وهناك رواية أخرى عن تسمية الحي العتبة الخضراء فيقال إن في عصر السلطان المملوكي قايتباي قام الأمير أزبك قائد الجيوش بتعمير منطقة الأزبكية وتجميلها بعدما كانت تغطيها تلال الأتربة، فأعاد حفر بركتها ومدها بالماء من الخليج المصري، وكانت الأزبكية قبل ذلك أرضًا خالية تغطيها مياه الفيضان كل عام فصارت من أجمل وأرقى أحياء القاهرة وشيدت المباني حولها وأنشئت الحدائق الخضراء اليانعة فتحول اسم المنطقة إلى العتبة الخضراء من كثرة بساتينها وسكن بها الأمراء وكبار الشخصيات. وقد وصف حي الأزبكية أحد أدباء العصر العثماني ويدعى الشيخ حسن العطار قائلًا: «بساتينها وارفة الظلال ترى الخضرة من خلال قصورها المبيضة كثياب سندس خضر على أثواب من فضة، يوقد بها كثير من السرج والشموع، فالأنس بها غير مقطوع ولا ممنوع، وجمالها يدخل إلى القلب ليذهل العقل حتى كأنه من النشوة مبهور».

وفي زمن الحملة الفرنسية تهدم الكثير من المساجد والديار وخربت البساتين في منطقة الأزبكية بسبب مقاومة أهل القاهرة للفرنسيين. وفي عهد الخديو إسماعيل (1869م) تهدم المسجد الذي أنشأه الأمير أزبك، وأعاد الخديو إسماعيل تعمير حي الأزبكية ليكون على شاكلة باريس فأعاد تخطيط الميدان وتغير اسم العتبة الخضراء إلى ميدان محمد علي باشا، وبعد زواج الملك فاروق ملك مصر من الملكة فريدة تم تغيير اسم الميدان مرة أخرى فأطلق عليه اسم ميدان الملكة فريدة، ولكن لم يتغير اسمه في وجدان الناس الذين تمسكوا بالاسم القديم وظلوا يطلقون عليه العتبة الخضراء حتى أعيد للميدان اسمه الأصلي رسميًا.

تتغير الأيام وتتعدد الألوان وتبقى القاهرة بنت المعز المحروسة شامخة عريقة تتلألأ كسبائك الذهب تحت قرص الشمس، تبتسم كالملكة المتوجة على عرشها فتضفي بهجة على الحياة، وتطبع على وجوه أهلها رقة وسماحة، الرحيل بين ثناياها والبحث في دروب ماضيها متعة تشعل الأشواق إلى الماضي وتذكرنا ببهائها وعظمتها في الأزمنة الخالية.

الحيـاة بداخل الوكالات

وكالات القاهرة القديمة عالم ساحر يطل علينا من بين ثنايا التاريخ كاشفًا معالمه ومفرداته، فلنعد ذكرى سكانها ولننتقل لعالم التجار الفريد، نجتاز باب الوكالة الضخم، ما زالت رائحة المكان العتيقة تملأ الجو، لا تهدأ الحياة بداخل الوكالة التي تفيض بالحيوية والنشاط، يفد عليها أناس كثيرون ويرحل عنها أناس أكثر، يبدل الصيارفة العملات للتجار الوافدين من سائر أنحاء البلاد، يجلس شاه بندر التجار متأهبًا قبل أن يبدأ المزاد على السلع، وينهمك القباني بوزن البضائع، وينتقل السمسار بين البائعين والمشترين لإتمام الصفقات وتحصيل العمولات، ويقوم الترجمان بترجمة لغات التجار الأجانب، ويعلو صوت الدلالين منادين على سلعهم بعبارات منغمة، بن اليمن تطيب نكهته للنفوس العزيزة، يا عسل بنها يا شهد مكرر، يا دهن قشر الجوز يا مزين شعر الصبايا، يا قباطي تنيس يا كحالي يا موردة، ويحمل العتال البضائع الثقيلة مرددًا (حمولنا عليك يا رب)، ويطعم السائس الدواب في الإصطبل الملحق بالوكالة، وتتطلع زوجات التجار باستحياء من خلف مشربيات الأدوار العلوية لمشاهدة حركة الأسواق، إنه عالم رحل بسكانه وترك لنا آثاره لتذكرنا بروعة الماضي.

تصل لنا تسميات كثيرة من الزمان القديم تصف المنشآت التجارية المختلفة (فندق، وكالة، خان، قيسارية) وتشترك كل هذه المنشآت التجارية في أداء وظيفة واحدة وهي استقبال التجار الأجانب الوافدين من الشرق والغرب وتوفير مساكن لأسرهم ومخازن لبضائعهم وأماكن لعقد الصفقات التجارية. واكتسبت الوكالات أسماءها من السلع الأساسية التي كانت تباع بداخلها مثل وكالة الدشيشة ووكالة الصابون ووكالة الشمع، وفي بعض الأحيان اكتسبت الوكالات أسماءها من أسماء منشئيها مثل وكالة قوصون، ووكالة الغوري ووكالة قايتباي. والوكالات عبارة عن مبانٍ ضخمة ذات فناء مستطيل مكشوف في الوسط، ويلتف حوله المخازن أو الحواصل التي تحفظ بداخلها البضائع، وفوق الوكالة يوجد عادة الربع الذي يستخدم كمساكن للتجار وعائلاتهم، ولكل وحدة سكنية سلم منفصل خاص بها، ويكون هناك عادة بئر لتوفير المياه وباب خشبي يغلق في الليل.

بدأ بناء الوكالات في العصر الفاطمي واستمر تشييدها حتى نهاية العصر العثماني، ويذكر أن الوزير الفاطمي مأمون البطائحي (1122م) أمر ببناء وكالة في القاهرة للتجار الوافدين من العراق والشام أطلق عليها وكالة ابن ميسر. وفي العصر الأيوبي اشتدت الحروب مع الصليبيين، وانعكس هذا الأمر على المنشآت فتقلص بناء الوكالات وإزدادت المنشآت العسكرية. وازدهرت الحركة التجارية مرة أخرى في العصر المملوكي فأنشئت العديد من الوكالات، ويذكر المقريزي في خططه عددًا من أسمائها؛ منها وكالة باب الجوانية التي أقامها السلطان برقوق أول سلاطين دولة المماليك الجراكسة للتجار الشوام، ووكالة المستخرج التي كانت تقع بجوار قصر بشتاك والتي اشتراها السلطان الغوري بمبلغ ألفين وخمسمائة دينار ذهبي، ومن أشهر وكالات العصر المملوكي وكالة قايتباي التي أنشأها السلطان أبو النصر قايتباي (1479م) لاستخدام أرباحها لشراء الفول المدشوش وتوزيعه على الفقراء والمحتاجين، وقد عرفت بوكالة الدشيشة، ولم يتبقَّ منها اليوم سوى واجهتها وجزء من مخازن الدور الأرضي والدور الأول. وهناك وكالة قوصون وهي من منشآت أمراء المماليك، أنشأها الأمير قوصون في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وتقع في شارع الجمالية، ينزل بها التجار ويعرضون بضائعهم المجلوبة من الشام كالزيت والصابون والجوز واللوز والفستق والبخور والتوابل، وكانت حركة البيع فيها مزدهرة. وتغير اسمها في العصر العثماني وأطلق عليها الناس وكالة الصابون، وكان يوجد أعلاها ربع يسكن به أربعة آلاف شخص وثلاثمائة وستون وحدة سكنية، ولم يتبق اليوم من هذه الوكالة سوى مدخلها.

أما قمة وروعة العمارة المملوكية فنجدها في أشهر وأجمل وكالات القاهرة وكالة الغوري الواقعة في حي الغورية العريق الذي عرف قديمًا باسم سوق الشرابشيين وكانت به دكاكين لصناعة وحياكة الملابس السلطانية وسمي بالغورية نسبة إلى السلطان الغوري. كان التجار يفدون إلى وكالة الغوري من سائر البلدان ببضائعهم المختلفة ويستأجرون وحدات مكونة من مخازن ومحلات لعرض بضائعهم ويسكنون مع أسرهم في الأدوار العلوية التي تغطيها المشربيات. تتكون وكالة الغوري من صحن مكشوف مستطيل يفتح عليه بالدور الأرضي مجموعة من الحواصل كانت تستخدم للتخزين، وتضم الوكالة خمسة طوابق بها تسعة وعشرون مسكنًا، لكل مسكن سلم خاص ليوفر الخصوصية لسكانه. وقد أنشأ هذه الوكالة السلطان قنصوه الغوري آخر سلاطين المماليك. كان الغوري ملكًا قويًّا، ذكيًّا، شجاعًا محبًّا للعمارة، ترك خلفه ثروة فنية، فبنى مجمعه المشهور بمجمع الغوري، وهو عبارة عن قصر وجامع وسبيل وكتّاب ووكالة، ويعتبر آخر منشآت عصر المماليك الضخمة. وقد هزم الغوري وقتل في موقعة مرج دابق شمال حلب على يد العثمانيين بقيادة السلطان العثماني سليم الأول (1516م) بعد أن حكم مصر لما يزيد على خمسة عشر عامًا، وتضم الوكالة اليوم مركزًا دوليًّا للحرف التقليدية والفنية.

وعلى الرغم من تحول القاهرة في العصر العثماني من عاصمة للخلافة الإسلامية إلى مجرد ولاية عثمانية، فإنها واصلت نموها التجاري والاقتصادي وازداد الاهتمام بالعمارة التجارية، وبلغ عدد الوكالات التي شيدت في مصر خلال العصر العثماني عشر وكالات استمرت بها نفس الأساليب المعمارية السائدة في العصر المملوكي. ومما ساعد على ازدهار التجارة في العصر العثماني أن القاهرة ظلت نقطة عبور رئيسة للتجارة العالمية ولم تتأثر إلا جزئيًّا باكتشاف البرتغاليين للطريق البحري المعروف باسم رأس الرجاء الصالح، كما تبوأت القاهرة مركزًا مهمًّا في التجارة العثمانية الداخلية نظرًا لعدم وجود حدود بين ولايات وأقاليم الإمبراطورية العثمانية التي شملت معظم أراضي العالم الإسلامي، كما استفادت القاهرة من مواسم الحج لأنها كانت مركزًا رئيسيًّا لتجمع قوافل الحجيج، فساعدت كل هذه العوامل على تضاعف عدد الوكالات. انتعشت تجارة الأقمشة في العصر العثماني وتمركزت ما بين سوق الغورية والفحامين، وكانت تجارة البن متداولة في اثنتين وستين وكالة وخانًا في الشارع الأعظم، كما راجت تجارة الصابون والدخان والسكر. ومن أشهر وكالات العصر العثماني وكالة ذو الفقار، وكالة وسبيل عباس أغا، وكالة أبو طاقية، وكالة القمح، وكالة القطن، وكالة الفوطية، وكالة الفراخ، وكالة السمسم، وكالة الجلابة، وكالة صالحة خاتون.

ومن أجمل الوكالات التي وصلت لنا من العصر العثماني وكالة بازرعة في حارة التمبكشية بحي الجمالية التي أنشئت (1669م) وعرفت باسم وكالة الكخيا نسبة إلى حسن كتخدا الملقب بالكخيا وكانت معدة لبيع الأخشاب وقد اشتراها تاجران شقيقان من عائلة بازرعة باليمن (1796م) وخصصاها لتجارة الحبوب والبن اليمني والصابون النابلسي وعرفت منذ هذا الوقت بوكالة بازرعة، يتوسط الوكالة فناء مستطيل يطلق عليه الصحن كان يستخدم لعرض البضائع وللأعمال التجارية، كما يوجد بالوكالة خمسة وعشرون مخزنًا بالدور الأرضي، أما الطابق العلوي فيضم تسع عشرة وحدة سكنية مختلفة الأحجام وكل وحدة عبارة عن حجرتين متصلتين بسلالم داخلية وملحق بهما حمام.

الفندق كلمة فارسية ومعناها الخان وقد أقيمت خصيصًا لفئة التجار الأجانب، ووجدت الفنادق في مصر منذ العصرين الطولوني والإخشيدي وحتى نهاية العصر المملوكي. أما الخان فكلمة فارسية تعني أيضًا الفندق ويتكون الخان عادة من عدة طوابق تحيط بفناء مكشوف، تقع المخازن والدكاكين في الدور الأرضي حول الفناء، أما الأدوار العليا فكانت تؤجر كسكن للتجار الأجانب وعائلاتهم، وقد يبنى الخان في خارج المدينة أو في داخلها على هيئة مربع أو مستطيل، وقد يشيد بوسط الصحن مسجد أو مصلى ليقام به شعائر الصلاة.

وقد ضمت القاهرة في العصر المملوكي خمسة خانات من اشهرها خان الخليلي الذي كان يثير إعجاب التجار الأجانب بسبب منتجاته الرائعة التي لا تضاهى في جمالها وإتقانها، أنشأ هذا الخان الأمير جهاركس الخليلي أحد أمراء السلطان المملوكي برقوق مكان موضع قبور الفاطميين التي كان يطلق عليها تربة الزعفران. وفي عام (1511م) أعاد السلطان الغوري تشييد خان الخليلي كما يقول المقريزي في خططه فهدمه بكل حوانيته وأنشأ مكانه وكالات وربوعًا وخانًا وأحاطها بسور ذي ثلاث بوابات وصار الخان معدًا لتجار الجواهر الثمينة والثياب المزركشة، وقد التهم خان الخليلي حريق كبير في أوائل خمسينيات القرن الماضي وأعيد بناؤه، ويشتهر الخان اليوم بالصناعات والحرف اليدوية وبمنتجاته المصرية الأصيلة وبمشغولاته الذهبية والفضية والنحاسية التي يقبل عليها السياح. كتب الرحالة جبريل بريمون عن خان الخليلي (1643م) قائلاً: «يتخذ خان الخليلي هيئة قصر مهيب متسع للغاية مبني من الحجر المشذب ويرتفع لثلاثة طوابق، توجد في الأدوار السفلية حوانيت جميلة تحيط بميدان رائع مربع الشكل يقع في الوسط وفي مواجهتها صف من العقود المتكررة المرفوعة على أعمدة رائعة الجمال والمحيطة بها من جميع الجهات، وفي هذا المكان يعقد التجار صفقاتهم، أما الميدان الذي في الوسط فإنه يستخدم كاطار لبيع البضائع بالمزاد، ولعقد الصفقات التجارية والبيع والشراء بالجملة وليس مسموحًا بالإقامة في هذا المكان إلا للتجار ذوي السمعة الطيبة، فهو مليء بالأحجار الكريمة والمجوهرات».

أما الخان الوحيد المتبقية منشآته الأصلية اليوم من العصر المملوكي فهو خان الزراكشة وهو خان صغير الحجم دقيق التصميم، أنشئ في القرن الخامس عشر الميلادي ملاصقًا للجامع الأزهر الشريف ولا يعرف بالتحديد من هو منشئه الأصلي، ويذكر بعض المؤرخين أنه من أوقاف السلطان الغوري، بينما يقول البعض الآخر إنه أنشئ في عصر السلطان قايتباي لتشابهه مع عمارة منشآت هذا العصر، وقد ضم الأمير محمد بك أبو الذهب - أحد مماليك علي بك الكبير الذي تولى إمارة مصر بعد مقتله (1763م) - هذا الخان لمجموعته، وقد اكتسب الخان اسمه (خان الزراكشة) نسبة إلى نقش وزركشة المعادن لأنه كان مقرًّا لزراكشة أي حرفيي هذه الصناعة.

القياسر مصطلح غير عربي وهو مشتق من اسم قيصر أو قيصرية وهذا المصطلح يعني سوقًا صغيرة مخصصة لبيع سلعة معينة، وقد وجدت القياسر في مصر منذ العصر الأموي كما يذكر ابن عبدالحكم في كتابه (فتوح مصر وأخبارها) أن الخليفة الأموي هشام بن عبدالملك شيد قيسارية عرفت باسمه كان يباع بها الحرير الفسطاطي، وفي العصر الطولوني أنشأ محمد بن طغج الإخشيدي (941م) قيسارية لبيع المنسوجات، ويذكر المقريزي أن عدد قيساريات القاهرة في القرن الخامس عشر الميلادي بلغ تسعًا وعشرين قيسارية.

كان طوائف التجار في العصر العثماني مثل أي طائفة من الحرف فكل سوق يرأسه شيخ عارف بدقائق الصنعة ويرأس هيئة التجار عادة أغناهم ويعرف باسم الشاة بندر ومهامه أن يباشر كل التجار وأرباب الحرف ويفصل بينهم في منازعاتهم.

الحياة داخل التاريخ لها مذاق خاص، ما أجمل التجول بين أرجاء هذا العالم الساحر المفعم بالحياة الذي يبعث ملامح الماضي حية في خيالنا فنجوب بين دروبه وأزقته فتطالعنا الوكالات والخانات والقياسر والبضائع النفيسة والألوان الزاهية فتبهرنا وتمتعنا.

خوند بركــة أم السلطــان

يمر الزمان وتمضي الأيام ولكن تبقى قصة أم السلطان ماثلة في الأذهان تمتزج فيها المشاعر الجميلة مع سطوة السلطة، بطلة الأحداث امرأة من أقوى وأدهى نساء عصرها، لمع بين سطور التاريخ اسمها، امرأة ذات نفوذ وجمال خضعت لها أعناق الرجال، تصدت لأطماع الأمراء لتحمي عرش ابنها الصغير الأشرف شعبان، هي خوند بركة التي اشتهرت في كتب التاريخ باسم أم السلطان، وأسهب المؤرخون في وصف حب السلطان المملوكي شعبان لأمه؛ حب بلا حدود، عطاء بلا تردد، وتضحية بلا مقابل.

تمتعت المرأة بقسط وافر من الإجلال والتقدير في العصر المملوكي واتسمت بعض نساء هذا العصر بنفوذ عظيم إلى حد يسترعي الانتباه، وكانت أول هذه الأمثلة شجر الدر الجارية التي جلست على عرش مصر وحكمت ثمانين يومًا بقوة وذكاء وافر، ووصفها المؤرخون بأنها كانت صعبة الخلق، قوية البأس، استطاعت أن تدير شئون البلاد باقتدار في فترة من أحلك فترات التاريخ المصري بعد وفاة زوجها الملك الصالح نجم الدين أيوب. وقد أثار نفوذ النساء الشديد في العصر المملوكي بعض الفقهاء وعلى رأسهم شيخ الإسلام ابن تيمية الذي كتب محذرًا: «أكثر ما يفسد الملك والدول طاعة النساء».

ونعود لخوند بركة، شخصية جديرة بالتأمل، امرأة حسناء؛ جليلة الطلعة يعلو وجهها هيبة، وهي إحدى زوجات السلطان المملوكي الناصر محمد ابن قلاوون، أنجبت له قرة عينها الأمير شعبان، كانت خوند بركة امرأة رائعة الشخصية، قوية الشكيمة، واسعة الطموح، تصدت للفتن التي تهدد عرش ابنها السلطان الصغير وواجهت صراعات شديدة للمحافظة على ملك ابنها وهي راسخة لا تتزعزع، ولم يسكن خاطرها إلا بعد أن تخطى ابنها مرحلة الطفولة وصار شابًا يافعًا حسن الخلق والخلق وبدوره كان السلطان شعبان يحبها، لا يعصي لها أمرًا ولا يبت برأي إلا بعد مباركتها، واعتاد مشاورتها في سائر الأمور. ويذكر المقريزي عن خوند بركة: «أنها امرأة خيرة عفيفة لها بر كثير ومعروف معروف». وقد أسهب المؤرخون في مدح أخلاق الملك الأشرف شعبان الكريمة وشمائله الطيبة كسلطان شجاع، حسن التدبير، متسامح، عادل، كثير البر، قرب منه أهل العلم فنال حب الناس، ومن المأثور عنه أنه طلب من الأشراف في مصر والشام تمييز عمائمهم بعلامة خضراء تعظيمًا لقدرهم.

تولى الملك الأشرف أبو المعالي زين الدين شعبان بن الملك الناصر محمد بن قلاوون عرش مصر (1363م)، وقد بويع بالسلطنة بعد أن خلع الأتابكي يلبغا العمري ابن عمه المنصور وجلس الأشرف شعبان على العرش وله من العمر اثنا عشر عامًا، فرفع مكانة الأتابكي يلبغا العمري ونصبه أميرًا كبيرًا وعين الأمير قشتمر المنصوري نائبًا عن السلطنة. ولم يكن للأشرف شعبان من أمور السلطنة والملك سوى الاسم فقط وصار يلبغا العمري هو الرجل الأول في الدولة وجمع في يده مقاليد الأمور وأصبحت كلمته نافذة وتعدى عدد مماليكه ثلاثة آلاف مملوك، ولكنه كان سيئ الخلق سفاكا للدماء، قتل كثيرًا من الخلق بدون ذنب يذكر، ويروى عنه أنه سخط ذات يوم على أحد مماليكه فأمر بضربه ستمائة عصا وسط القصر الكبير عقابًا له، وكان يترك العنان لأمرائه ليجوروا على الناس بالأذى فغضب عليه المماليك وكرهه العامة. وبعد أن شب السلطان الصغير عن الطوق تمرد على الأمراء، وصار صاحب السلطة الفعلية يحكم بدون الرجوع إلى أمراء المشورة، تؤازره أمه. فاشتد غضب أمراء المماليك وأضمروا له العداء وحاكوا له العديد من المكائد والمؤامرات في الخفاء ولكن كلها باءت بالفشل. وفي عام (1367م) قام بعض أمراء المماليك بانقلاب عظيم وقتلوا يلبغا العمري بعد أن حرضوا عليه حراسه في قصره وكانت فتنة هائلة تم القبض فيها على الكثير من الأمراء منهم أمير يدعى الجاي بن عبدالله اليوسفي وتم احتجازهم في سجن الإسكندرية. ولما هدأت الأوضاع واستقرت

الأمور افرج السلطان شعبان عن الجاي اليوسفي وقربه إليه واعطاه إمرة مائة مملوك وتقدمة ألف، ثم رقاه وقلده أعلى المناصب في الدولة فصار أمير سلاح براني ثم أتابكا للعسكر وناظرًا للمارستان المنصوري وأخيرًا نائبًا للسلطنة.

لقد ابتسمت الدنيا للجاي اليوسفي وفتحت له أبوابها على مصراعيها؛ فقد نجا من غياهب السجن وتقلد أعلى المناصب في الدولة وصار من أقرب المقربين للسلطان ووالدته التي افتتن بجمالها وبقوة شخصيتها. ولكن في حقيقة أمره كان الجاي اليوسفي أميرًا جبارًا عسوفا محبًا للسلطة ذا أطماع كبيرة فأخذ في التقرب من أم السلطان التي لمس قوة نفوذها وأظهر لها وجهًا زائفا حتى استطاع أن يكتسب ثقتها وإعجابها، كما تقرب من الملك الشاب بمكر ودهاء وأظهر له الولاء والإخلاص الشديد حتى وثق به، فتقدم للزواج من أمه خوند بركة التي رأت فيه سندًا قويًا وتم الزواج وأصبحت كلمة الجاي اليوسفي نافذة وعظم قدره واشتهر ذكره، وقد أخذت ألسنة العامة تلوك بسيرة أم السلطان على هذه الزيجة التي لم يرض عنها الناس.

أما أشهر ما قامت به خوند بركة هي رحلة الحج في عام (1370م) فخرجت من القاهرة في موكب عظيم وهي تركب محفة مزركشة والأمراء ملتفون حولها، وقد اصطحبت معها مائة بعير محملة بالبضائع المختلفة وبسلال تحوي سائر أنواع البقول والخضراوات التي ستستخدم خلال الرحلة الطويلة، وقد حج معها الأمير بشتاك العمري رأس نوبة النوب وبهادر الجمالي ومائتا مملوك من المماليك السلطانية، وقد منحت الكثير من الصدقات في طريقها وقامت بكثير من وجوه البر وتحدث الناس عن حجتها لسنوات عديدة، وعُرف ذلك العام بعام أم السلطان. وعند عودتها خرج السلطان شعبان لملاقاتها واستقبلها بترحاب شديد وكان يومًا مشهودًا أقيمت فيه الاحتفالات على طول الطريق حتى صعدت إلى القلعة. وفي عام (1373م) تعرضت مصر لشدة عظيمة ولم يوف النيل بمنسوب مياهه فجفت الأراضي وساد القحط الشديد وحدثت مجاعة مروعة وارتفعت أسعار الغلال والبضائع حتى بلغ سعر رغيف الخبز أربعة دراهم، والبيض عشرة دراهم لكل واحدة، وراوية الماء خمسة دراهم، والبطيخة مائة درهم، وماتت الدواب جوعًا، حتى اضطر العامة أن يأكلوا القطط والكلاب. وخرج الناس في جماعات لأداء صلاة الاستسقاء ليرفع الله عز وجل البلاء، واتخذ السلطان شعبان موقفا إنسانيًا رائعًا فقد أمر بأن يتولى كل تاجر وكل أمير أمر فقير من الفقراء يكون ملزومًا بإطعامه رغيفين كل يوم وما شابه ذلك من الطعام كما يقول ابن إياس، واستمرت هذه المجاعة قرابة العام. وقد اعتل جسد أم السلطان ومرضت مرضًا شديدًا في عام المجاعة وتوفيت (1373م) وحزن عليها الناس لما كانت تفعله من وجوه البر ودفنت بقبتها بالمدرسة، ووجد السلطان على فقدها وجدًا كبيرًا.

وقد أنشأت خوند بركة الكثير من المنشآت المعمارية، منها مدرسة تدرس المذاهب الأربعة وألحقت بها ضريحين تعلوهما قبتان وسبيل وكتاب وحوضًا للدواب وشيدت ربعًا ينسب إليها فكان يطلق عليه ربع أم السلطان. ويستدل من جميع الكتابات التاريخية الموجودة بالمدرسة على أن السلطان شعبان هو الذي أنشأ هذا المبنى لوالدته (1368م) غير أن المقريزي وعددًا من المؤرخين ينسبون إنشاءه إلى خوند بركة وقد تعارف الناس على تسميته باسم مسجد أم السلطان. تقع مدرسة أم السلطان شعبان بشارع باب الوزير، وقد أقيمت على نظام المدارس ذات التخطيط المتعامد إذ تتكون من صحن مكشوف تحيط به أربعة إيوانات، ويكتنف إيوان القبلة من الجانبين قبتان متماثلتان البحرية منهما أكبر قليلا من القبلية وبها محراب به بقايا كسوة رخامية ومقبرة مدفون بها خوند بركة أم السلطان وأخته خوند زهرة ومدفون بالقبة القبلية السلطان شعبان. وقد أمرت خوند بركة بكتابة مصحف تم تدوينه بالخط النسخ وزين بالذهب واللازورد (1373م) وتم وضعه بمدرستها ولا يزال باقيًا حتى اليوم بدار الكتب ويُعد من المخطوطات القيمة.

وتوالت الأحداث فبعد وفاة زوجته خوند بركة بدأ تمرد الجاي اليوسفي الذي أعلن العصيان وسقط القناع الزائف الذي كان يختبئ وراءه وظهرت حقيقته جلية، فجمع حوله مجموعة من

المماليك وخرج لمحاربة السلطان للحصول على ميراث زوجته، وقرر السلطان مواجهته فاصطحب جميع الجنود والأمراء إلى الرميلة ودار قتال عنيف بين الطرفين وهزم الجاي هزيمة منكرة ففر إلى جهة بركة الحبش وصعد من عند الجبل الأحمر إلى قبة النصر، فبعث إليه السلطان يعقد معه هدنة إكرامًا لذكرى والدته وطلب منه أن يكون نائبًا لحماة فأبى الجاي وقال: «لا أتوجه إلا ومعي مماليكي كلهم وجميع أموالي» فرفض السلطان واستمر القتال وهرب الجاي نحو شبرا وولى منهزمًا عند النيل قريبًا من قليوب وقد أدركه العسكر فألقى بنفسه وهو ممتطيًا فرسه في النيل يريد النجاة إلى البر الغربي، ومما يثير العجب أن الفرس خرج سالمًا من بر إنبابة عند الوراق بعد أن سبح للشاطئ، وهلك الجاي اليوسفي ومات غرقا وماتت معه أطماعه، يفصلنا عن الجاي اليوسفي حوالي سبعة قرون ولكن تتشابه سيرته مع كثير ممن يعشقون السلطة فيكشف الزمان زيف بواطنهم. وذهب الغطاسون فأخرجوا جثمانه ودفن في مدرسته المسماة باسمه التي أنشأها في الدرب الأحمر (1373م) وتقع بشارع سوق السلاح وتعد من أروع الآثار الإسلامية لاحتوائها على الكثير من العناصر المعمارية المتميزة مثل أبوابها العملاقة وساحتها الداخلية الكبيرة. وقد أطلق الناس على هذا الجامع اسم جامع السايس والسبب في ذلك يعود للسايس الذي كان يرعى فرس السلطان حسن، ويقال إنه دفن أسفل المسجد في مكان مجهول.

وشارع سوق السلاح الذي يقع به جامع السايس لا يزال يحتفظ باسمه الذي اكتسبه من حرفة سكانه منذ أكثر من خمسة قرون، وهو يقع في منطقة الدرب الأحمر التي تعتبر من أكثر مناطق القاهرة التاريخية حيوية، وكان يطلق على الشارع في بداية نشأته سويقة العزي نسبة إلى الأمير عز الدين بهادر أحد أمراء المماليك البحرية الذي كان يقطن به، وبمرور الوقت تغير الاسم وصار الناس يطلقون على الشارع اسم سوق السلاح لوجود ورش تصنيع السلاح بداخله. ويضم الشارع العديد من المباني الأثرية التي تعود إلى حقب زمنية مختلفة، ويُعد السير بداخله اليوم متعة تبعث سحر العصور القديمة حيًّا. وأول ما يقابل المرء في سوق السلاح البوابة الجميلة التي شيدها الأمير المملوكي منجك السلحدار (1347م) كمدخل رئيسي للشارع وتحتوي على رسومات لسيوف ودروع توضح وظيفة الشارع، يليها مدرسة الجاي اليوسفي، وجامع قطلبغا الذهبي الذي أنشئ في منتصف العصر المملوكي، ومن أروع ما يضم الشارع حمام الأمير المملوكي بشتاك الذي يُعد من أشهر وأروع الحمامات العامة في مصر، أنشأه الأمير سيف الدين بشتاك الناصري (1341م)، وهناك أيضًا سبيل رقية دودو بنت بدوية شاهين بنت الأمير رضوان بك الذي يضم مشغولات نحاسية رائعة الجمال، ومع مرور الزمان اندثرت مهنة سكان الشارع وتحولت ورشهم إلى دكاكين لإصلاح الأسلحة ثم اندثرت من الوجود ولم يبق منها سوى اسمها.

وللأسف كانت نهاية السلطان شعبان مؤلمة فقد توالت الأحداث حين ذهب لأداء فريضة الحج فتآمر عليه عدد من الأمراء وتمكنوا من محاصرته في مضيق العقبة عند عودته فقتلوا حاشيته أما هو فلم يقفوا له على أثر وظنوا أنه قد قتل مع من قتل. وعاد المماليك إلى القاهرة وأخبروا الخليفة العباسي المتوكل على الله أن عرش مصر صار شاغرًا بعد وفاة السلطان، ولكن تبين للأمراء أن الملك الأشرف لم يقتل في هجومهم عليه في العقبة وأنه مختبئ عند أحد الأمراء المقربين إليه في القاهرة فأسرع المماليك وهجموا على ذلك البيت وقتلوا الأشرف شعبان خنقًا (1376م) قبل أن يغيثه مماليكه وألقوا بجثمانه في بئر مهجورة. ولما علم الناس بوفاة الأشرف شعبان اشتد حزنهم عليه ورثاه الشعراء وكان آخر سلاطين بني قلاوون العظماء. وتوفي الأشرف شعبان بعد أن حكم لمدة أربعة عشر عامًا (1377م) ودفن بالقبة القبلية بالمسجد بجوار والدته، رحل السلطان ولكن ترك ذكرى طيبة في وجدان الناس فكان السلطان العادل الذي حظي بحب رعاياه والابن البار الذي أكرم والدته والإنسان الرحيم الودود الذي أحبه الناس.

السلطـــان قايتبـاي

عاشــق العمــارة

تغمر الشمس الخلاء الفسيح والصحراء اللامتناهية الممتدة في قرافة المماليك الشرقية بعيدًا عن إيقاع الحياة الصاخب بالقاهرة، يمعن الزائر النظر في المسجد العتيق بألوانه النابضة بالحيوية التي يشع منها سحر وإشراق، فتشكل لوحة غنية تبرز مهارة الفن المصري وعظمة التراث الإسلامي، جامع ومدرسة قايتباي، أحد أجمل المساجد المملوكية، آية من الجمال النادر التي تبرز روعة فن العمارة في العصر المملوكي، يجمع المسجد بين دقة البناء وجمال التصميم وروعة الزخرفة، ويتميز بالتناسق الفريد بين عناصره المعمارية، تكاد الحياة تسري في الحجارة والنقوش، ويوشك إيقاع الزمان أن يتوقف ونحن نتأمل ما ترك لنا أجدادنا من كنوز فنية تجلو روعة وإبداع الفن المملوكي.

في النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي، بدأ سلاطين المماليك وأمراؤهم في إنشاء المساجد والخوانق بالقرافة الشرقية وألحقوا بها مدافن لهم، وقد عرفت هذه المنطقة باسم مقابر الخلفاء ثم صار يطلق عليها مقابر المماليك. ومع نهاية القرن الخامس عشر الميلادي ضمت المقابر الشرقية مجموعة ضخمة من الأضرحة تجلت فيها روعة فن العمارة المملوكية، فتضم هذه الجبانة أكثر من سبعين منشأة وعشرين قبة لدفن سلاطين وأمراء المماليك، من أهمها مسجد ومدفن وخانقاه السلطان فرج بن برقوق، قبة الأمير جاني بك الأشرفي، قبة الأمير قرقماس، مسجد وخانقاه السلطان الأشرف بارسباي، تكية أحمد أبو سيف، ربع ومسجد السلطان قايتباي.

منشئ هذا المسجد هو السلطان المملوكي الأشرف أبو النصر قايتباي أحد المماليك الجراكسة (1479م)، سُبِيَ الأشرف قايتباي وهو صغير وباعه تاجر يدعى محمود بن رستم (1435م) إلى الملك الأشرف برسباي ثم انتقل إلى مماليك الملك الظاهر أبو سعيد جقمق الذي أعتقه، وتقلب قايتباي في الوظائف إلى أن تولى عرش مصر (1468م) وكانت مدة حكمه البالغة ثمانية عشر عامًا حافلة بالحروب فأنفق أموالاً عظيمة على تجهيز الجيوش، وتعرضت البلاد للعديد من الأخطار الخارجية أشدها الخطر العثماني. ازدهرت العمارة الإسلامية في عهد قايتباي ازدهارًا عظيمًا وتنوعت عمائره وينسب إليه ما يزيد على سبعين منشأة ما بين تشييد أو تجديد، وقد اهتم قايتباي بالأبنية الحربية بوجه خاص فبنى قلعة بالإسكندرية وقلعة أخرى برشيد، كما أقام المنازل والوكالات والأسبلة وأحواض سقي الدواب، وشيد ثلاثة مساجد بالقاهرة الأول بالروضة والثاني بقلعة الكبش بالإضافة إلى المسجد الذي خلد اسمه بقرافة المماليك التي صار يطلق عليها قرافة قايتباي لكثرة منشآته بها، كما اهتم بترميم وتجديد الكثير من المباني القديمة، وامتازت منشآت قايتباي بتناسب أجزائها ووفرة زخارفها وبلوغها درجة عالية من الدقة والإتقان.

وتعتبر مجموعة قايتباي بالقرافة الشرقية من أجمل المجموعات المعمارية في مصر الإسلامية؛ فهي تتفرد بجمال زخارفها وتناسق عناصرها المعمارية ودقة صناعتها ونسبها، تتكون المجموعة من مدرسة ومسجد وسبيل وكتاب وضريح ومئذنة، أنشأ السلطان قايتباي مسجده الذي يُعد علمًا من أعلام قرافة المماليك (1474م) بعد عامين من توليه الحكم ويقول ابن إياس: «شرع قايتباي بعمارة تربته التي أنشأها في الصحراء وجعل بها جامعًا بخطبة، وقرر به صوفة وحضورًا بعد العصر، وأنشأ هناك عدة خلاوٍ برسم الصوفة وحوضًا وصهريجًا وأشياء كثيرة من وجوه البر والمعروف». وقد أنشئ هذا المسجد على نظام المدارس ذات التخطيط المتعامد فهو يتكون من صحن مسقوف يحيط به أربعة إيوانات متقابلة أكبرها إيوان القبلة، ويعلو سقفه شخشيخة تضفي ضوءًا على المسجد، وتعتبر مئذنته من أجمل المآذن المملوكية من حيث تناسب أجزائها وروعة زخارفها، وتعكس الشبابيك ذات الزجاج الملون بهجة على المكان، ويوجد بجوار إيوان الصلاة الضريح الذي يبرز عن الواجهة الجانبية ومغطى من أعلاه بقبة حجرية محمولة على مقرنصات مزخرفة من الخارج ومن الداخل بزخارف نباتية محفورة على الحجر

وهي تعتبر من اجمل القباب المملوكية. السقف مزخرف بنقوش مذهبة متجانسة الالوان، اما المحراب فمحلى بطاقية تشتمل علي تلابيس من الحجر الأحمر على هيئة شرفات بجوارها منبر خشبي مزخرف بأشكال هندسية بديعة ويضم حشوات من السن المحفور بزخارف دقيقة تكاد تنطق من رقة صناعتها، ومنقوش على الجدران لوحات من الرخام تضم مستطيلات ومربعات وقد كسيت أرضية المسجد بالرخام الملون ذي الأشكال المتداخلة المزخرفة بعناية شديدة. واجهة المدخل بسيطة ويتم الوصول إليها بعد صعود أربع عشرة درجة، وسقف المدخل خشبي مزخرف بالنجوم الملونة، ومحفور على جانبي بوابته رنك السلطان قايتباي أي شارته أو شعاره (السلطان الأشرف أبو النصر قايتباي عز نصره) وهو منقوش أيضًا على جدران المسجد، وقد وضع مصممو النقود في القرن الماضي صورة هذا المسجد على الأوراق المالية من فئة مائة الجنيه.

تلاشت ملامح الزمان الجميل، ورحل عاشق العمارة السلطان قايتباي، كما رحل معه موكبه المهيب وقصوره الفخمة، ولكنه ترك لنا منشآته التي ستظل شاهدة على عظمة العصر المملوكي.



الرنـــوك السلطـــانيـــة

تصل لنا من عمق التاريخ رسوم ملونة وكلمات منمقة تطالعنا من فوق جدران المتاحف والعمائر القديمة. ننظر أمامنا فنلمح الأسد يتربص لنا بشراسة، ونلتفت فنرى النسر يحدق بنا ناشرًا جناحيه، ويلمع في وجهنا السيف المشهور للأعداء مهددًا، وتغرينا الكأس المملوءة بالشراب حتى نكاد أن نجذبها، وتداعب خيالنا العبارات التي تنطق بالرفعة والعظمة مثل (عز مولانا السلطان) ، (عز نصره)، (الملك المظفر)، (ناصر الدنيا والدين). ولو تعمقنا بين ثنايا التاريخ لنفك شفرة هذه الرموز سنجد أنها تسمى الرنوك وهي شارات شخصية اتخذها سلاطين وأمراء المماليك رمزًا لهم لتدلل على مكانتهم الاجتماعية المميزة ووظائفهم المرموقة.

والرنك كلمة فارسية تعني اللون؛ لأن الألوان كانت تلعب دورًا مهمًا في شكل هذه الشارات وتستخدم للتمييز بينها، وقد نقش المماليك هذه الرنـــوك التي تـأتي على شكل رسومـــات لطيـــور أو حيوانـــات أو أدوات كالسيف والبقجة والدواة على منازلهم ومساجدهم ومدارسهم وأضرحتهم وسائر عمائرهم، كما نقشوها على أدواتهم المختلفة للدلالة على ملكيتهم لها، وصكت أيضًا على عملات السلاطين كشرف وامتياز. وقد اتخذ السلاطين والأمراء هذه الرنوك كشارات منذ بداية العصر الأيوبي واستمر نظام الرنوك سائدًا طوال العصر المملوكي وانتهى مع انتهاء هذا العصر وبداية العصر العثماني.

عرفت الرنوك منذ العصر الأيوبي واستخدمت للدلالة على وظائف الأمراء المختلفة، ثم أصبحت رمزًا للفرق العسكرية، وكانت الرنوك تمنح كحق امتياز وشرف حربي للسلاطين والأمراء فقط. وقد ظهر نوعان من هذه الرنوك في العصر الأيوبي؛ رنوك تعبر عن الشجاعة وهي خاصة بالسلاطين مثل رنك النسر رمز الناصر صلاح الدين الأيوبي الذي نقش على قلعة الجبل، أما النوع الثاني فكان يرمز إلى الوظائف المختلفة التي تقلدها الأمراء مثل الدواة للكاتب والقلم للسلحدار الذي يشغل وظيفة حامل السلاح، والبقجة للجمدار الذي يشغل وظيفة المشرف على ملابس السلطان، والطست للطشدار الذي يشغل وظيفة المشرف على مخازن السلطان، والمائدة المستديرة للجاشنكير الذي يتولى وظيفة ذواقة طعام السلطان، وقوس رمي السهام للبندقدار أي حامل سلاح السلطان، وحدوة الفرس للأمير الأكبر قائد الجيوش، وتبقى هذه الرنوك ملازمة لأصحابها حتى ولو تغيرت وظائفهم فيضاف شارة الوظيفة الثانية بجوار شارة الوظيفة الأولى.

وفي العصر المملوكي تعددت أنواع الرنوك ولعبت دورًا مهمًا لما تميز به هذا العصر من ثراء ورفاهية انعكست على شكل وأهمية هذه الرنوك، فكانت في أول الأمر تنقش بدون دوائر ثم صارت تحاط بمناطق دائرية أو بيضاوية الشكل، ويتألف الرنك عادة من لون واحد أو أكثر من لون، وقد ينقسم الرنك إلى قسم واحد أو قسمين أو ثلاثة أقسام أفقية أكبرها عادة المنطقة الوسطى ويسمى كل منها شطبًا، وقد وصل لنا من الرنوك الخاصة بسلاطين وأمراء المماليك حوالي خمسين رنكًا.

كان يتم جلب المماليك كرقيق أبيض من سائر البلدان ويدرسون العلوم الدينية والحربية في الطباق، وقد اهتم سلاطين المماليك بتربية مماليكهم وبعد إنهاء دراستهم يعتقون ويمنحون إقطاعًا زراعيًا ويبدءون في التدرج الوظيفي وينتقل المملوك من رتبة إلى أخرى حتى يحالف أحدهم الحظ فيحظى بكرسي السلطنة.

وقد جرى العرف على تقسيم أمراء المماليك إلى طبقات ذات مراتب عسكرية مختلفة عينت لها وظائف مرتبطة بها ويتم تحديد إقطاعات تخصص للمماليك ويأتي على رأسهم طبقة «أمراء

المئين مقدمو الالوف» التي تمثل اعلى طبقات الإمارة بالجيش المملوكي، وعدة الواحد منهم تتألف من مائة فارس، وهناك طبقة أمراء العشرات الذين عرفوا في المصادر المملوكية باسم أحاد العشرات، وتبلغ عدة كل منهم عشرة فرسان، أما طبقة أمراء الخمسات فيتبع كل منهم خمسة فرسان. وكان أمراء المماليك المقربون للسلطان يتقلدون الوظائف الكبرى في البلاط السلطاني مثل نائب السلطنة، أتابك العسكر أي قائد الجيوش، أمير سلاح كبير، رأس نوبة النوب، ويتخذ كل منهم رنكا ليدل على وظيفته.

اختصت الرنوك بالملوك والأمراء، وكان هناك أنواع كثيرة من هذه الرنوك، فهناك الرنوك المصورة التي ترمز إلى صفات الشجاعة والقوة مثل الأسد والنسر ويختص بها السلاطين لتضفي عليهم هيبة ووقارًا، وقد اتخذ الظاهر بيبرس البندقداري الأسد رمزًا له ووصل لنا من عهده ما يقرب من ثمانين سبعًا نقشت على عمائره المختلفة التي شيدت في كل من مصر والشام، وعلى أسوار قلعة الجبل، كما اتخذ السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون النسر الذي يلتفت للجنب شعارًا له.

وهناك الرنوك الكتابية التي أطلق عليها اسم الدروع أو الخراطيش وانفرد بها السلاطين دون الأمراء، وكانت تُسجل أسماؤهم وألقابهم مصحوبة ببعض العبارات الدعائية، وتدون عادة بالخط الثلث أو بالخط النسخ منها رنك السلطان حسن المقسم إلى ثلاثة أقسام أولها (عز مولانا السلطان) وفي الوسط (ناصر الدنيا والدين حسن) وفي القسم السفلي (عز نصره). ونجد هذه العبارات منقوشة بكثرة على التحف والعمائر المملوكية والمنسوجات لتضفي على السلاطين عزًا ورفعة وتدلل على مكانتهم العالية في النفوس.

ولكل وظيفة من الوظائف التي يتقلدها أمراء المماليك رنكًا خاصًا بها، فكان هناك رنوك بسيطة تحتوي على علامة واحدة تشير إلى وظيفة الأمير مثل رنك الدواة والقلم الذي يرمز إلى وظيفة الكاتب وهو ما يعرف بالدوادار ويتألف الاسم من شقين: دواة وهي كلمة عربية تعني مكان حفظ المداد: الأول ودار وتعني حامل الدواة للسلطان، وهناك رنك الكأس الذي يرمز إلى الساقي أو ما يعرف باسم الشراب دار وهي كلمة مكونة من مقطعين: الأول: شراب والثاني: دار أي حامل الشراب ولم تكن وظيفته تقتصر على سقاية الشراب فقط بل كانت تتضمن أيضًا مد الأسمطة والموائد السلطانية، وهناك عصا البولو شعار الجوكندار، والقوس شعار البندقدار، والبقجة شعار الجمدار، والسيف شعار السلحدار، والخونجة أي الترابيزة شعار الجاشنكير.

وهناك رنوك مركبة كانت تحتوي على أكثر من علامة لتشير لأكثر من وظيفة لنفس الشخص أو لترمز إلى جماعة المماليك والفرق العسكرية المختلفة التي تنتمي إليها السلاطين كالظاهرية نسبة إلى الظاهر بيبرس البندقداري والأشرفية نسبة إلى الأشرف خليل بن قلاوون والمؤيدية نسبة إلى المؤيد شيخ، وتحتوي على عدد كبير من العلامات قد يصل إلى تسع علامات، ومن أمثلة هذه الرنوك رنك الأمير قانباي الجركسي مملوك السلطان المؤيد شيخ، وهو يظهر على رقبة مشكاة محفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة ويتألف من ثلاثة أقسام أو شطوب فيحتوي القسم العلوي على رسم السيف الذي يرمز إلى إحدى وظائفه عندما كان أمير سلحدار، أما القسم الأوسط فيتكون من دواة ترمز إلى إحدى الوظائف التي شغلها حيث شغل منصب كبير دوادار السلطان شعبان، أما القسم الأسفل فيمثل كأسًا حيث شغل منصب ساقي السلطان.

وقد لعبت الرنوك دورًا مهمًا في العصر المملوكي بأنواعها الثلاثة البسيطة والمركبة والكتابية والرنوك الشخصية والرنوك الوظيفية، وقد استخدمت الرنوك في أوائل الفتح العثماني ويذكر ابن إياس أن رنك السلطان سليم الأول ضرب على سائر البيوت ثم اختفت الرنوك مع تدهور الصناعات في مصر في بداية العصر العثماني بعد أن نقل السلطان العثماني سليم الأول معظم الصناع والحرفيين والعمال المهرة والبنائين والفنانين لإستانبول لكي ينقلوا صناعاتهم المتميزة

إلى العاصمة العثمانية، واخذ معه كل ما استطاع حمله من اثاث وتحف نادرة حتى إنه نزع رخام القلعة ورخام المدارس والبيوت وأخذ كل خزائن الكتب والمخطوطات النادرة التي لا يوجد لها مثيل في العالم.

وفي العصر المملوكي استحدث المماليك تقليدًا جديدًا فعند تولي أحد المماليك الإمارة ينزل من قلعة الجبل وعليه التشريفة والشربوش ويسير في موكب كبير إلى المدرسة الصالحية بين القصرين عند قبة الصالح نجم الدين أيوب الذي يعترف المماليك بفضله عليهم لأنه جلب أعدادًا كبيرة منهم إلى مصر حيث يؤدي المملوك القسم، وبعد الاحتفال يمد سماط سلطاني لخاصكية السلطان ثم يخرج الأمير الجديد في موكب من القبة الصالحية متجهًا نحو قلعة الجبل. وقد بدل سلاطين أسرة قلاوون هذا التقليد فنقلوا الاحتفال إلى المجمع القلاووني الذي شيده السلطان المنصور قلاوون على يد الأمير سنجر الشجاعي أمام المدرسة الصالحية. وجرت العادة عند تأمير المماليك أن يُعطى كل منهم رنكًا أو شعارًا يشير إلى وظيفته وينقشه على داره أو قصره وعلى المسجد أو المدرسة أو الحمام الذي يشيده وعلى القبة التي يدفن بها، وعلى العملات الذهبية والفضية إذا تقلد كرسي السلطنة. وعند غضب السلاطين على أحد المماليك كان العقاب يتم بإلقاء القبض على المملوك ومصادرة أملاكه، ويمحى رنكه من فوق عمائره ويسارع المالك الجديد بضرب رنكه فوق المبنى الذي آل إليه. ويروي المقريزي أنه بعد القبض على الأمير جمال الدين يوسف البجاسي وقتله (1409م) محا السلطان الناصر فرج بن برقوق اسمه ورنكه من فوق جدران مدرسته وكتب اسمه محله.

ويذكر المؤرخون أن بداية ظهور الرنوك واستخدامها بدأ عند المصريين القدماء وعند الحيثيين والإغريق والرومان، وقد وصلتنا بعض الشارات القديمة مثل نسور القياصر وإن كان معناها يختلف في العصور القديمة عن مدلولها في العصور الإسلامية لأنها في البداية كانت مجرد رموز تتصل بالديانات والعقائد. وقد عرفت الشعارات أيضًا عند المسلمين متمثلة في ألوان الألوية والرايات؛ فالبياض كان لون الرسول - صلى الله عليه وسلم - يوم فتح مكة (8هـ)، وكان أيضًا شعار الفاطميين في مصر، أما العباسيون فقد اتخذوا من اللون الأسود شعارًا لهم منذ أن لبسه أبو مسلم الخراساني في 747م وجعله لون لوائه. ولم تأخذ الرنوك معناها الوظيفي إلا في نهاية العصر الأيوبي ثم انتشرت انتشارًا واسعًا في العصر المملوكي وصار الرنك تقليدًا رسميًا يحافظ عليه ويعتز به.

كان المماليك يتساوون جميعًا في المرحلة الأولى من حياتهم حيث يتم جلبهم كرقيق من سائر البلدان ويدرسون العلوم الدينية والحربية في الطباق وهي ثكنات المماليك بقلعة الجبل. وقد اهتم سلاطين المماليك بتربية مماليكهم اهتمامًا بالغًا وصل إلى حد الإشراف الشخصي عليهم بداخل الطباق فكانوا يستدعون المماليك أمامهم ليقرءوا ما تعلموه، وكثيرًا ما ذهب السلاطين بصحبة كبار الأمراء إلى الطباق للقيام بزيارات مفاجئة لتفقد الأحوال، كما عينوا مؤدبين من الطواشي الخصيان للإشراف على تربية صغار المماليك، ويذكر المقريزي أن هؤلاء الطواشية في عهده كانوا ذوي حرمة وافرة وكلمة نافذة. ويذكر المؤرخ خليل بن شاهين الظاهري في كتابه (زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك) أن عدد طباق المماليك الشريفة السلطانية بلغ اثنتي عشرة طبقة، كل طبقة تضاهي الحارة وتساوي عدة مساكن يمكن السكن فيها حتى تصل في كل طبقة لألف مملوك، وتتسع لسكنى اثني عشر ألف مملوك. وترد في المصادر المملوكية أسماء ثماني عشرة طبقة هي: طبقة الرفرف، طبقة الزمام، طبقة الأشرفية، طبقة الطازية، طبقة الحوش، طبقة الغور، طبقة المقدم، طبقة الصندل، طبقة الخازندار، طبقة الميدان، طبقة المستجدة، طبقة القاعة، طبقة قداجا، طبقة الأربعين، طبقة الطواشي مرجان، طبقة فيروز الخازندار، طبقة الخروب وطبقة البرانية، وكانت كل طبقة تضم المماليك المجلوبين من بلد واحد، وقد اعتبر سلاطين المماليك مماليكهم العناصر التي تشكل الجيش المملوكي.

كم من ملوك وامراء تقلدوا هذه الشارات واعتزوا بها، ولكنها رحلت عن عالمنا وتوارت بين طيات الزمان مع سائر مفردات عالم المماليك المميزة وصارت اليوم ذكرى منقوشة على الجدران.



من أون إلى القاهــرة

تاريخ مصر طويل ممتد، عمرها هو عمر الحضارة الإنسانية، دونت تاريخها على كل ذرة رمل من أرضها، أقام المصريون على ضفاف النيل ليستمدوا منه الحياة، وعلى مدار ستة آلاف عام تغيرت عاصمة مصر خمسًا وعشرين مرة واتسمت كل عاصمة بشخصيتها المتفردة، كانت أون هي العاصمة الأولى منذ أكثر من أربعة آلاف عام، وتوالت العواصم على مر السنين حتى أنشأ القائد عمرو بن العاص الفسطاط، وأقام العباسيون العسكر، وشيد الأمير أحمد بن طولون القطائع، وأخيرًا بنى الفاطميون عاصمة مصر الأزلية القاهرة التي ضمت في جنباتها ملامح كل العصور.

مع الفتح الإسلامي لمصر (641م) أراد الصحابي الجليل عمرو بن العاص أن يتخذ من مدينة الإسكندرية التي كانت عاصمة لمصر الرومانية مقرًا لحكمه، وخصوصًا أن قصورها صارت خالية من أصحابها الذين فروا إلى بلاد الروم، ولكن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه رفض وكتب إليه قائلًا: «لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلًا تحول الماء بيني وبينهم شتاءً أو صيفا»، فامتثل عمرو للأمر وشيد عاصمته الجديدة في موقع متميز في السهل الواقع بين حصن بابليون وجبل المقطم قريبًا من رأس الدلتا ليشرف على جميع طرق الملاحة في فروع النهر القديمة وعلى جميع طرق القوافل في الصحراء. وأنشأ عمرو جامعه الخالد تاج الجوامع واختط من حوله سائر أحياء المدينة لتقيم بها القبائل التي وفدت معه، وظلت الفسطاط عاصمة لمصر لمدة مائة وعشرة أعوام. ويذكر بعض المؤرخين أن الفسطاط اكتسبت اسمها من خيمة عمرو التي أقامها في وسط معسكره عند إنشاء المدينة، ولما أراد الخروج لفتح مدينة الإسكندرية طلب من عماله أن يقوموا بفك خيمته فوجدوا أن يمامة قد بنت عشها فوق الخيمة فتفاءل عمرو بوجودها وأمر بإبقاء الفسطاط مكانه ورعاية اليمامة حتى يكبر صغارها ويكسو أجنحتها الريش.

وتُعد الفسطاط أول حاضرة لمصر الإسلامية ظلت مركزًا للسيادة طوال عصر الخلفاء الراشدين والدولة الأموية، وقد وصف المؤرخون الفسطاط بأنها مدينة ذات شوارع مرصوفة، منازلها فسيحة تتوسطها نوافير المياه والحدائق الداخلية، وكانت المساكن ترتفع بها إلى خمسة أدوار وربما سكن الدار الواحدة مائتان من السكان، كما ضمت المدينة الكثير من الحمامات العامة، وقد تعرضت الفسطاط للتخريب نتيجة لحريق شاور في نهاية العصر الفاطمي (1168م) الذي جعلها حطامًا وأطلالًا فهجرها أهلها.

ولما أفل نجم الأمويين وزالت دولتهم قامت الدولة العباسية على يد الخليفة أبي العباس الذي بعث القائد (أبو عون عبد الملك بن يزيد) كوالٍ على مصر، أنشأ أبو عون مدينة العسكر (750م) في مكان يطلق عليه الحمراء القصوى بجبل يشكر بالقرب من جبل المقطم شمال شرق مدينة الفسطاط لاستيعاب أعداد الجنود العظيمة التي أتت مع العباسيين، وصارت العسكر ثانية عواصم مصر الإسلامية حكم مصر منها خمسة وستون واليًا عباسيًا. كان جامع العسكر يتوسط المدينة وتحيط به دار الإمارة ودار العسكر ولم يبق من مدينة العسكر اليوم أي أثر يذكرنا بها.

ولما آل حكم مصر إلى القائد التركي أحمد بن طولون قام بتشييد عاصمة مصر الثالثة القطائع (870م) بعد أن قام بحركة انفصالية واستقل عن الدولة العباسية وشيد بها جامعه المشهور جامع أحمد بن طولون، وظلت القطائع عاصمة لمصر لمدة سبعة وثلاثين عامًا حتى زوال الدولة الطولونية فتعرضت المدينة للتخريب على يد العباسيين الذين أعادوا العسكر كمقر للحكم مرة أخرى. ويرجع اسم مدينة القطائع إلى نظام تخطيطها المتقاطع الذي نقله ابن طولون عن طراز مدينة سامراء في العراق مسقط رأسه التي نشأ وترعرع بين ربوعها ولم تفارق معالمها خياله فنقلها إلى مصر، وكان كل حي يضم جماعة من السكان تربطهم رابطة واحدة كحرفة محددة أو

طبقة واحدة ويطلق على كل حي اسم القطيعة. وتوسط المدينة مسجد أحمد بن طولون الذي يُعد من أكبر مساجد العالم الإسلامي وأروعها، تبلغ مساحته 2500 متر مربع واشتهر باسم الجامع المعلق إذ يصعد إلى أبوابه بدرجات دائرية الشكل. وقد ذكر بعض المؤرخين أن تصميم الجامع وضع بناء على رغبة ابن طولون ليكون مماثلا لتخطيط الكعبة المشرفة أما مئذنته فهي مشابهة لمئذنة جامع سامراء الملوية ذات السلالم الحلزونية الخارجية، وقد حل جامع ابن طولون محل جامع عمرو بن العاص كمركز للثقافة الإسلامية. كما أنشأ أحمد إبن طولون أول بيمارستان في مصر، وسمي قصره بملحقاته بالميدان، وقد ضم القصر أبوابًا متعددة، لكل باب اسم واستخدام معين، واشتهرت القطائع في عصر خمارويه بن أحمد بن طولون بمدينة الألف ليلة وليلة لما شيد فيها منشآت تفوق الوصف والخيال تحوي سائر مظاهر الترف والبذخ.

أنشئت القاهرة في العصر الفاطمي (969م) كمدينة ملكية ومقرًّا للخلفاء الفاطميين ورجال دولتهم، وبلغت مساحتها الكلية ثلاثمائة وأربعين فدانًا، ولم يكن مسموحًا للعامة بالإقامة بداخلها في بادئ الأمر، وكانت تشتمل على قصور الفاطميين الزاهرة ومساكن الأمراء ودواوين الحكومة وخزائن المال والسلاح، وأحاط القائد جوهر الصقلي المدينة بالأسوار الحصينة، وشيد الجامع الأزهر الشريف الذي تحول إلى أكبر جامعة إسلامية، وكان الأزهر بجانب مكانته العلمية مركزًا لقاضي القضاة وللمحتسب تعقد فيه المجالس السياسية والقضائية. أطلق جوهر الصقلي على العاصمة الجديدة في أول الأمر حاضرة الإسلام المنصورية نسبة إلى المنصور والد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله ولكن غيَّر المعز لدين الله هذا الاسم بعد وصوله إلى مصر وأطلق عليها القاهرة المعزية نسبة للنجم القاهر الذي بزغ في سمائها عند وضع حجر الأساس.

كان شارع القصبة شريان المدينة الرئيسي الذي نطلق عليه اليوم شارع المعز يخترق القاهرة من الشمال إلى الجنوب وينتهي شمالاً عند بابي النصر والفتوح؛ حيث تبدأ طرق القوافل الرئيسية، وينتهي شارع القصبة جنوبًا عند باب زويلة حيث يبدأ الطريق المؤدي إلى الفسطاط ومدن الوجه القبلي. وقد اخترقت مجموعة من الشوارع العرضية قلب المدينة من الشرق إلى الغرب، وكانت هناك مجموعة كبيرة من الحارات لكل منها مدخل يفتح على الشارع الرئيسي وباب يغلق في الليل ولا يدخلها إلا سكانها. وأقام القائد جوهر الصقلي أسوارًا من اللبن حول المدينة الجديدة لحمايتها وشيد ثمانية أبواب وجعل في كل ضلع من أضلاع السور بابين، ومع انتقال العمران إلى القاهرة أخذت الفسطاط في الزوال وهجرها سكانها لتعمير المدينة الجديدة. وظلت القاهرة منذ عهد الفاطميين حتى الوقت الحاضر عاصمة لمصر ولم يقتصر تخطيطها على الحدود التي خطها الفاطميون، بل ظلت تمتد شمالاً وغربًا وازدادت مساحتها عامًا بعد عام لتقابل الزيادة السكانية المستمرة.

وعندما قضى القائد صلاح الدين الأيوبي على الدولة الفاطمية وأنشأ الدولة الأيوبية، شرع بجمع العواصم الأربع السابقة ليتخذ منها عاصمة موحدة تتفق مع عظمة ملكه، فاحتوت القاهرة الأيوبية كافة ما سبقها من عواصم إسلامية وتألفت من الفسطاط، العسكر، القطائع، والقاهرة المعزية، وشرع الناصر صلاح الدين في بناء سور من الحجر يمتد من أثر النبي جنوبي الفسطاط وينتهي عند قلعة المقس يجمع بداخله العواصم الأربع التي كانت تقع فيما بين شاطئ النيل الشرقي وتلال جبل المقطم تلي الواحدة الأخرى، كما أنشأ الناصر صلاح الدين الأيوبي قلعة الجبل (1176م) فوق أعلى موقع من جبل المقطم لتكون حصنًا للمدينة وأقام بها حامية الجنود للتصدي لأي غارات خارجية، وبعد وفاة الناصر صلاح الدين الأيوبي أكمل بناء القلعة أخوه الملك العادل.

وفي العصر المملوكي تحررت القاهرة من أسوارها الفاطمية التي تلاشت وسط الأحياء فلم تعد مدينة محصنة، وبلغت القاهرة المملوكية أكبر نمو لها في سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثالثة وازدادت رقعتها وتركز هذا النمو في المنطقة الواقعة أسفل قلعة الجبل حيث شيد أمراء المماليك

العديد من الدور والقصور والمساجد الضخمة، وصارت القاهرة المملوكية حاضرة للعالم الإسلامي بأسره ومركزا لإمبراطورية شاسعة الأرجاء، ومنارًا للثقافة والعلوم الإسلامية.

وفي العصر العثماني امتد العمران بالقاهرة من جهة بولاق، وشيدت بها العديد من الجوامع والوكالات والحمامات العامة حتى بلغ عدد وكالاتها في نهاية العصر العثماني أكثر من خمس وستين وكالة وقيسارية وانفتحت المدينة نحو الغرب. ومع الاحتلال الفرنسي لمصر (1798م) حل الدمار على الكثير من الأحياء والمناطق أثناء ثورات العامة ضد الفرنسيين الذين هدموا أبواب الأحياء لأغراض أمنية واستخدموها للتدفئة، وهدموا المصاطب أمام الحوانيت لتسهيل المرور ومنع القاهريين من استخدامها في إقامة المتاريس.

على مدى أربعة عشر قرنًا توسعت أرجاء القاهرة وتضاعف عدد حاراتها ودروبها ومساجدها، وتمتد أطرافها اليوم على شاطئ النهر الخالد بأبراجها العالية التي مزجت بين العمارة الإسلامية والعمارة الحديثة، ويعلو الصخب في شوارعها المزدحمة التي لا تهدأ فيها حركة الحياة، وأحيائها التي ما زالت تحتفظ بطابعها القديم، تتجدد فيها مظاهر الحياة كل يوم، وتظهر وجهها الحقيقي المشرق فتستدعي في النفس الذكريات الجميلة وتحرك ذكرى الأيام المولية.



أربـــاب العمائـم

أهل العمائم يمثلون عقل الأمة ووجدانها وقد احتلوا مكانة عالية لدى الحكام والمحكومين على مر العصور، يختلف كل عصر في طبقاته وشرائحه الاجتماعية المتعددة التي تنقل لنا صورة حية عن طبيعة الحياة وهناك قوانين تنظم العلاقة بين الطبقات الاجتماعية المختلفة في المجتمع ليسود التوازن والاستقرار، كان البناء الطبقي في عصر سلاطين المماليك يتحدد في إطارين رئيسين هما السلطة والثروة، ومن الممكن الحراك بداخل الهرم الاجتماعي صعوداً أو هبوطاً للطبقة المحكومة، ولكن من المستحيل الانضمام للطبقة الحاكمة.

اتسمت الحياة في العصر الأيوبي بالصرامة الشديدة وسادت الروح العسكرية وغابت الرفاهية وقل الترف، وجاء على قمة الطبقات الاجتماعية السلاطين الذين تبوّءوا مكانتهم على ذروة هرم الدولة بما يملكونه من أجود الأراضي الزراعية، كما ضمت هذه الطبقة القواد العسكريين الذين تصدوا للأخطار الخارجية، وطبقة الأشراف بما نالوه من احترام وتبجيل من جميع فئات المجتمع لشرف انتسابهم للبيت النبوي الشريف، كما انتمى كبار العلماء والفقهاء لهذه الطبقة وتمتعوا بمكانة اجتماعية مميزة بين الفئات المختلفة وأدوا دورًا فكريًا وروحيًا رائدًا في تعبئة جهود العامة لمواجهة الخطر الصليبي بالإضافة إلى قربهم من السلاطين. أما الطبقة الوسطى فكانت تضم سائر العلماء والفقهاء والأدباء وكبار التجار والأطباء، وشملت طبقة العامة أرباب الحرف والصناعات والفلاحين والرقيق. وقد حُرمت هذه الشرائح من تقلد أي سلطة في الدولة ولكن نظر المجتمع إلى أرباب الحرف نظرة تقدير وإعزاز ويتضح ذلك بوضوح في الأمثال الشعبية التي عبرت عن نبض فئات الأمة ومعتقداتهم فقد أعطت هذه الأمثال أهمية كبيرة للعمل فقالوا «الإيد البطالة نجسة».

ويمكن تقسيم المجتمع القاهري في العصر المملوكي إلى طبقتين أساسيتين: الطبقة الحاكمة والطبقة المحكومة، فكان المماليك في إطار اجتماعي واحد كطبقة حاكمة متميزة تمتعت بالسلطة والثروة وتضم السلطان، وأمراء المماليك، والجند، أما طبقة العامة المحكومة فكانت تضم سائر فئات المجتمع من علماء وفقهاء وقضاة وتجار وأرباب الوظائف الدينية والديوانية، وأرباب الحرف والصناعات، والباعة وطلاب العلم ثم الحرافيش. ولكل طبقة اجتماعية أحياؤها التي تقطن بها فسكنت الطبقة الحاكمة في الأحياء الراقية وشيدوا قصورهم حول بركة الأزبكية وبركة الفيل والخليج الناصري وبولاق، وسكنت الطبقات الشعبية في القاهرة التي قسمت شوارعها إلى حارات ذات أبواب تغلق في الليل على سكانها وسميت كل حارة تبعًا لحرفة قاطنيها مثل حارة السقائين، حارة النحاسين.

وقد قسم المؤرخ المعروف الهمذاني المجتمع المملوكي إلى أربع طبقات، تتكون الطبقة الأولى من السلاطين والوزراء وأمراء المماليك وقادة الجيش، أما الطبقة الثانية فضمت أرباب العمائم من علماء وقضاة وموظفين وكانت لهم امتيازات مالية وأدبية عظيمة، وضمت الطبقة الثالثة التجار الذين اقتنوا ثروات طائلة من عملهم بالتجارة ولعبوا أدوارًا مهمة في دعم الاقتصاد المصري كما ضمت هذه الطبقة أيضًا طلبة العلم، وأخيرًا طبقة العامة التي كانت تؤلف الجزء الأكبر من الهرم الاجتماعي وضمت أرباب الحرف والصناع المهرة، والفلاحين من عمال زراعيين ومستأجرين ولم يكن يطلق عليهم لقب فلاح بل لقب نبطي من بعد الفتح الإسلامي. ويقسم المؤرخ المعروف المقريزي سكان مصر إلى سبع فئات فيقول: «اعلم أن الناس بإقليم مصر في الجملة على سبعة أقسام: القسم الأول: أهل الدولة، والقسم الثاني: أهل اليسار من التجار وأولي النعمة من ذوي الرفاهية، والقسم الثالث: الباعة، وهم متوسطو الحال من التجار، يقال لهم: أصحاب البز، ويلحق بهم أصحاب المعايش وهم السُّوقة، والقسم الرابع: أهل الفلح وهم أهل الزراعات والحرث وسكان القرى والريف، والقسم الخامس: الفقراء وهم جُل الفقهاء

وطلاب العلم، والكثير من اجناد الحلقة ونحوهم، والقسم السادس: ارباب الصنائع والاجراء، وأصحاب المهن، والقسم السابع: ذوو الحاجة». وبالرغم من أن تقسيم المقريزي يعيبه أنه لم يراع فيه وضع العلماء في مكانهم الصحيح في أول الهرم الاجتماعي وأنه قدم الفلاحين لدرجة متقدمة عن حقيقة وضعهم إلا أنه لا يخلو من فائدة، وتشمل هذه الفئات رجال الدولة وجنودها وأثرياء التجار والباعة وتجار الأقمشة وأصحاب المطابخ والحوانيت والفلاحين ورجال الدين والمعلمين وطلاب العلم والقضاة والكتاب ورجال العسس ثم أصحاب الحرف والصناعات والعمال.

وقد رفعت الطبقة الحاكمة فئة من المصريين على قمة الهرم الاجتماعي للطبقة المحكومة وهم فئة أرباب العمائم الذين تقلدوا الوظائف الدينية والديوانية المهمة وأطلقت عليهم المصادر أسماء متعددة مثل أرباب العمائم أو المعممين، وتمتعوا بقدر كبير من الامتيازات الأدبية والمادية مثل القضاة والعلماء والفقهاء وأرباب الوظائف الحكومية والتجار ولكنهم لم يبلغوا المرتبة العليا التي تجعلهم ينضمون إلى الطبقة الحاكمة.

وعلى رأس طبقة أرباب العمائم يقع العلماء تيجان الأمة الذين أثروا بعطائهم الفكري الإنسانية، كان أصحاب الوظائف الدينية والعلماء على قمة البناء الاجتماعي لعامــة القاهـرة وأطلق عليهم أربــاب القلــم أو حملة الأقلام وأكسبهم علمهم قيادة فكرية فنالوا احترام العامة والسلطة الحاكمة معًا، وبالرغم من أن هذه الفئة تمتعت بامتيازات كبيرة وحرص السلاطين على كسب مودتهم وإعلاء قدرهم في المجالس، لكنهم تعرضوا في بعض الأحيان للعزل والمصادرات عند تغير أهواء السلاطين عليهم.

ازدهرت الحركة العلمية في عصر المماليك ازدهارًا واسعًا وصارت مصر مركزًا للنشاط العلمي والفكري والثقافي والفني نتيجة لسقوط بغداد على أيدي التتار، ولدمار بلاد الشام والأندلس على أيدي الصليبيين والمغول، صارت مصر عاصمة للعالم الإسلامي وملاذًا لكثير من العلماء والمفكرين والأدباء. وقد تميز العصر المملوكي بظهور الموسوعات الكبرى في الأدب والنحو وعلم الحديث والفقه والتاريخ وكان لهم دور بارز في المحافظة على التراث الإسلامي من الضياع بعد أن أحرق التتار مكتبة بغداد. ومن أشهر علماء العصر المملوكي العز بن عبد السلام سلطان العلماء الذي قام بالتدريس في المدرسة الصالحية وأدى دورًا رائدًا لحشد العامة لمواجهة جيوش التتار في موقعة عين جالوت. وقد اجتذب صيت مصر والقاهرة عالم الدين ابن تيمية والمؤرخ العربي ابن خلدون الذي جاء إلى القاهرة في حكم السلطان برقوق مؤسس دولة المماليك الشراكسة.

كان البناء الطبقي، في عصر سلاطين المماليك يتحدد في إطارين رئيسين؛ هما السلطة والثروة فارتفع على قمة الهرم الاجتماعي التجار الأثرياء الذين كوّنوا ثروات ضخمة من تجارتهم المزدهرة ولعبوا دورًا مهمًا في اثراء الحياة الاقتصادية. وقد شكل هولاء التجار فئة اجتماعية عليا في المجتمع القاهري ومارسوا دورًا رئيسيًا في دعم الاقتصاد المصري مما جعلهم يتقربون إلى حد كبير من دائرة السلاطين دون غيرهم من الفئات الاجتماعية، وقد خصص لهم السلاطين وظيفة تعرف بناظر البهاركارمي والتي يختص بها تجار التوابل والبهارات القادمة من الهند واليمن، وقد أشار القلقشندي لهذه الوظيفة: «وهي وظيفة جليلة تارة تضاف إلى الوزارة وتجعل تبعًا لها، وتارة تضاف إلى الخاص وتجعل تبعًا لها، وتارة تنفرد عنها بحسب ما يراه السلطان». فصار التجار والعلماء في طبقة وسطى ما بين طبقة المماليك الحاكمة وسائر الشرائح الاجتماعية الأخرى من عامة القاهرة. وقد استخدم أمراء المماليك التجار كوكلاء لهم في الأسواق بما يعود بالفائدة على الطرفين، وحذا حذوهم في هذا المجال أرباب الوظائف في الدولة من العلماء والقضاة والولاة وغيرهم. كما يذكر المؤرخون أن التجار لعبوا دورًا مهمًا يتمثل في إقراض السلاطين بالأموال عند الحاجة إليها مثلما حدث في ولاية الناصر محمد بن قلاوون

عندما اقترض من بعض التجار الاثرياء للقيام ببعض الإصلاحات الداخلية.

وهناك طبقة العوام وهم أغلبية أهل المدينة من أرباب الحرف والصُّناع وصغار التجار والباعة والجند الذين خضعوا لنظام المشيخة بين أفراد الحرفة الواحدة فلكل حرفة شيخ يسمى أسطى فيقال: شيخ الخبازين، وشيخ الطباخين، وشيخ السروجيين. يمثل أصحاب الحرف، يتحدث باسمهم ويعاقب من يخالف قواعد المهنة، ولا يجوز لأحد أن يطلع على أسرار الحرفة، وقد جرت العادة أن يرث الابن حرفة أبيه لكي تستمر الصناعة بداخل الأسرة الواحدة، ويحمل الابن نفس اللقب الذي يدل على الحرفة مثل الحريري، الحلواني، الميقاتي.

وهناك الكثير من الحرف التي سادت بين العوام مثل المزينين الذين يقومون بختان الأطفال وثقب الأذنين للبنات وخلع الأسنان، وكان المزين يحتفظ في دكانه بمختلف الأدوات التي تساعده على تأدية عمله، ومنها الطشوت والطاسات والبشاكير، والإسكافيين الذين يصنعون الأحذية الرخيصة من جلد الحمير والأحذية الباهظة من جلد الزرافات والقباقيب الخشبية، وكان هناك تجار السكسونيا الذين يطوفون بالشوارع يجمعون الملابس القديمة وقطع الصفيح والأسلاك والجلد، والسروجية الذين يصنعون سروج الخيول، والجزارين الذين يلفون اللحم في ورق شجر الموز، والباقلانيين الذين يبيعون العلف المصنوع من الفول للدواب، والرواسين الذين يبيعون الكوارع، والبابية الذين يقومون بغسل الثياب وكيها، والوقادين الذين يعمرون القناديل ويغسلونها ويغيرون ماءها، والنحاسين الذين برعوا في صناعة النحاس المكفت أي المطعم بالذهب والفضة، وأنتجوا تحفًا في غاية الإبداع، والحريريين الذين صنعوا الحرير وصبغوه، والحائكين الذين صنعوا الملابس للناس حسب الطلب وكانوا يزنون الأقمشة بالميزان عند الاستلام وبعد أسبوع يستلم المشتري الثوب بعد أن يزن القماش مرة ثانية لضمان عدم الغش، والمذهبين الذين استخدموا الزخارف الهندسية ذات الأشكال النباتية الملونة والأشكال النجمية المذهبة في صفحات المصاحف، والنحاتين الذين زخرفوا الأسطح الحجرية بنقوش هندسية وحيوانية، والعوادين الذين صنعوا آلة القانون من خشب الجوز أو من ألواح خشب الصنوبر وغيرهم.

أقبل سلاطين وأمراء المماليك على الاستماع للغناء والموسيقى، وكان هناك فئة أرباب المغنى والطرب الذين يمتهنون الغناء وعزف الموسيقى ويقومون بتسلية السلاطين والترفيه عنهم، كما كان عامة الناس يأتون بالمطربين في حفلات الزواج والأفراح.

وقد ذكرت مصادر كثيرة طائفة الحرافيش التي شكلت جزءًا كبيرًا من عامة القاهرة، وقد ظهر الحرافيش في العصر الأيوبي كفرقة قتال شعبية في الجيش اشتهرت بالجراءة والإقدام وشاركوا في الحروب الصليبية حتى بدأ دورهم العسكري يتلاشى تدريجيًا في العصر المملوكي وتحولوا إلى البطالة، وكان لهم رئيس يعرف باسم شيخ الحرافيش ولهم مشيخة لها تقاليدها ونظامها. وهناك الفلاحون وهم سكان القرى المصرية الذين عملوا بالزراعة واتخذوا من الفلاحة معاشًا لهم وكان مستواهم الاقتصادي متدنيًا فجاءوا في مرتبة متأخرة في الهرم الاجتماعي.

ويؤثر الوضع الاجتماعي للفرد على سلوكه، وقيمه، وأسلوب حياته، وقد حرص أفراد الطبقات العليا على المحافظة على مكانتهم المميزة بتشجيع الزواج بداخل طبقاتهم، ومن الناحية الأخرى كثر الزواج والتناسب ما بين أبناء الحرفة الواحدة للمحافظة على أصول الحرفة، ولكن تغير الزمان وانتهى عصر الطبقات وتحررت القيود الاجتماعية وسقطت العمائم من فوق الرءوس ومضى الزمان الجميل بأناسه ومفرداته.

وا إســـلامـــاه

فارس الفرسان يظهر في الأفق قادمًا من عمق الزمان، متدثرًا بشجاعته وإقدامه، يلفه سحر غامض، يشع من عينيه صلابة وقوة تشحذ عزائم الرجال، تتصاعد ذرات التراب من تحت قوائم فرسه الأشهب، يلمع سيفه البتار تحت أشعة الشمس الساطعة، تؤسر هيئته المفعمة بالحياة القلوب، يدوي صدى صوته في الفضاء مكبرًا فيحرك المشاعر والوجدان، يبث حكمته في كل الآذان، ينشر الحب فتتحول الرياح العواصف إلى نسمات، وصرخات المستغيثين إلى دعوات، والأحجار الصماء إلى أزهار، وينبثق نور الصباح من قلب الظلمات.

هي فترة من أشد وأحلك فترات التاريخ الإسلامي، ففي أوائل القرن السابع الهجري في زمن الخلافة العباسية ظهرت قوة جديدة في العالم؛ قبائل من البدو أقاموا في الجزء الشرقي من بلاد التركستان وشمال الصين في صحراء جوبي، وأطلق عليهم اسم التتار وكانوا يدينون بديانة عجيبة هي خليط من الدين الإسلامي والمسيحي والبوذي وكتابهم يسمى الياسك. ومن التتار جاءت قبائل أخرى مثل قبيلة المغول التي سيطرت على هذه المنطقة فأطلق اسمهم على كل القبائل، اتصف المغول بالبراعة العسكرية الفائقة والوحشية الشديدة والقسوة والهمجية وعرف عنهم الغدر ونكث العهود، ولم يكن لهم هدف إلا التدمير والإبادة فإذا دخلوا مدينة دمروها وقتلوا جميع سكانها من رجال ونساء وشيوخ وأطفال فكانوا كما قال عنهم ابن الأثير: «كأنهم لا يريدون المال ولا الملك ولكنهم يريدون فقط إفناء النوع البشري» ودب بسببهم الرعب في أوصال العالم بأسره، وكاد بطشهم الشديد يقضي على كل مظاهر الحضارة في العالم الإسلامي. وأول زعمائهم هو جنكيزخان واسمه الأصلي تموجين، وجنكيز لقب معناه قاهر العالم، وتوفي جنكيزخان بعد أن اتسعت إمبراطوريته اتساعًا كبيرًا وقسمت هذه الإمبراطورية العظيمة بين أبنائه الأربعة.

ظلت الخلافة العباسية تحكم العالم الإسلامي لمدة خمسة قرون وظهر التتار في القرن الأخير من حكم العباسيين عندما ضعف الخلفاء فشرع التتار في الاستيلاء على سائر البلدان وبدءوا بدولة الخوارزميين في بلاد فارس وما وراء النهرين فاكتسحوها وخربوا المدن وقتلوا خلقًا كثيرًا، ثم حاصر المغول بغداد (1258م) لمدة اثني عشر يومًا واقتحموا عاصمة الخلافة العباسية واستباحوها وقاموا بمذابح مروعة فأراقوا دماء مئات الآلاف من الأبرياء، ونهبوا الخزائن وقتلوا الخليفة العباسي الأخير المستعصم بالله وسائر أفراد أسرته ورجال دولته وسالت الدماء في الأزقة والطرقات كالأنهار وأصبحت بغداد مدينة موحشة وتراكمت جثث القتلى في الشوارع واجتاحها وباء شديد وقدر عدد القتلى بمليوني قتيل، وألقى المغول بملايين المجلدات التي حوتها مكتبة بغداد في نهر دجلة، ففقد العالم تراث أعظم دور العلم في الأرض في ذلك الزمان، وبدمار بغداد ومقتل الخليفة العباسي انتهت الخلافة العباسية حتى أعاد إحياءها السلطان المملوكي الظاهر بيبرس البندقداري.

ثم انطلق المغول بجيش ضخم قوامه مائة وعشرون ألف مقاتل نحو الشام بقيادة هولاكو حفيد جنكيز خان وحاصروا مدينة ميافارقين لمدة عامين حتى استسلم أهلها بعد نفاد المؤن فدخلوها وارتكبوا بها مجازر تقشعر منها الأبدان فقبضوا على الملك الكامل ناصر الدين الأيوبي وقطعوا جلده ولحمه قطعًا صغيرة ودفعوا بها إلى فمه إلى أن مات، فقطعوا رأسه وحملوها على أسنة رماحهم وطافوا بها في البلاد (1259م) فاستشرى الخوف في العالم الإسلامي. ثم توجه التتار لمدينة حلب وفتح لهم الناس أبواب المدينة بعد أن أعطوهم الأمان، وما إن دخل التتار حتى عاثوا فسادًا، وقتلوا كل أهل المدينة بأمر من هولاكو، ثم توجهوا إلى حماة التي استسلمت بدون قتال، ودمشق التي تم تسليم مفاتيحها إليهم طواعية، وبعد ذلك استولوا على بيت المقدس وغزة والكرك والشوبك.

ولكن عندما تعلو صيحات الخلاص تتجلى إرادة الشعوب الحديدية التي تتصدى للقهر وتصنع المعجزات، وظهر في أفق العالم المنقذ المخلص الملك المظفر سيف الدين قطز الذي سلط على رقاب التتار فنحرها بسيفه البتار، رجل من أعظم شخصيات التاريخ الإسلامي، اتصف بالنبل والشجاعة والفروسية والتواضع، ويُعد سيف الدين قطز من أبرز سلاطين مصر على الرغم من أن فترة حكمه لم تدم سوى عام واحد، فقد أيقظ روح الجهاد في الأمة الإسلامية، وحد الصفوف ونجح في إعادة تعبئة الجيش المصري، واستطاع أن يوقف زحف المغول الذي كاد أن يقضي على الدولة الإسلامية بأسرها وهزمهم هزيمة منكرة في موقعة عين جالوت.

نشأ قطز عبدًا مملوكًا اسمه الأصلي محمود بن ممدود وهو ابن أخت جلال الدين الخوارزمي ملك الخوارزميين، أسر التتار أسرته، واختطفوه طفلاً وباعوه إلى تجار الرقيق، ويقال: إن لقب قطز أطلقه عليه التتار ومعناه الكلب الشرس؛ لأنه قاومهم عند أسره بشراسة. كان قطز رجلاً أبيض البشرة، أشقر الشعر، كثّ اللحية، اشتراه أحد الأيوبيين ويسمى ابن الزعيم بدمشق وانتقل من سيد إلى آخر حتى انتهى به المطاف عند أحد أمراء مماليك البيت الأيوبي بمصر عز الدين أيبك ليصبح من أكبر قواده. ويروي شمس الدين الجزري في تاريخه عن سيف الدين قطز: «لما كان في رق موسى بن غانم المقدسي بدمشق ضربه سيده وسبه بأبيه وجده، فبكى ولم يأكل شيئًا سائر يومه، فأمر ابن الزعيم الفراش أن يترضاه ويطعمه، فروى الفراش أنه جاءه بالطعام وقال له: كل هذا البكاء من لطمة؟ فقال قطز: إنما بكائي من سبه لأبي وجدي وهما خير منه. فقلت: من أبوك؟! واحد كافر! فقال: والله ما أنا إلا مسلم ابن مسلم، أنا محمود بن ممدود ابن أخت خوارزم شاة، من أولاد الملوك فسكت وترضيته».

وتدرج قطز في المناصب حتى صار قائدًا للجيوش ثم نائبًا لعز الدين أيبك الذي تولى مقاليد الحكم بعد زواجه من شجر الدر سلطانة مصر، وبعد مقتل الملك المعز عز الدين أيبك على يد زوجته شجر الدر تولى حكم البلاد ابنه الصغير المنصور نور الدين علي، وتولى سيف الدين قطز الوصاية على السلطان الصغير الذي كان يبلغ من العمر خمسة عشر عامًا فقط، وأدار أمور البلاد فعليًا لقرابة ثلاث سنوات.

وبعد وصول قوات المغول إلى حلب صارت مهمة القائد المظفر قطز صعبة للغاية فعليه أن يواجه الخطر الداخلي المتمثل في الفوضى والصراع على السلطة بين المماليك فقد جلس على عرش مصر خلال عشرة أعوام حوالي ستة حكام، بالإضافة إلى الأزمة الاقتصادية الطاحنة التي كانت تمر بها البلاد من جراء الحملات الصليبية المتكررة، كما كان على قطز أن يواجه الخطر الخارجي المتمثل في الغزو التتري الداهم المتحالف مع الصليبيين في الشرق والغرب، فقرر قطز عزل السلطان الصغير واعتلاء عرش مصر ليوطد دعائم حكمه حتى يتمكن من الاستعداد للقاء التتار.

جمع قطز الأمراء وكبار القادة والعلماء وقال لهم: «إني ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتر، ولا يتأتى ذلك بغير ملك، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالأمر لكم، أقيموا في السلطة من شئتم» فقطع أطماع المماليك في الحكم عن طريق توحيدهم خلف هدف واحد، وهو وقف الزحف التتري الغاشم، فقبل المماليك وهدأ معظم الحضور. وقد دب خلاف كبير بين المماليك البحرية التابعين لفارس الدين أقطاي أتابك الدولة وبين المماليك المعزية التي تتبع السلطان عز الدين أيبك والتي كان قطز ينتمي إليها بسبب مقتل فارس الدين أقطاي زعيم المماليك البحرية على يد سلطانة مصر شجر الدر، وبعد مقتل أقطاي فر المماليك البحرية إلى مختلف إمارات الشام، وكان من بينهم ركن الدين بيبرس البندقداري. ولما اعتلى قطز عرش مصر استقدم المماليك البحرية من الشام واستقبلهم استقبالاً لائقًا وتصالح معهم ورفع شأن ركن الدين بيبرس وأنزله دار الوزارة وأقطعه قليوب وما حولها من القرى وعامله كأمير من الأمراء المقدمين وجعله على مقدمة جيوشه.

كانت العلاقات مع إمارات الشام التابعة للايوبيين متوترة فسعى قطز إلى تحييد امراء الشام ليخلوا له الطريق مع التتار دون أن يتعاونوا معهم ضده، وأرسل برسالة إلى الناصر يوسف الأيوبي يعرض عليه الوحدة وتولي ملك مصر والشام، ولكن الناصر الأيوبي رفض، فسقطت كل من حلب ودمشق في يد التتار، وفر الناصر الأيوبي إلى فلسطين، وبعد فراره انضمت جيوشه إلى قطز فازدادت قوة الجيش المصري.

وبينما كان قطز مستغرقًا في إعادة ترتيب الأمور وصل رسل هولاكو حاملين رسالة تقطر كبرًا وغطرسة تحوي تهديدًا ووعيدًا نصها: «بسم إله السماء الواجب حقه، الذي ملكنا أرضه وسلطنا على خلقه، الذي يعلم به الملك المظفر الذي هو من جنس المماليك، صاحب مصر وأعمالها، وسائر أمرائها وجندها وكتابها وعمالها، وباديها وحاضرها، وأكابرها وأصاغرها، إنا جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه، وسلطنا على من حل به غيظه، فلكم بجميع الأمصار معتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم، وسلموا إلينا أمركم، قبل أن ينكشف الغطاء، ويعود عليكم الخطأ، فنحن ما نرحم من بكى، ولا نرق لمن اشتكى، فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد، فعليكم بالهرب، وعلينا بالطلب، فأي أرض تؤويكم، وأي بلاد تحميكم، وأي ذلك ترى، ولنا الماء والثرى، فما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من أيدينا مناص، فخيولنا سوابق، وسيوفنا صواعق، ورماحنا خوارق، وسهامنا لواحق، وقلوبنا كالجبال، وعديدنا كالرمال، فالحصون لدينا لا تمنع، والجيوش لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يسمع؛ لأنكم أكلتم الحرام، وتعاظمتم عن رد السلام، وخنتم الأيمان، وفشا فيكم العقوق والعصيان، فأبشروا بالمذلة والهوان، وقد ثبت أن نحن الكفرة وأنتم الفجرة، وقد سلطنا عليكم من بيده الأمور المدبرة، والأحكام المقدرة، فكثيركم عندنا قليل، وعزيزكم لدينا ذليل، وبغير المذلة ما لملوككم علينا من سبيل، فلا تطيلوا الخطاب، وأسرعوا رد الجواب، قبل أن تضرم الحرب نارها، وتوري شرارها، فلا تجدون منا جاهًا ولا عزًا، ولا كتابًا ولا حرزًا، إذ أزتكم رماحنا أزًا وتدهون منا بأعظم داهية، وتصبح بلادكم منكم خالية، وعلى عروشها خاوية، فقد أنصفناكم إذ أرسلنا إليكم، وَمنَنَّا برسلنا عليكم».

وأمام هذا الخطر الداهم عقد السلطان قطز مجلسًا من كبار الأمراء والمستشارين وأطلعهم على الرسالة وكان من رأي بعض الأمراء الاستسلام للتتار لتجنب ويلات الحرب فأخذ قطز يستثير نخوتهم ويستنهض شجاعتهم قائلاً: «أنا ألقى التتار بنفسي يا أمراء المسلمين، لكم زمان تأكلون من بيت المال وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته وإن الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين». فأثرت كلمته في نفوسهم فتحمس القواد والأمراء ووقف قطز يخطب فيهم باكيًا: «يا أمراء المسلمين، من للإسلام إن لم نكن نحن»، فقام الأمراء يعلنون موافقتهم على الجهاد والاستعداد للحرب ومواجهة التتار. وأمر قطز بقطع أعناق رسل التتار الأربع والعشرين الذين أرسلهم إليه هولاكو مهددًا، وعلق رءوسهم في الريدانية، (العباسية)، وأبقى على الرسول الخامس والعشرين ليحمل الأجساد إلى هولاكو وأرسل الرسل في الديار المصرية تنادي بالجهاد ووجوبه وفضائله وكان العز بن عبد السلام ينادي في الناس بنفسه فهب نفر كثير وانضموا للجيش.

اقترح الملك المظفر قطز أن تفرض على الناس ضرائب لدعم الجيش، وكان هذا القرار يحتاج إلى فتوى شرعية، فاستفتى قطز العلماء في جواز فرض الأموال على العامة لإنفاقها على الجيش فتهيب العلماء في الإفتاء وتوجسوا إن هم أفتوا بالجواز أن يغضب العامة، وإن أفتوا بالمنع يغضب السلطان، فظلوا يتدافعون الإفتاء حتى حسم الأمر سلطان العلماء العز بن عبد السلام؛ العالم الذي لا يخشى في الله لومة لائم، ويجاهر بآرائه المخالفة فأفتى قائلاً: إنه لا يجوز فرض الأموال على العامة حتى يرد الأمراء ما لديهم من كنوز إلى بيت المال، فإن لم تف بالحاجة جاز فرض الأموال على العامة لإنفاقها على الاستعداد للجهاد. وقال مقولته الشهيرة: «إذا طرق العدو البلاد وجب على العالم كلهم قتالهم وجاز أن يؤخذ من الرعية ما يستعان به على جهازهم، بشرط ألا يبقى في بيت المال شيء، وأن تبيعوا ما لكم من الممتلكات والآلات

ويقتصر كل منكم على فرسه وسلاحه وتتساووا في ذلك انتم والعامة، واما اخذ اموال العامة مع بقاء ما في أيدي قادة الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا». وقبل قطز كلام الشيخ العز بن عبد السلام، وبدأ بنفسه فباع كل ممتلكاته، وأمر الوزراء والأمراء أن يمتثلوا للأمر فانصاع الجميع .وتم تجهيز الجيش

ونودي في القاهرة والفسطاط وسائر أقاليم مصر بالخروج إلى الجهاد (يا أهل مصر، الله أكبر الله أكبر حي على الجهاد، يا أهل مصر، التتار على الأبواب)، وتقدم قطز يحث الجنود للخروج إلى القتال فقد صمم على لقاء التتار خارج الأراضي المصرية حتى يجنب مصر ويلات الحرب.
وخرج قطز على رأس الجيوش رابط الجأش، وبدأت الحرب الضارية صباح يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان (658هـ) (1260م) وأعطى كتبغا قائد التتار إشارة البدء لقواته، وتلاحم الفريقان وانقضت قوات المغول بشراسة على طلائع الجيوش المصرية في منطقة تسمى عين جالوت بين مدن جنين والناصرة وبيسان في شمال فلسطين وثبتت القوات الإسلامية مع قلة عددها، واقتضت خطة السلطان قطز بأن يستنزفوا مجهود القوات التترية في معركة قوية قبل أن يبدأ في تنفيذ الجزء الثاني من الخطة الذي يقتضي بأن تتخفى القوات الرئيسية في التلال والأحراش القريبة من عين جالوت وألا يظهر للعدو المتربص سوى المقدمة التي كان يقودها الأمير بيبرس البندقداري، ثم يتم سحب جيش التتار إلى داخل سهل عين جالوت ليقعوا في الكمائن المنصوبة تمهيدًا لحصارهم. وبدأ بيبرس في تنفيذ الخطة وتظاهر بالهزيمة وانخدع كتبغا قائد التتار حتى سحب جيوشه بالكامل بداخل السهل فنزلت الكتائب الإسلامية من كل جانب من خلف التلال وأحاطوا بقوات التتار، واشتبك الجيشان في معركة طاحنة وعلت أصوات الجنود وصيحات التكبير وارتفعت سحب الغبار واحتدمت ساحة المعركة، واشتد صليل السيوف وسالت الدماء وتناثرت الأشلاء. ولكن ظهر تفوق الميمنة التترية التي كانت تضغط على الجناح الأيسر للقوات المصرية فبدأت القوات المصرية تتراجع تحت الضغط الرهيب للتتار، واخترق التتار ميسرة الجيش واشتد الخطر فلو أكمل التتار اختراقهم للميسرة فسيلتفون حول الجيش المصري بأكمله، وبدأ الشهداء يتساقطون، وكان قطز يقف في مكان عال خلف الصفوف يراقب الموقف بأكمله ويوجه فرق الجيش إلى سد الثغرات، وشاهد قطز معاناة ميسرة الجيش فدفع إليها بآخر الفرق النظامية من خلف التلال ولكن الضغط التتري استمر فما كان من قطز إلا أن نزل بنفسه إلى ساحة القتال لتثبيت الجنود ورفع روحهم المعنوية وألقى بخوذته على الأرض تعبيرًا عن رغبته في الشهادة واستهتاره بالموت وأخذ قطز يصرخ أمام جيوشه قائلا: «وا إسلاماه، يا أللّه، انصر عبدك قطز على التتار»، فأشعل حماس الجنود وسار قطز مع رجاله متغلغلًا في صفوف الأعداء وقاتل قتالًا عنيفا حتى ارتبكت صفوف التتار، وصوب أحد التتار سهمه نحو قطز فأخطأه ولكنه أصاب الفرس الذي كان يركبه فقتل الفرس من ساعته، وترجل قطز على الأرض وقاتل ماشيًا بدون خيل له ورآه أحد أمراء المماليك وهو يقاتل ماشيًا فجاءه مسرعًا وتنازل له عن فرسه إلا أن قطز امتنع وقال: «ما كنت لأحرم المسلمين نفعك» وظل يقاتل ماشيًا إلى أن أتوه بفرس من الخيول الاحتياطية، وقد لامه بعض الأمراء على هذا الموقف وقالوا له: «لم لم تركب فرس فلان؟! فلو أن بعض الأعداء رآك لقتلك وهلك الإسلام بسببك». فقال قطز: «أما أنا فكنت أروح إلى الجنة، وأما الإسلام فله رب لا يضيعه». وانقض الجيش المصري على الجيش المغولي الذي فوجئ بهذا الثبات والصبر في القتال وقتل قائدهم كتبغا نوين، وطار رأسه في أرض المعركة فانهارت عزائمهم وسقطت جحافل التتار صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية وفر .الباقون مذعورين إلى التلال المجاورة

ولم يكتف المسلمون بهذا النصر، بل تتبعوا الفلول الهاربة من جيوش المغول التي تجمعت في بيسان القريبة من عين جالوت واشتبكوا معهم في لقاء حاسم، واشتدت وطأة القتال ودارت معركة أخرى في بيسان أصعب من الأولى هزمت فيها فلول التتار وارتفعت راية الإسلام عالية خفاقة، وانتهت أسطورة التتار المرعبة وتم قهر الخوف القابع في النفوس وصار الفرسان الذين تحدوا الموت أبطالًا خالدين أمَدَ الدهر. وأبيد جيش التتار الذي روع العالم وسفك الدماء - عن

اخره ولم يبق منه احد، وحين اطمان قطز إلى نصر الله عز وجل ترجل عن فرسه ومرغ وجهه على أرض المعركة وقبلها وصلى ركعتين شكرًا لله. وقرر قطز تحرير كل مدن الشام فذهب إلى دمشق وحررها من التتار بعد خمسة أيام من موقعة عين جالوت، وخرج كل أهل دمشق واستقبلوه استقبال الفاتحين، وبعث بيبرس بقيادة جيش فحرر حمص وحلب وأعلن قطز توحيد مصر والشام في دولة واحدة تحت زعامته وبدأ يوزع الولايات الإسلامية على أمراء المماليك.

وتُعد موقعة عين جالوت من أهم المعارك الفاصلة في التاريخ الإسلامي وعلى الرغم من أنها تمت في يوم واحد إلا أن آثارها كانت هائلة فقد أنقذت العالم الإسلامي من خطر داهم وحافظت على حضارته من الضياع والانهيار، وأوقفت المد المغولي الذي أسقط الخلافة العباسية، وحمت العالم الأوروبي من شر لم يكن لأحد من ملوك أوروبا وقتئذ أن يدفعه، كما أدت المعركة لانحسار نفوذ المغول في بلاد الشام وخروجهم منها نهائيًا وولدت دولة المماليك التي حكمت العالم الإسلامي لأكثر من قرنين ونصف القرن من الزمان من (1250 - 1517م) فعاد الأمن والأمان للعالم، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يهزم فيها المغول منذ عهد جنكيزخان.

وأقفل قطز عائدًا إلى مصر تغمره نشوة الانتصار، ولما بلغ بلدة القصير بالشرقية، دبر له شركاؤه في النصر مؤامرة دنيئة برئاسة ركن الدين بيبرس البندقداري الذي أضمر له السوء بعد أن أشعل زملاؤه نار الحقد في قلبه فعزم على قتل السلطان واتفق مع جماعة من المماليك الصالحية على قتله. ويذكر المؤرخون أسبابًا عديدة لإقدام بيبرس وزملائه على هذه الفعلة النكراء منها رغبة بعض المماليك البحرية الأخذ بثأر زعيمهم فارس الدين أقطاي، ومنها أن ركن الدين بيبرس البندقداري قد سأل الملك المظفر قطز أن يجعله واليًا على حلب فلم يجبه إلى طلبه فأضمر له الغدر. وقد انتهز بيبرس فرصة تعقب السلطان لأرنب يريد صيده، وابتعاده عن حرسه فتعقبه هو والأمراء المتآمرون، ولما حانت الفرصة حمل عليه بيبرس وانهالت طعنات الغدر على صاحبه ثم هوى عليه بقية الأمراء بسيوفهم حتى تركوه جسدًا هامدًا، وانتهت حياة بطل عين جالوت نهاية مأساوية لم يكن يستحقها. وانتقلت السلطة إلى بيبرس قبل أن تجف دماء قطز الذي تم دفنه بمدينة القصير وكان الناس يكثرون من زيارته للترحم عليه والدعاء له فقيمة الرجال تقاس بأعمالهم الخالدة وليست بطول أعمارهم فلم يبق قطز في كرسي الحكم سوى أحد عشر شهرًا وسبعة عشر يومًا فقط وتوفي بعد خمسين يومًا من موقعة عين جالوت.

وننتقل إلى مصر حيث خرج العامة ينتظرون موكب السلطان ودقت البشائر بالقلعة وأقيمت الزينات بالقاهرة وسائر مدن مصر لاستقبال السلطان المظفر قطز الذي حقق بشجاعته وقوة إيمانه النصر العظيم على التتار، ولما تبين للناس خلو الموكب من قائدهم المحبوب ساد الهم والكرب وحزنوا عليه حزنًا شديدًا فطعنات الغدر والخيانة هي أشد من طعنات السيوف.

ويقول ابن تغري بردي في كتابه النجوم الزاهرة: «فلما انقضت الوقعة بعين جالوت تبعهم بيبرس هذا يقتل من وجده منهم إلى حمص ثم عاد فوافى الملك المظفر قطز بدمشق وكان وعده بنيابة حلب فأعطاها قطز لصاحب الموصل فحقد عليه بيبرس في الباطن واتفق على قتله مع جماعة لما عاد الملك المظفر إلى نحو الديار المصرية. ثم حمل قطز إلى القاهرة فدفن بها بعد أن قتل مظلومًا ولقي حتفه بيد الغدر والاغتيال، وقتل وهو يحمل فوق رأسه أكاليل النصر بعد أن حكم لمدة أحد عشر شهرًا وثلاثة عشر يومًا، وحلف العسكر للملك الظاهر بيبرس وتم أمره في السلطنة وأطاعه العساكر ثم ركب وساق في جماعة من أصحابه حتى وصل إلى قلعة الجبل فدخلها من غير ممانع واستقر ملكه وأطلق على نفسه لقب الملك الظاهر بيبرس».

يتقلب الدهر وتتكشف جروح الروح فيعتصر الفؤاد حزنًا ويبقى الحلم الساكن في الأعماق، قد يمضي الإنسان عمره كله معلقًا أمنياته على جدران الرجاء متلمسًا شعاعًا من ضوء في قلب ظلمة الواقع لتنير سماءه، أو متمسكا بطوق نجاة على أمل أن ترسو سفينته يومًا على شاطئ

الامل، وجاء ذلك اليوم لقطز الذي امضى عمره كله يحلم فيه بالعزة والكرامة فحرر العالم من بطش التتار الجبارين وغير وجه التاريخ بشجاعته التي بددت ظلمات اليأس وخسفت بالظلام الجاثم على الكون بأسره.



من أون إلى القاهـرة

تاريخ مصر طويل ممتد، عمرها هو عمر الحضارة الإنسانية، دونت تاريخها على كل ذرة رمل من أرضها، أقام المصريون على ضفاف النيل ليستمدوا منه الحياة، وعلى مدار ستة آلاف عام تغيرت عاصمة مصر خمسًا وعشرين مرة واتسمت كل عاصمة بشخصيتها المتفردة، كانت أون هي العاصمة الأولى منذ أكثر من أربعة آلاف عام، وتوالت العواصم على مر السنين حتى أنشأ القائد عمرو بن العاص الفسطاط، وأقام العباسيون العسكر، وشيد الأمير أحمد بن طولون القطائع، وأخيرًا بنى الفاطميون عاصمة مصر الأزلية القاهرة التي ضمت في جنباتها ملامح كل العصور.

مع الفتح الإسلامي لمصر (641م) أراد الصحابي الجليل عمرو بن العاص أن يتخذ من مدينة الإسكندرية التي كانت عاصمة لمصر الرومانية مقرًا لحكمه، وخصوصًا أن قصورها صارت خالية من أصحابها الذين فروا إلى بلاد الروم، ولكن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه رفض وكتب إليه قائلًا: «لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلًا تحول الماء بيني وبينهم شتاءً أو صيفا»، فامتثل عمرو للأمر وشيد عاصمته الجديدة في موقع متميز في السهل الواقع بين حصن بابليون وجبل المقطم قريبًا من رأس الدلتا ليشرف على جميع طرق الملاحة في فروع النهر القديمة وعلى جميع طرق القوافل في الصحراء. وأنشأ عمرو جامعه الخالد تاج الجوامع واختط من حوله سائر أحياء المدينة لتقيم بها القبائل التي وفدت معه، وظلت الفسطاط عاصمة لمصر لمدة مائة وعشرة أعوام. ويذكر بعض المؤرخين أن الفسطاط اكتسبت اسمها من خيمة عمرو التي أقامها في وسط معسكره عند إنشاء المدينة، ولما أراد الخروج لفتح مدينة الإسكندرية طلب من عماله أن يقوموا بفك خيمته فوجدوا أن يمامة قد بنت عشها فوق الخيمة فتفاءل عمرو بوجودها وأمر بإبقاء الفسطاط مكانه ورعاية اليمامة حتى يكبر صغارها ويكسو أجنحتها الريش.

وتُعد الفسطاط أول حاضرة لمصر الإسلامية ظلت مركزًا للسيادة طوال عصر الخلفاء الراشدين والدولة الأموية، وقد وصف المؤرخون الفسطاط بأنها مدينة ذات شوارع مرصوفة، منازلها فسيحة تتوسطها نوافير المياه والحدائق الداخلية، وكانت المساكن ترتفع بها إلى خمسة أدوار وربما سكن الدار الواحدة مائتان من السكان، كما ضمت المدينة الكثير من الحمامات العامة، وقد تعرضت الفسطاط للتخريب نتيجة لحريق شاور في نهاية العصر الفاطمي (1168م) الذي جعلها حطامًا وأطلالًا فهجرها أهلها.

ولما أفل نجم الأمويين وزالت دولتهم قامت الدولة العباسية على يد الخليفة أبي العباس الذي بعث القائد (أبو عون عبد الملك بن يزيد) كوالٍ على مصر، أنشأ أبو عون مدينة العسكر (750م) في مكان يطلق عليه الحمراء القصوى بجبل يشكر بالقرب من جبل المقطم شمال شرق مدينة الفسطاط لاستيعاب أعداد الجنود العظيمة التي أتت مع العباسيين، وصارت العسكر ثانية عواصم مصر الإسلامية حكم مصر منها خمسة وستون واليًا عباسيًا. كان جامع العسكر يتوسط المدينة وتحيط به دار الإمارة ودار العسكر ولم يبق من مدينة العسكر اليوم أي أثر يذكرنا بها.

ولما آل حكم مصر إلى القائد التركي أحمد بن طولون قام بتشييد عاصمة مصر الثالثة القطائع (870م) بعد أن قام بحركة انفصالية واستقل عن الدولة العباسية وشيد بها جامعه المشهور جامع أحمد بن طولون، وظلت القطائع عاصمة لمصر لمدة سبعة وثلاثين عامًا حتى زوال الدولة الطولونية فتعرضت المدينة للتخريب على يد العباسيين الذين أعادوا العسكر كمقر للحكم مرة أخرى. ويرجع اسم مدينة القطائع إلى نظام تخطيطها المتقاطع الذي نقله ابن طولون عن طراز مدينة سامراء في العراق مسقط رأسه التي نشأ وترعرع بين ربوعها ولم تفارق معالمها خياله فنقلها إلى مصر، وكان كل حي يضم جماعة من السكان تربطهم رابطة واحدة كحرفة محددة أو

طبقة واحدة ويطلق على كل حي اسم القطيعة. وتوسط المدينة مسجد أحمد بن طولون الذي يُعد من أكبر مساجد العالم الإسلامي وأروعها، تبلغ مساحته 2500 متر مربع واشتهر باسم الجامع المعلق إذ يصعد إلى أبوابه بدرجات دائرية الشكل. وقد ذكر بعض المؤرخين أن تصميم الجامع وضع بناء على رغبة ابن طولون ليكون مماثلا لتخطيط الكعبة المشرفة أما مئذنته فهي مشابهة لمئذنة جامع سامراء الملوية ذات السلالم الحلزونية الخارجية، وقد حل جامع ابن طولون محل جامع عمرو بن العاص كمركز للثقافة الإسلامية. كما أنشأ أحمد إبن طولون أول بيمارستان في مصر، وسمي قصره بملحقاته بالميدان، وقد ضم القصر أبوابًا متعددة، لكل باب اسم واستخدام معين، واشتهرت القطائع في عصر خمارويه بن أحمد بن طولون بمدينة الألف ليلة وليلة لما شيد فيها منشآت تفوق الوصف والخيال تحوي سائر مظاهر الترف والبذخ.

أنشئت القاهرة في العصر الفاطمي (969م) كمدينة ملكية ومقرًّا للخلفاء الفاطميين ورجال دولتهم، وبلغت مساحتها الكلية ثلاثمائة وأربعين فدانًا، ولم يكن مسموحًا للعامة بالإقامة بداخلها في بادئ الأمر، وكانت تشتمل على قصور الفاطميين الزاهرة ومساكن الأمراء ودواوين الحكومة وخزائن المال والسلاح، وأحاط القائد جوهر الصقلي المدينة بالأسوار الحصينة، وشيد الجامع الأزهر الشريف الذي تحول إلى أكبر جامعة إسلامية، وكان الأزهر بجانب مكانته العلمية مركزا لقاضي القضاة وللمحتسب تعقد فيه المجالس السياسية والقضائية. أطلق جوهر الصقلي على العاصمة الجديدة في أول الأمر حاضرة الإسلام المنصورية نسبة إلى المنصور والد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله ولكن غيَّر المعز لدين الله هذا الاسم بعد وصوله إلى مصر وأطلق عليها القاهرة المعزية نسبة للنجم القاهر الذي بزغ في سمائها عند وضع حجر الأساس.

كان شارع القصبة شريان المدينة الرئيسي الذي نطلق عليه اليوم شارع المعز يخترق القاهرة من الشمال إلى الجنوب وينتهي شمالاً عند بابي النصر والفتوح؛ حيث تبدأ طرق القوافل الرئيسية، وينتهي شارع القصبة جنوبًا عند باب زويلة حيث يبدأ الطريق المؤدي إلى الفسطاط ومدن الوجه القبلي. وقد اخترقت مجموعة من الشوارع العرضية قلب المدينة من الشرق إلى الغرب، وكانت هناك مجموعة كبيرة من الحارات لكل منها مدخل يفتح على الشارع الرئيسي وباب يغلق في الليل ولا يدخلها إلا سكانها. وأقام القائد جوهر الصقلي أسوارًا من اللبن حول المدينة الجديدة لحمايتها وشيد ثمانية أبواب وجعل في كل ضلع من أضلاع السور بابين، ومع انتقال العمران إلى القاهرة أخذت الفسطاط في الزوال وهجرها سكانها لتعمير المدينة الجديدة. وظلت القاهرة منذ عهد الفاطميين حتى الوقت الحاضر عاصمة لمصر ولم يقتصر تخطيطها على الحدود التي خطها الفاطميون، بل ظلت تمتد شمالاً وغربًا وازدادت مساحتها عامًا بعد عام لتقابل الزيادة السكانية المستمرة.

وعندما قضى القائد صلاح الدين الأيوبي على الدولة الفاطمية وأنشأ الدولة الأيوبية، شرع بجمع العواصم الأربع السابقة ليتخذ منها عاصمة موحدة تتفق مع عظمة ملكه، فاحتوت القاهرة الأيوبية كافة ما سبقها من عواصم إسلامية وتألفت من الفسطاط، العسكر، القطائع، والقاهرة المعزية، وشرع الناصر صلاح الدين في بناء سور من الحجر يمتد من أثر النبي جنوبي الفسطاط وينتهي عند قلعة المقس يجمع بداخله العواصم الأربع التي كانت تقع فيما بين شاطئ النيل الشرقي وتلال جبل المقطم تلي الواحدة الأخرى، كما أنشأ الناصر صلاح الدين الأيوبي قلعة الجبل (1176م) فوق أعلى موقع من جبل المقطم لتكون حصنًا للمدينة وأقام بها حامية الجنود للتصدي لأي غارات خارجية، وبعد وفاة الناصر صلاح الدين الأيوبي أكمل بناء القلعة أخوه الملك العادل.

وفي العصر المملوكي تحررت القاهرة من أسوارها الفاطمية التي تلاشت وسط الأحياء فلم تعد مدينة محصنة، وبلغت القاهرة المملوكية أكبر نمو لها في سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثالثة وازدادت رقعتها وتركز هذا النمو في المنطقة الواقعة أسفل قلعة الجبل حيث شيد أمراء المماليك

العديد من الدور والقصور والمساجد الضخمة، وصارت القاهرة المملوكية حاضرة للعالم الإسلامي بأسره ومركزا لإمبراطورية شاسعة الأرجاء، ومنارًا للثقافة والعلوم الإسلامية.

وفي العصر العثماني امتد العمران بالقاهرة من جهة بولاق، وشيدت بها العديد من الجوامع والوكالات والحمامات العامة حتى بلغ عدد وكالاتها في نهاية العصر العثماني أكثر من خمس وستين وكالة وقيسارية وانفتحت المدينة نحو الغرب. ومع الاحتلال الفرنسي لمصر (1798م) حل الدمار على الكثير من الأحياء والمناطق أثناء ثورات العامة ضد الفرنسيين الذين هدموا أبواب الأحياء لأغراض أمنية واستخدموها للتدفئة، وهدموا المصاطب أمام الحوانيت لتسهيل المرور ومنع القاهريين من استخدامها في إقامة المتاريس.

على مدى أربعة عشر قرنًا توسعت أرجاء القاهرة وتضاعف عدد حاراتها ودروبها ومساجدها، وتمتد أطرافها اليوم على شاطئ النهر الخالد بأبراجها العالية التي مزجت بين العمارة الإسلامية والعمارة الحديثة، ويعلو الصخب في شوارعها المزدحمة التي لا تهدأ فيها حركة الحياة، وأحيائها التي ما زالت تحتفظ بطابعها القديم، تتجدد فيها مظاهر الحياة كل يوم، وتظهر وجهها الحقيقي المشرق فتستدعي في النفس الذكريات الجميلة وتحرك ذكرى الأيام المولية.



أربـــاب العمائـم

أهل العمائم يمثلون عقل الأمة ووجدانها وقد احتلوا مكانة عالية لدى الحكام والمحكومين على مر العصور ، يختلف كل عصر في طبقاته وشرائحه الاجتماعية المتعددة التي تنقل لنا صورة حية عن طبيعة الحياة وهناك قوانين تنظم العلاقة بين الطبقات الاجتماعية المختلفة في المجتمع ليسود التوازن والاستقرار ، كان البناء الطبقي في عصر سلاطين المماليك يتحدد في إطارين رئيسين هما السلطة والثروة، ومن الممكن الحراك بداخل الهرم الاجتماعي صعوداً أو هبوطا للطبقة المحكومة، ولكن من المستحيل الانضمام للطبقة الحاكمة.

اتسمت الحياة في العصر الأيوبي بالصرامة الشديدة وسادت الروح العسكرية وغابت الرفاهية وقل الترف، وجاء على قمة الطبقات الاجتماعية السلاطين الذين تبوّءوا مكانتهم على ذروة هرم الدولة بما يملكونه من أجود الأراضي الزراعية، كما ضمت هذه الطبقة القواد العسكريين الذين تصدوا للأخطار الخارجية، وطبقة الأشراف بما نالوه من احترام وتبجيل من جميع فئات المجتمع لشرف انتسابهم للبيت النبوي الشريف، كما انتمى كبار العلماء والفقهاء لهذه الطبقة وتمتعوا بمكانة اجتماعية مميزة بين الفئات المختلفة وأدوا دورًا فكريًا وروحيًا رائدًا في تعبئة جهود العامة لمواجهة الخطر الصليبي بالإضافة إلى قربهم من السلاطين. أما الطبقة الوسطى فكانت تضم سائر العلماء والفقهاء والأدباء وكبار التجار والأطباء، وشملت طبقة العامة أرباب الحرف والصناعات والفلاحين والرقيق. وقد حُرمت هذه الشرائح من تقلد أي سلطة في الدولة ولكن نظر المجتمع إلى أرباب الحرف نظرة تقدير وإعزاز ويتضح ذلك بوضوح في الأمثال الشعبية التي عبرت عن نبض فئات الأمة ومعتقداتهم فقد أعطت هذه الأمثال أهمية كبيرة للعمل فقالوا «الإيد البطالة نجسة».

ويمكن تقسيم المجتمع القاهري في العصر المملوكي إلى طبقتين أساسيتين: الطبقة الحاكمة والطبقة المحكومة، فكان المماليك في إطار اجتماعي واحد كطبقة حاكمة متميزة تمتعت بالسلطة والثروة وتضم السلطان، وأمراء المماليك، والجند، أما طبقة العامة المحكومة فكانت تضم سائر فئات المجتمع من علماء وفقهاء وقضاة وتجار وأرباب الوظائف الدينية والديوانية، وأرباب الحرف والصناعات، والباعة وطلاب العلم ثم الحرافيش. ولكل طبقة اجتماعية أحياؤها التي تقطن بها فسكنت الطبقة الحاكمة في الأحياء الراقية وشيدوا قصورهم حول بركة الأزبكية وبركة الفيل والخليج الناصري وبولاق، وسكنت الطبقات الشعبية في القاهرة التي قسمت شوارعها إلى حارات ذات أبواب تغلق في الليل على سكانها وسميت كل حارة تبعًا لحرفة قاطنيها مثل حارة السقائين، حارة النحاسين.

وقد قسم المؤرخ المعروف الهمذاني المجتمع المملوكي إلى أربع طبقات، تتكون الطبقة الأولى من السلاطين والوزراء وأمراء المماليك وقادة الجيش، أما الطبقة الثانية فضمت أرباب العمائم من علماء وقضاة وموظفين وكانت لهم امتيازات مالية وأدبية عظيمة، وضمت الطبقة الثالثة التجار الذين اقتنوا ثروات طائلة من عملهم بالتجارة ولعبوا أدوارا مهمة في دعم الاقتصاد المصري كما ضمت هذه الطبقة أيضًا طلبة العلم، وأخيرًا طبقة العامة التي كانت تؤلف الجزء الأكبر من الهرم الاجتماعي وضمت أرباب الحرف والصناع المهرة، والفلاحين من عمال زراعيين ومستأجرين ولم يكن يطلق عليهم لقب فلاح بل لقب نبطي من بعد الفتح الإسلامي.
ويقسم المؤرخ المعروف المقريزي سكان مصر إلى سبع فئات فيقول: «اعلم أن الناس بإقليم مصر في الجملة على سبعة أقسام: القسم الأول: أهل الدولة، والقسم الثاني: أهل اليسار من التجار وأولي النعمة من ذوي الرفاهية، والقسم الثالث: الباعة، وهم متوسطو الحال من التجار، يقال لهم: أصحاب البز، ويلحق بهم أصحاب المعايش وهم السُّوقة، والقسم الرابع: أهل الفلح وهم أهل الزراعات والحرث وسكان القرى والريف، والقسم الخامس: الفقراء وهم جُل الفقهاء

وطلاب العلم، والكثير من اجناد الحلقة ونحوهم، والقسم السادس: ارباب الصنائع والاجراء، وأصحاب المهن، والقسم السابع: ذوو الحاجة». وبالرغم من أن تقسيم المقريزي يعيبه أنه لم يراع فيه وضع العلماء في مكانهم الصحيح في أول الهرم الاجتماعي وأنه قدم الفلاحين لدرجة متقدمة عن حقيقة وضعهم إلا أنه لا يخلو من فائدة، وتشمل هذه الفئات رجال الدولة وجنودها وأثرياء التجار والباعة وتجار الأقمشة وأصحاب المطابخ والحوانيت والفلاحين ورجال الدين والمعلمين وطلاب العلم والقضاة والكتاب ورجال العسس ثم أصحاب الحرف والصناعات والعمال.

وقد رفعت الطبقة الحاكمة فئة من المصريين على قمة الهرم الاجتماعي للطبقة المحكومة وهم فئة أرباب العمائم الذين تقلدوا الوظائف الدينية والديوانية المهمة وأطلقت عليهم المصادر أسماء متعددة مثل أرباب العمائم أو المعممين، وتمتعوا بقدر كبير من الامتيازات الأدبية والمادية مثل القضاة والعلماء والفقهاء وأرباب الوظائف الحكومية والتجار ولكنهم لم يبلغوا المرتبة العليا التي تجعلهم ينضمون إلى الطبقة الحاكمة.

وعلى رأس طبقة أرباب العمائم يقع العلماء تيجان الأمة الذين أثروا بعطائهم الفكري الإنسانية، كان أصحاب الوظائف الدينية والعلماء على قمة البناء الاجتماعي لعامة القاهرة وأطلق عليهم أرباب القلم أو حملة الأقلام وأكسبهم علمهم قيادة فكرية فنالوا احترام العامة والسلطة الحاكمة معًا، وبالرغم من أن هذه الفئة تمتعت بامتيازات كبيرة وحرص السلاطين على كسب مودتهم وإعلاء قدرهم في المجالس، لكنهم تعرضوا في بعض الأحيان للعزل والمصادرات عند تغير أهواء السلاطين عليهم.

ازدهرت الحركة العلمية في عصر المماليك ازدهارًا واسعًا وصارت مصر مركزًا للنشاط العلمي والفكري والثقافي والفني نتيجة لسقوط بغداد على أيدي التتار، ولدمار بلاد الشام والأندلس على أيدي الصليبيين والمغول، صارت مصر عاصمة للعالم الإسلامي وملاذًا لكثير من العلماء والمفكرين والأدباء. وقد تميز العصر المملوكي بظهور الموسوعات الكبرى في الأدب والنحو وعلم الحديث والفقه والتاريخ وكان لهم دور بارز في المحافظة على التراث الإسلامي من الضياع بعد أن أحرق التتار مكتبة بغداد. ومن أشهر علماء العصر المملوكي العز بن عبد السلام سلطان العلماء الذي قام بالتدريس في المدرسة الصالحية وأدى دورًا رائدًا لحشد العامة لمواجهة جيوش التتار في موقعة عين جالوت. وقد اجتذب صيت مصر والقاهرة عالم الدين ابن تيمية والمؤرخ العربي ابن خلدون الذي جاء إلى القاهرة في حكم السلطان برقوق مؤسس دولة المماليك الشراكسة.

كان البناء الطبقي، في عصر سلاطين المماليك يتحدد في إطارين رئيسين؛ هما السلطة والثروة فارتفع على قمة الهرم الاجتماعي التجار الأثرياء الذين كوّنوا ثروات ضخمة من تجارتهم المزدهرة ولعبوا دورًا مهمًا في اثراء الحياة الاقتصادية. وقد شكل هولاء التجار فئة اجتماعية عليا في المجتمع القاهري ومارسوا دورًا رئيسيًا في دعم الاقتصاد المصري مما جعلهم يتقربون إلى حد كبير من دائرة السلاطين دون غيرهم من الفئات الاجتماعية، وقد خصص لهم السلاطين وظيفة تعرف بناظر البهاركارمي والتي يختص بها تجار التوابل والبهارات القادمة من الهند واليمن، وقد أشار القلقشندي لهذه الوظيفة: «وهي وظيفة جليلة تارة تضاف إلى الوزارة وتجعل تبعًا لها، وتارة تضاف إلى الخاص وتجعل تبعًا لها، وتارة تنفرد عنها بحسب ما يراه السلطان».
فصار التجار والعلماء في طبقة وسطى ما بين طبقة المماليك الحاكمة وسائر الشرائح الاجتماعية الأخرى من عامة القاهرة. وقد استخدم أمراء المماليك التجار كوكلاء لهم في الأسواق بما يعود بالفائدة على الطرفين، وحذا حذوهم في هذا المجال أرباب الوظائف في الدولة من العلماء والقضاة والولاة وغيرهم. كما يذكر المؤرخون أن التجار لعبوا دورًا مهمًا يتمثل في إقراض السلاطين بالأموال عند الحاجة إليها مثلما حدث في ولاية الناصر محمد بن قلاوون

.عندما اقترض من بعض التجار الاثرياء للقيام ببعض الإصلاحات الداخلية

وهناك طبقة العوام وهم أغلبية أهل المدينة من أرباب الحرف والصُناع وصغار التجار والباعة والجند الذين خضعوا لنظام المشيخة بين أفراد الحرفة الواحدة فلكل حرفة شيخ يسمى أسطى فيقال: شيخ الخبازين، وشيخ الطباخين، وشيخ السروجيين. يمثل أصحاب الحرف، يتحدث باسمهم ويعاقب من يخالف قواعد المهنة، ولا يجوز لأحد أن يطلع على أسرار الحرفة، وقد جرت العادة أن يرث الابن حرفة أبيه لكي تستمر الصناعة بداخل الأسرة الواحدة، ويحمل الابن .نفس اللقب الذي يدل على الحرفة مثل الحريري، الحلواني، الميقاتي

وهناك الكثير من الحرف التي سادت بين العوام مثل المزينين الذين يقومون بختان الأطفال وثقب الأذنين للبنات وخلع الأسنان، وكان المزين يحتفظ في دكانه بمختلف الأدوات التي تساعده على تأدية عمله، ومنها الطشوت والطاسات والبشاكير، والإسكافيين الذين يصنعون الأحذية الرخيصة من جلد الحمير والأحذية الباهظة من جلد الزرافات والقباقيب الخشبية، وكان هناك تجار السكسونيا الذين يطوفون بالشوارع يجمعون الملابس القديمة وقطع الصفيح والأسلاك والجلد، والسروجية الذين يصنعون سروج الخيول، والجزارين الذين يلفون اللحم في ورق شجر الموز، والباقلانيين الذين يبيعون العلف المصنوع من الفول للدواب، والرواسين الذين يبيعون الكوارع، والبابية الذين يقومون بغسل الثياب وكيها، والوقادين الذين يعمرون القناديل ويغسلونها ويغيرون ماءها، والنحاسين الذين برعوا في صناعة النحاس المكفت أي المطعم بالذهب والفضة، وأنتجوا تحفًا في غاية الإبداع، والحريريين الذين صنعوا الحرير وصبغوه، والحائكين الذين صنعوا الملابس للناس حسب الطلب وكانوا يزنون الأقمشة بالميزان عند الاستلام وبعد أسبوع يستلم المشتري الثوب بعد أن يزن القماش مرة ثانية لضمان عدم الغش، والمذهبين الذين استخدموا الزخارف الهندسية ذات الأشكال النباتية الملونة والأشكال النجمية المذهبة في صفحات المصاحف، والنحاتين الذين زخرفوا الأسطح الحجرية بنقوش هندسية وحيوانية، .والعوادين الذين صنعوا آلة القانون من خشب الجوز أو من ألواح خشب الصنوبر وغيرهم

أقبل سلاطين وأمراء المماليك على الاستماع للغناء والموسيقى، وكان هناك فئة أرباب المغنى والطرب الذين يمتهنون الغناء وعزف الموسيقى ويقومون بتسلية السلاطين والترفيه عنهم، كما .كان عامة الناس يأتون بالمطربين في حفلات الزواج والأفراح

وقد ذكرت مصادر كثيرة طائفة الحرافيش التي شكلت جزءًا كبيرًا من عامة القاهرة، وقد ظهر الحرافيش في العصر الأيوبي كفرقة قتال شعبية في الجيش اشتهرت بالجراءة والإقدام وشاركوا في الحروب الصليبية حتى بدأ دورهم العسكري يتلاشى تدريجيًا في العصر المملوكي وتحولوا إلى البطالة، وكان لهم رئيس يعرف باسم شيخ الحرافيش ولهم مشيخة لها تقاليدها ونظامها. وهناك الفلاحون وهم سكان القرى المصرية الذين عملوا بالزراعة واتخذوا من الفلاحة معاشًا .لهم وكان مستواهم الاقتصادي متدنيًا فجاءوا في مرتبة متأخرة في الهرم الاجتماعي

ويؤثر الوضع الاجتماعي للفرد على سلوكه، وقيمه، وأسلوب حياته، وقد حرص أفراد الطبقات العليا على المحافظة على مكانتهم المميزة بتشجيع الزواج بداخل طبقاتهم، ومن الناحية الأخرى كثر الزواج والتناسب ما بين أبناء الحرفة الواحدة للمحافظة على أصول الحرفة، ولكن تغير الزمان وانتهى عصر الطبقات وتحررت القيود الاجتماعية وسقطت العمائم من فوق الرءوس .ومضى الزمان الجميل بأناسه ومفرداته

وا إســـلامـــاه

فارس الفرسان يظهر في الأفق قادمًا من عمق الزمان، متدثرًا بشجاعته وإقدامه، يلفه سحر غامض، يشع من عينيه صلابة وقوة تشحذ عزائم الرجال، تتصاعد ذرات التراب من تحت قوائم فرسه الأشهب، يلمع سيفه البتار تحت أشعة الشمس الساطعة، تؤسر هيئته المفعمة بالحياة القلوب، يدوي صدى صوته في الفضاء مكبرًا فيحرك المشاعر والوجدان، يبث حكمته في كل الآذان، ينشر الحب فتتحول الرياح العواصف إلى نسمات، وصرخات المستغيثين إلى دعوات، والأحجار الصماء إلى أزهار، وينبثق نور الصباح من قلب الظلمات.

هي فترة من أشد وأحلك فترات التاريخ الإسلامي، ففي أوائل القرن السابع الهجري في زمن الخلافة العباسية ظهرت قوة جديدة في العالم؛ قبائل من البدو أقاموا في الجزء الشرقي من بلاد التركستان وشمال الصين في صحراء جوبي، وأطلق عليهم اسم التتار وكانوا يدينون بديانة عجيبة هي خليط من الدين الإسلامي والمسيحي والبوذي وكتابهم يسمى الياسك. ومن التتار جاءت قبائل أخرى مثل قبيلة المغول التي سيطرت على هذه المنطقة فأطلق اسمهم على كل القبائل، اتصف المغول بالبراعة العسكرية الفائقة والوحشية الشديدة والقسوة والهمجية وعرف عنهم الغدر ونكث العهود، ولم يكن لهم هدف إلا التدمير والإبادة فإذا دخلوا مدينة دمروها وقتلوا جميع سكانها من رجال ونساء وشيوخ وأطفال فكانوا كما قال عنهم ابن الأثير: «كأنهم لا يريدون المال ولا الملك ولكنهم يريدون فقط إفناء النوع البشري» ودب بسببهم الرعب في أوصال العالم بأسره، وكاد بطشهم الشديد يقضي على كل مظاهر الحضارة في العالم الإسلامي. وأول زعمائهم هو جنكيزخان واسمه الأصلي تموجين، وجنكيز لقب معناه قاهر العالم، وتوفي جنكيزخان بعد أن اتسعت إمبراطوريته اتساعًا كبيرًا وقسمت هذه الإمبراطورية العظيمة بين أبنائه الأربعة.

ظلت الخلافة العباسية تحكم العالم الإسلامي لمدة خمسة قرون وظهر التتار في القرن الأخير من حكم العباسيين عندما ضعف الخلفاء فشرع التتار في الاستيلاء على سائر البلدان وبدءوا بدولة الخوارزميين في بلاد فارس وما وراء النهرين فاكتسحوها وخربوا المدن وقتلوا خلقًا كثيرًا، ثم حاصر المغول بغداد (1258م) لمدة اثني عشر يومًا واقتحموا عاصمة الخلافة العباسية واستباحوها وقاموا بمذابح مروعة فأراقوا دماء مئات الآلاف من الأبرياء، ونهبوا الخزائن وقتلوا الخليفة العباسي الأخير المستعصم بالله وسائر أفراد أسرته ورجال دولته وسالت الدماء في الأزقة والطرقات كالأنهار وأصبحت بغداد مدينة موحشة وتراكمت جثث القتلى في الشوارع واجتاحها وباء شديد وقدر عدد القتلى بمليوني قتيل، وألقى المغول بملايين المجلدات التي حوتها مكتبة بغداد في نهر دجلة، ففقد العالم تراث أعظم دور العلم في الأرض في ذلك الزمان، وبدمار بغداد ومقتل الخليفة العباسي انتهت الخلافة العباسية حتى أعاد إحياءها السلطان المملوكي الظاهر بيبرس البندقداري.

ثم انطلق المغول بجيش ضخم قوامه مائة وعشرون ألف مقاتل نحو الشام بقيادة هولاكو حفيد جنكيز خان وحاصروا مدينة ميافارقين لمدة عامين حتى استسلم أهلها بعد نفاد المؤن فدخلوها وارتكبوا بها مجازر تقشعر منها الأبدان فقبضوا على الملك الكامل ناصر الدين الأيوبي وقطعوا جلده ولحمه قطعًا صغيرة ودفعوا بها إلى فمه إلى أن مات، فقطعوا رأسه وحملوها على أسنة رماحهم وطافوا بها في البلاد (1259م) فاستشرى الخوف في العالم الإسلامي. ثم توجه التتار لمدينة حلب وفتح لهم الناس أبواب المدينة بعد أن أعطوهم الأمان، وما إن دخل التتار حتى عاثوا فسادًا، وقتلوا كل أهل المدينة بأمر من هولاكو، ثم توجهوا إلى حماة التي استسلمت بدون قتال، ودمشق التي تم تسليم مفاتيحها إليهم طواعية، وبعد ذلك استولوا على بيت المقدس وغزة والكرك والشوبك.

ولكن عندما تعلو صيحات الخلاص تتجلى إرادة الشعوب الحديدية التي تتصدى للقهر وتصنع المعجزات، وظهر في أفق العالم المنقذ المخلص الملك المظفر سيف الدين قطز الذي سلط على رقاب التتار فنحرها بسيفه البتار، رجل من أعظم شخصيات التاريخ الإسلامي، اتصف بالنبل والشجاعة والفروسية والتواضع، ويُعد سيف الدين قطز من أبرز سلاطين مصر على الرغم من أن فترة حكمه لم تدم سوى عام واحد، فقد أيقظ روح الجهاد في الأمة الإسلامية، وحد الصفوف ونجح في إعادة تعبئة الجيش المصري، واستطاع أن يوقف زحف المغول الذي كاد أن يقضي على الدولة الإسلامية بأسرها وهزمهم هزيمة منكرة في موقعة عين جالوت.

نشأ قطز عبدًا مملوكًا اسمه الأصلي محمود بن ممدود وهو ابن أخت جلال الدين الخوارزمي ملك الخوارزميين، أسر التتار أسرته، واختطفوه طفلاً وباعوه إلى تجار الرقيق، ويقال: إن لقب قطز أطلقه عليه التتار ومعناه الكلب الشرس؛ لأنه قاومهم عند أسره بشراسة. كان قطز رجلاً أبيض البشرة، أشقر الشعر، كثَّ اللحية، اشتراه أحد الأيوبيين ويسمى ابن الزعيم بدمشق وانتقل من سيد إلى آخر حتى انتهى به المطاف عند أحد أمراء مماليك البيت الأيوبي بمصر عز الدين أيبك ليصبح من أكبر قواده. ويروي شمس الدين الجزري في تاريخه عن سيف الدين قطز: «لما كان في رق موسى بن غانم المقدسي بدمشق ضربه سيده وسبه بأبيه وجده، فبكى ولم يأكل شيئًا سائر يومه، فأمر ابن الزعيم الفراش أن يترضاه ويطعمه، فروى الفراش أنه جاءه بالطعام وقال له: كل هذا البكاء من لطمة؟ فقال قطز: إنما بكائي من سبه لأبي وجدي وهما خير منه. فقلت: من أبوك؟! واحد كافر! فقال: والله ما أنا إلا مسلم ابن مسلم، أنا محمود بن ممدود ابن أخت خوارزم شاة، من أولاد الملوك فسكت وترضيته».

وتدرج قطز في المناصب حتى صار قائدًا للجيوش ثم نائبًا لعز الدين أيبك الذي تولى مقاليد الحكم بعد زواجه من شجر الدر سلطانة مصر، وبعد مقتل الملك المعز عز الدين أيبك على يد زوجته شجر الدر تولى حكم البلاد ابنه الصغير المنصور نور الدين علي، وتولى سيف الدين قطز الوصاية على السلطان الصغير الذي كان يبلغ من العمر خمسة عشر عامًا فقط، وأدار أمور البلاد فعليًا لقرابة ثلاث سنوات.

وبعد وصول قوات المغول إلى حلب صارت مهمة القائد المظفر قطز صعبة للغاية فعليه أن يواجه الخطر الداخلي المتمثل في الفوضى والصراع على السلطة بين المماليك فقد جلس على عرش مصر خلال عشرة أعوام حوالي ستة حكام، بالإضافة إلى الأزمة الاقتصادية الطاحنة التي كانت تمر بها البلاد من جراء الحملات الصليبية المتكررة، كما كان على قطز أن يواجه الخطر الخارجي المتمثل في الغزو التتري الداهم المتحالف مع الصليبيين في الشرق والغرب، فقرر قطز عزل السلطان الصغير واعتلاء عرش مصر ليوطد دعائم حكمه حتى يتمكن من الاستعداد للقاء التتار.

جمع قطز الأمراء وكبار القادة والعلماء وقال لهم: «إني ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتر، ولا يتأتى ذلك بغير ملك، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالأمر لكم، أقيموا في السلطة من شئتم» فقطع أطماع المماليك في الحكم عن طريق توحيدهم خلف هدف واحد، وهو وقف الزحف التتري الغاشم، فقبل المماليك وهدأ معظم الحضور. وقد دب خلاف كبير بين المماليك البحرية التابعين لفارس الدين أقطاي أتابك الدولة وبين المماليك المعزية التي تتبع السلطان عز الدين أيبك والتي كان قطز ينتمي إليها بسبب مقتل فارس الدين أقطاي زعيم المماليك البحرية على يد سلطانة مصر شجر الدر، وبعد مقتل أقطاي فر المماليك البحرية إلى مختلف إمارات الشام، وكان من بينهم ركن الدين بيبرس البندقداري. ولما اعتلى قطز عرش مصر استقدم المماليك البحرية من الشام واستقبلهم استقبالاً لائقًا وتصالح معهم ورفع شأن ركن الدين بيبرس وأنزله دار الوزارة وأقطعه قليوب وما حولها من القرى وعامله كأمير من الأمراء المقدمين وجعله على مقدمة جيوشه.

كانت العلاقات مع إمارات الشام التابعة للايوبيين متوترة فسعى قطز إلى تحييد امراء الشام ليخلوا له الطريق مع التتار دون أن يتعاونوا معهم ضده، وأرسل برسالة إلى الناصر يوسف الأيوبي يعرض عليه الوحدة وتولي ملك مصر والشام، ولكن الناصر الأيوبي رفض، فسقطت كل من حلب ودمشق في يد التتار، وفر الناصر الأيوبي إلى فلسطين، وبعد فراره انضمت جيوشه إلى قطز فازدادت قوة الجيش المصري.

وبينما كان قطز مستغرقًا في إعادة ترتيب الأمور وصل رسل هولاكو حاملين رسالة تقطر كبرًا وغطرسة تحوي تهديدًا ووعيدًا نصها: «بسم إله السماء الواجب حقه، الذي ملكنا أرضه وسلطنا على خلقه، الذي يعلم به الملك المظفر الذي هو من جنس المماليك، صاحب مصر وأعمالها، وسائر أمرائها وجندها وكتابها وعمالها، وباديها وحاضرها، وأكابرها وأصاغرها، إنا جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه، وسلطنا على من حل به غيظه، فلكم بجميع الأمصار معتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم، وسلموا إلينا أمركم، قبل أن ينكشف الغطاء، ويعود عليكم الخطأ، فنحن ما نرحم من بكى، ولا نرق لمن اشتكى، فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد، فعليكم بالهرب، وعلينا بالطلب، فأي أرض تؤويكم، وأي بلاد تحميكم، وأي ذلك ترى، ولنا الماء والثرى، فما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من أيدينا مناص، فخيولنا سوابق، وسيوفنا صواعق، ورماحنا خوارق، وسهامنا لواحق، وقلوبنا كالجبال، وعديدنا كالرمال، فالحصون لدينا لا تمنع، والجيوش لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يسمع؛ لأنكم أكلتم الحرام، وتعاظمتم عن رد السلام، وخنتم الأيمان، وفشا فيكم العقوق والعصيان، فأبشروا بالمذلة والهوان، وقد ثبت أن نحن الكفرة وأنتم الفجرة، وقد سلطنا عليكم من بيده الأمور المدبرة، والأحكام المقدرة، فكثيركم عندنا قليل، وعزيزكم لدينا ذليل، وبغير المذلة ما لملوككم علينا من سبيل، فلا تطيلوا الخطاب، وأسرعوا رد الجواب، قبل أن تضرم الحرب نارها، وتوري شرارها، فلا تجدون منا جاهًا ولا عزًا، ولا كتابًا ولا حرزًا، إذ أزتكم رماحنا أزًا وتدهون منا بأعظم داهية، وتصبح بلادكم منكم خالية، وعلى عروشها خاوية، فقد أنصفناكم إذ أرسلنا إليكم، وَمنَنّا برسلنا عليكم».

وأمام هذا الخطر الداهم عقد السلطان قطز مجلسًا من كبار الأمراء والمستشارين وأطلعهم على الرسالة وكان من رأي بعض الأمراء الاستسلام للتتار لتجنب ويلات الحرب فأخذ قطز يستثير نخوتهم ويستنهض شجاعتهم قائلاً: «أنا ألقى التتار بنفسي يا أمراء المسلمين، لكم زمان تأكلون من بيت المال وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته وإن الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين». فأثرت كلمته في نفوسهم فتحمس القواد والأمراء ووقف قطز يخطب فيهم باكيًا: «يا أمراء المسلمين، من للإسلام إن لم نكن نحن»، فقام الأمراء يعلنون موافقتهم على الجهاد والاستعداد للحرب ومواجهة التتار. وأمر قطز بقطع أعناق رسل التتار الأربع والعشرين الذين أرسلهم إليه هولاكو مهددًا، وعلق رءوسهم في الريدانية، (العباسية)، وأبقى على الرسول الخامس والعشرين ليحمل الأجساد إلى هولاكو وأرسل الرسل في الديار المصرية تنادي بالجهاد ووجوبه وفضائله وكان العز بن عبد السلام ينادي في الناس بنفسه فهب نفر كثير وانضموا للجيش.

اقترح الملك المظفر قطز أن تفرض على الناس ضرائب لدعم الجيش، وكان هذا القرار يحتاج إلى فتوى شرعية، فاستفتى قطز العلماء في جواز فرض الأموال على العامة لإنفاقها على الجيش فتهيب العلماء في الإفتاء وتوجسوا إن هم أفتوا بالجواز أن يغضب العامة، وإن أفتوا بالمنع يغضب السلطان، فظلوا يتدافعون الإفتاء حتى حسم الأمر سلطان العلماء العز بن عبد السلام؛ العالم الذي لا يخشى في الله لومة لائم، ويجاهر بآرائه المخالفة فأفتى قائلاً: إنه لا يجوز فرض الأموال على العامة حتى يرد الأمراء ما لديهم من كنوز إلى بيت المال، فإن لم تف بالحاجة جاز فرض الأموال على العامة لإنفاقها على الاستعداد للجهاد. وقال مقولته الشهيرة: «إذا طرق العدو البلاد وجب على العالم كلهم قتالهم وجاز أن يؤخذ من الرعية ما يستعان به على جهازهم، بشرط ألا يبقى في بيت المال شيء، وأن تبيعوا ما لكم من الممتلكات والآلات

ويقتصر كل منكم على فرسه وسلاحه وتتساووا في ذلك انتم والعامة، واما اخذ اموال العامة مع بقاء ما في أيدي قادة الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا». وقبل قطز كلام الشيخ العز بن عبد السلام، وبدأ بنفسه فباع كل ممتلكاته، وأمر الوزراء والأمراء أن يمتثلوا للأمر فانصاع الجميع .وتم تجهيز الجيش

ونودي في القاهرة والفسطاط وسائر أقاليم مصر بالخروج إلى الجهاد (يا أهل مصر، الله أكبر الله أكبر حي على الجهاد، يا أهل مصر، التتار على الأبواب)، وتقدم قطز يحث الجنود للخروج إلى القتال فقد صمم على لقاء التتار خارج الأراضي المصرية حتى يجنب مصر ويلات الحرب.
وخرج قطز على رأس الجيوش رابط الجأش، وبدأت الحرب الضارية صباح يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان (658هـ) (1260م) وأعطى كتبغا قائد التتار إشارة البدء لقواته، وتلاحم الفريقان وانقضت قوات المغول بشراسة على طلائع الجيوش المصرية في منطقة تسمى عين جالوت بين مدن جنين والناصرة وبيسان في شمال فلسطين وثبتت القوات الإسلامية مع قلة عددها، واقتضت خطة السلطان قطز بأن يستنزفوا مجهود القوات التترية في معركة قوية قبل أن يبدأ في تنفيذ الجزء الثاني من الخطة الذي يقتضي بأن تتخفى القوات الرئيسية في التلال والأحراش القريبة من عين جالوت وألا يظهر للعدو المتربص سوى المقدمة التي كان يقودها الأمير بيبرس البندقداري، ثم يتم سحب جيش التتار إلى داخل سهل عين جالوت ليقعوا في الكمائن المنصوبة تمهيدًا لحصارهم. وبدأ بيبرس في تنفيذ الخطة وتظاهر بالهزيمة وانخدع كتبغا قائد التتار حتى سحب جيوشه بالكامل بداخل السهل فنزلت الكتائب الإسلامية من كل جانب من خلف التلال وأحاطوا بقوات التتار، واشتبك الجيشان في معركة طاحنة وعلت أصوات الجنود وصيحات التكبير وارتفعت سحب الغبار واحتدمت ساحة المعركة، واشتد صليل السيوف وسالت الدماء وتناثرت الأشلاء. ولكن ظهر تفوق الميمنة التترية التي كانت تضغط على الجناح الأيسر للقوات المصرية فبدأت القوات المصرية تتراجع تحت الضغط الرهيب للتتار، واخترق التتار ميسرة الجيش واشتد الخطر فلو أكمل التتار اختراقهم للميسرة فسيلتفون حول الجيش المصري بأكمله، وبدأ الشهداء يتساقطون، وكان قطز يقف في مكان عال خلف الصفوف يراقب الموقف بأكمله ويوجه فرق الجيش إلى سد الثغرات، وشاهد قطز معاناة ميسرة الجيش فدفع إليها بآخر الفرق النظامية من خلف التلال ولكن الضغط التتري استمر فما كان من قطز إلا أن نزل بنفسه إلى ساحة القتال لتثبيت الجنود ورفع روحهم المعنوية وألقى بخوذته على الأرض تعبيرًا عن رغبته في الشهادة واستهتاره بالموت وأخذ قطز يصرخ أمام جيوشه قائلا: «وا إسلاماه، يا الله، انصر عبدك قطز على التتار»، فأشعل حماس الجنود وسار قطز مع رجاله متغلغلًا في صفوف الأعداء وقاتل قتالاً عنيفا حتى ارتبكت صفوف التتار، وصوب أحد التتار سهمه نحو قطز فأخطأه ولكنه أصاب الفرس الذي كان يركبه فقتل الفرس من ساعته، وترجل قطز على الأرض وقاتل ماشيًا بدون خيل له ورآه أحد أمراء المماليك وهو يقاتل ماشيًا فجاءه مسرعًا وتنازل له عن فرسه إلا أن قطز امتنع وقال: «ما كنت لأحرم المسلمين نفعك» وظل يقاتل ماشيًا إلى أن أتوه بفرس من الخيول الاحتياطية، وقد لامه بعض الأمراء على هذا الموقف وقالوا له: «لم لم تركب فرس فلان؟! فلو أن بعض الأعداء رآك لقتلك وهلك الإسلام بسببك». فقال قطز: «أما أنا فكنت أروح إلى الجنة، وأما الإسلام فله رب لا يضيعه». وانقض الجيش المصري على الجيش المغولي الذي فوجئ بهذا الثبات والصبر في القتال وقتل قائدهم كتبغا نوين، وطار رأسه في أرض المعركة فانهارت عزائمهم وسقطت جحافل التتار صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية وفر .الباقون مذعورين إلى التلال المجاورة

ولم يكتف المسلمون بهذا النصر، بل تتبعوا الفلول الهاربة من جيوش المغول التي تجمعت في بيسان القريبة من عين جالوت واشتبكوا معهم في لقاء حاسم، واشتدت وطأة القتال ودارت معركة أخرى في بيسان أصعب من الأولى هزمت فيها فلول التتار وارتفعت راية الإسلام عالية خفاقة، وانتهت أسطورة التتار المرعبة وتم قهر الخوف القابع في النفوس وصار الفرسان الذين تحدوا الموت أبطالًا خالدين أمَدَ الدهر. وأبيد جيش التتار الذي روع العالم وسفك الدماء - عن

اخره ولم يبق منه احد، وحين اطمان قطز إلى نصر الله عز وجل ترجل عن فرسه ومرغ وجهه على أرض المعركة وقبلها وصلى ركعتين شكرًا لله. وقرر قطز تحرير كل مدن الشام فذهب إلى دمشق وحررها من التتار بعد خمسة أيام من موقعة عين جالوت، وخرج كل أهل دمشق واستقبلوه استقبال الفاتحين، وبعث بيبرس بقيادة جيش فحرر حمص وحلب وأعلن قطز توحيد مصر والشام في دولة واحدة تحت زعامته وبدأ يوزع الولايات الإسلامية على أمراء المماليك.

وتُعد موقعة عين جالوت من أهم المعارك الفاصلة في التاريخ الإسلامي وعلى الرغم من أنها تمت في يوم واحد إلا أن آثارها كانت هائلة فقد أنقذت العالم الإسلامي من خطر داهم وحافظت على حضارته من الضياع والانهيار، وأوقفت المد المغولي الذي أسقط الخلافة العباسية، وحمت العالم الأوروبي من شر لم يكن لأحد من ملوك أوروبا وقتئذ أن يدفعه، كما أدت المعركة لانحسار نفوذ المغول في بلاد الشام وخروجهم منها نهائيًا وولدت دولة المماليك التي حكمت العالم الإسلامي لأكثر من قرنين ونصف القرن من الزمان من (1250 - 1517م) فعاد الأمن والأمان للعالم، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يهزم فيها المغول منذ عهد جنكيزخان.

وأقل قطز عائدًا إلى مصر تغمره نشوة الانتصار، ولما بلغ بلدة القصير بالشرقية، دبر له شركاؤه في النصر مؤامرة دنيئة برئاسة ركن الدين بيبرس البندقداري الذي أضمر له السوء بعد أن أشعل زملاؤه نار الحقد في قلبه فعزم على قتل السلطان واتفق مع جماعة من المماليك الصالحية على قتله. ويذكر المؤرخون أسبابًا عديدة لإقدام بيبرس وزملائه على هذه الفعلة النكراء منها رغبة بعض المماليك البحرية الأخذ بثأر زعيمهم فارس الدين أقطاي، ومنها أن ركن الدين بيبرس البندقداري قد سأل الملك المظفر قطز أن يجعله واليًا على حلب فلم يجبه إلى طلبه فأضمر له الغدر. وقد انتهز بيبرس فرصة تعقب السلطان لأرنب يريد صيده، وابتعاده عن حرسه فتعقبه هو والأمراء المتآمرون، ولما حانت الفرصة حمل عليه بيبرس وانهالت طعنات الغدر على صاحبه ثم هوى عليه بقية الأمراء بسيوفهم حتى تركوه جسدًا هامدًا، وانتهت حياة بطل عين جالوت نهاية مأساوية لم يكن يستحقها. وانتقلت السلطة إلى بيبرس قبل أن تجف دماء قطز الذي تم دفنه بمدينة القصير وكان الناس يكثرون من زيارته للترحم عليه والدعاء له فقيمة الرجال تقاس بأعمالهم الخالدة وليست بطول أعمارهم فلم يبق قطز في كرسي الحكم سوى أحد عشر شهرًا وسبعة عشر يومًا فقط وتوفي بعد خمسين يومًا من موقعة عين جالوت.

وننتقل إلى مصر حيث خرج العامة ينتظرون موكب السلطان ودقت البشائر بالقلعة وأقيمت الزينات بالقاهرة وسائر مدن مصر لاستقبال السلطان المظفر قطز الذي حقق بشجاعته وقوة إيمانه النصر العظيم على التتار، ولما تبين للناس خلو الموكب من قائدهم المحبوب ساد الهم والكرب وحزنوا عليه حزنًا شديدًا فطعنات الغدر والخيانة هي أشد من طعنات السيوف.

ويقول ابن تغري بردي في كتابه النجوم الزاهرة: «فلما انقضت الوقعة بعين جالوت تبعهم بيبرس هذا يقتل من وجده منهم إلى حمص ثم عاد فوافى الملك المظفر قطز بدمشق وكان وعده بنيابة حلب فأعطاها قطز لصاحب الموصل فحقد عليه بيبرس في الباطن واتفق على قتله مع جماعة لما عاد الملك المظفر إلى نحو الديار المصرية. ثم حمل قطز إلى القاهرة فدفن بها بعد أن قتل مظلومًا ولقي حتفه بيد الغدر والاغتيال، وقتل وهو يحمل فوق رأسه أكاليل النصر بعد أن حكم لمدة أحد عشر شهرًا وثلاثة عشر يومًا، وحلف العسكر للملك الظاهر بيبرس وتم أمره في السلطنة وأطاعه العساكر ثم ركب وساق في جماعة من أصحابه حتى وصل إلى قلعة الجبل فدخلها من غير ممانع واستقر ملكه وأطلق على نفسه لقب الملك الظاهر بيبرس».

يتقلب الدهر وتتكشف جروح الروح فيعتصر الفؤاد حزنًا ويبقى الحلم الساكن في الأعماق، قد يمضي الإنسان عمره كله معلقًا أمنياته على جدران الرجاء متلمسًا شعاعًا من ضوء في قلب ظلمة الواقع لتنير سماءه، أو متمسكا بطوق نجاة على أمل أن ترسو سفينته يومًا على شاطئ

الامل، وجاء ذلك اليوم لقطز الذي امضى عمره كله يحلم فيه بالعزة والكرامة فحرر العالم من بطش التتار الجبارين وغير وجه التاريخ بشجاعته التي بددت ظلمات اليأس وخسفت بالظلام الجاثم على الكون بأسره.



الـروكـات

مفردات عالم المماليك غير مألوفة للآذان، فماذا تعني كلمة الرنوك، الطباق، الروكات؟ الروك كلمة صغيرة ولكن تأثيرها كان كبيرًا على الحياة الاقتصادية، عززت مكانة السلاطين وأرست دعائم دولتهم وتركت آثارًا ملموسة على كل مظاهر الحياة في مصر المملوكية، هيا نتوغل في عالم المماليك الساحر لنكشف عن ملامح من العصر المملوكي.

استمر نظام الإقطاع المملوكي في مصر طيلة مائتي وسبعة وستين عامًا أرسى فيها جذوره في الأراضي المصرية، ولم يكن قائمًا على نظام توريث الأراضي الزراعية وإنما كان قائمًا على النظام العسكري المرتبط بالإقطاع الحربي، وكما يذكر المؤرخ المعروف القضاعي كانت مصر مقسمة إلى ثلاثة أقسام، ويطلق على كل قسم (حيز)، وتشمل خمسة وخمسين إقليمًا (كور)، وانقسمت مصر إلى قسمين هما الوجه القبلي والوجه البحري ويأتي على رأس كل من الوجهين موظف كبير يدعى «كاشف»، والاثنان يخضعان لسلطة الوالي.

وكانت الأراضي الزراعية تقع في حيازة ست فئات هي الدواوين، وأراضي الإقطاعات الحربية، ومماليك الأمراء، وإقطاع العربان، وأراضي الأوقاف وأراضي التمليك. كان هناك العديد من الدواوين التي تمثل الجهاز الإداري الذي يباشر المصالح العامة والخاصة وجميع أنشطة الدولة المختلفة مثل ديوان الخاص وهو المسئول عن الأراضي التي تقع بحيازة السلطان وهي أجود الأراضي الزراعية ويذهب ريعها إلى خزانة السلطان، وهناك ديوان المفرد المختص بأراضي المماليك السلطانية الذين يشكلون جزءًا من الجيش المصري، وكان الجيش يتكون من ثلاث فئات هي: مماليك الأمراء، ومماليك السلطانية وأجناد الحلقة وهم الفرقة الثانية في الجيش بعد المماليك السلطانية وقد شكلوا قلب الجيش وبلغ عددهم (24.000) جندي تصدوا للخطر المغولي والصليبي وكانوا هم حماة الدولة الإسلامية، وقد تقلص أجناد الحلقة إلى (8.000) مملوك في عهد الناصر محمد بن قلاوون. أما الفئة الثانية فهي أراضي الإقطاعات الحربية وهو نظام ورثه المماليك عن الأيوبيين وطوروه ويقتضي بأن يمنح كل أمير إقطاع من الأرض الزراعية يتعايش من ريعها ويكون بمثابة دخل ثابت، فالدولة توزع هذه الأراضي على الأمراء والجنود بمقدار مرتباتهم ولا يكون لهم حق امتلاكها ولا توريثها وإنما استغلالها فقط ماداموا يؤدون الواجبات المفروضة عليهم. أما الفئة الثالثة فهم مماليك الأمراء وكانوا يخدمون مقابل حصة من الأرض الزراعية وهؤلاء لم تكن إقطاعاتهم بأيديهم وإنما كانت مضافة إلى إقطاع الأمير الذي يخدمونه، والفئة الرابعة هم إقطاع العربان، وكانوا مختصين بنقل البريد والغلال، والفئة الخامسة هي أراضي الأوقاف الموقوفة على المساجد والمدارس والحرمين الشريفين، أما الفئة الأخيرة فهي أراضي التمليك التي يتم بيعها عن طريق بيت المال ولكنها كانت قليلة العدد.

وقد قام الفلاحون بزراعة هذه الأراضي وكانوا يسددون الخراج الذي صار يطلق عليه الإيجار للمقطع، ثم يتم توزيع الخراج على مستحقي الرواتب، وعادة يتم تقدير الخراج بعد هبوط الفيضان مباشرة ويشرف على هذه العملية موظف يعرف باسم مباشر الخراج. وقد ورث سلاطين المماليك النظام الإقطاعي عن الدول السابقة حيث كانت أرض مصر مقسمة إلى أربعة وعشرين قيراطا؛ أربعة قراريط للسلطان، وعشرة للأمراء، وعشرة للأجناد، وكان السلاطين من آن لآخر يقومون بتغيير عملية توزيع الأراضي لإحكام قبضتهم على الثروة الزراعية فيجري مسح شامل للأرض الزراعية لحصرها وتقدير درجة خصوبتها وهذه العملية تسمى الروك، وقد عرفت مصر نظام الروك قبل العصر المملوكي. وكلمة «روك» أصلها فرعوني ومعناها الحبل، وقد استخدمت للدلالة على عملية قياس الأرض الزراعية بالحبل وحصرها في سجلات لتقييم العقارات الثابتة، وكلمة «الروك» تعني مسحًا شاملًا للأراضي الزراعية في

البلاد لتقدير الخراج المستحق عليها لبيت المال، ويتم خلال الروك إعادة توزيع الأرض الزراعية والإقطاعات على السلاطين والأمراء والمماليك والأجناد.

وفي العصر المملوكي شكلت الزراعة جزءًا رئيسيًا من الاقتصاد فكانت هي الحرفة الأساسية للمصريين ومورد الرزق الأول، وقد اهتم سلاطين المماليك بالزراعة اهتمامًا بالغًا فعمروا الجسور وشقوا الترع وزرع الفلاحون أراضيهم مرة واحدة في السنة وهو نظام معروف بري الحياض. وبعد الفتح الإسلامي كان القمح هو أهم ما ترسله مصر لدار الخلافة، وقد ذكر المؤرخون أن من فضائل مصر ما ترسله للحرمين الشريفين من حبوب، فكانت أرض مصر كما وصفها الصحابي الجليل عمرو بن العاص (أرضها ذهب، ونيلها عجب، وخيرها جلب).

أقام المماليك الصغار في معسكرات يطلق عليها الطباق كانوا يتلقون فيها العلوم الدينية والدنيوية والعسكرية، وبعد إتمام الدراسة يعتق المملوك ويصير من الفرسان ويتم منحه قطعة من الأرض الزراعية، فلم يكن فرسان المماليك يتلقون مرتبات ثابتة، ولكن كان يتم منحهم إقطاعات من أراضي الدولة فتم تخصيص عشرة قراريط من أراضي مصر لتوزيعها عليهم باعتبارهم الجيش الحامي للبلاد، ويتراوح إقطاع المملوك ما بين عشرين وثلاثين ألف درهم سنويًا ومنهم من يبلغ إقطاعه خمسة عشر ألفا وأقلهم عشرة آلاف.

وسجل التاريخ حالات للروك تم فيها قياس الأرض الزراعية في مصر قبل العصر المملوكي فالمحاولة الأولى (716م) قام بها والي مصر ابن رفاعة في حكم الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك، والمحاولة الثانية تمت (744م) في وقت أحمد بن المدبر عامل الخراج في حكم الخليفة العباسي المعتز بالله، ويطلق على المحاولة الثالثة الروك الأفضلي (1107م) في حكم الخليفة الفاطمي الأمر بأحكام الله، وآخرها الروك الصلاحي نسبة للناصر صلاح الدين الأيوبي (1176م). أما أشهر محاولات الروك في العصر المملوكي فهما الروك الحسامي نسبة للسلطان حسام الدين لاجين (1297م) والروك الناصري (1315م) نسبة للسلطان الناصر محمد بن قلاوون.

وفي عام (1297م) وجد السلطان المملوكي المنصور حسام الدين لاجين المنصوري أن الأمراء يحصلون على إقطاعات كبيرة تفوق ما يحصل عليه الفرسان، فقرر إجراء روك عرف باسم الروك الحسامي نسبة إلى اسمه وأعاد مسح الأراضي الزراعية واستغرق عمل هذا الروك نحو ثمانية أشهر. كان الروك الحسامي هو أول دراسة مسحية شاملة للبلاد المصرية في سلطنة المماليك، وتم تنفيذه لإعادة توزيع الأراضي الزراعية بناء على أوامر السلطان لاجين الذي كان يرمي لتعزيز مكانته وتقويض مكانة الأمراء وأجناد الحلقة وانتزاع ما كان بأيديهم من سلطة كانت تهدد نفوذه. وبالفعل تقلص نصيب الأمراء وأجناد الحلقة إلى النصف فصار لهما معًا أحد عشر قيراطا، وتم تخصيص القراريط التسعة المتوافرة لمجموعة جديدة من العسكر بدأ السلطان استحداثها لتكون سندا له في مواجهة أي قوى سياسية، وظلت تخصصات السلطان التي يطلق عليها (الخاص السلطاني) كما هي أربعة قراريط. وقد تم تنفيذ الروك الحسامي بشكل سري ولم يكن متكاملا، وعندما قتل السلطان المنصور لاجين أخذ الأمراء القراريط التسعة التي كان قد خصصها لتكوين فرقة عسكرية جديدة وقاموا بتوزيعها فيما بينهم فزادت بذلك إقطاعاتهم مرة أخرى.

كان حسام الدين لاجين مملوكًا من مماليك السلطان نور الدين علي بن أيبك ويعرف باسم شقير اشتراه المنصور قلاوون ولقبه بلاجين الصغير لتمييزه عن مماليك آخرين كان لهم نفس الاسم ثم أعتقه وولاه نيابة دمشق وزوجه إحدى بناته. وفي عام (1295م) قام أمير يدعى كتبغا بعزل الناصر محمد بن قلاوون من الحكم ونصب نفسه سلطانًا مكانه وعين لاجين نائبًا للسلطنة وتناقص ماء النيل واشتد الغلاء وتفشى وباء الطاعون وكره الناس هذا السلطان الذي اقترن

حكمه بالنكبات، ولم تطل ولاية كتبغا ففي عام 1297م اتفق لاجين مع كبار الامراء على الإطاحة بكتبغا فهاجموه وهو عائد من الشام ففر إلى دمشق ولجأ إلى قلعتها فقام الأمراء بتنصيب حسام الدين لاجين سلطانًا على البلاد ولقبوه بالملك المنصور. كان لاجين محبوبًا لدى العامة والأمراء وقد تفاءل به الناس لانخفاض الأسعار يوم وصوله سلطانًا إلى القاهرة، وأكثروا له من الدعاء لاتخاذه قرارات عادلة مثل منع الظلم وأخذ المواريث بغير حق حفاظا على أموال اليتامى، وجلوسه بدار العدل يومين في الأسبوع لسماع شكوى المتظلمين وتصدقه على الفقراء وتقربه إلى عامة الشعب، واقتصاده هو وخواصه في الملبس، ولم يعب لاجين سوى انقياده لمملوكه ونائب سلطنته منكوتمر. وقد وقع لاجين في عدة هفوات منها القبض على نائب السلطنة قراسنقر وتنصيب مملوكه منكوتمر بدلاً منه على غير رغبة الأمراء، كان لاجين يحب منكوتمر حبًا جمًّا فجعله وليًا للعهد وأقرن اسمه باسمه في خطبة الجمعة والسكة ومنحه إقطاعًا عظيمًا شمل مدن ادفو وجرجا وقوص .. وغيرها، وتحكم منكوتمر تحكم الملوك في جميع أمور الدولة فغضب الأمراء وتغيرت نفوسهم نحو السلطان لاجين وحاكوا ضده المؤامرات فلم يتوان عن القبض عليهم وسجنهم. وتكمن أهمية عهد السلطان حسام الدين لاجين المنصوري في العمل السياسي الوحيد الذي تم إنجازه خلال سلطنته القصيرة وهو الروك الحسامي، وفيما عدا ذلك لا يميز عهد سلطنته أي نجاح ظاهر، وكان الروك الحسامي سببًا غير مباشر في التخلص منه لأنه انتقص من إقطاعات الأمراء مما أثار غضبهم الشديد فدبروا مؤامرة وقاموا باغتياله وهو جالس في القلعة بعد فترة حكم قصيرة امتدت لنحو سنتين وشهرين، وتوفي وهو في الخمسين من عمره.

وعندما تولى الناصر محمد بن قلاوون الحكم للمرة الثالثة قام بعمل روك يطلق عليه الروك الناصري نسبة إليه (1315م) وبعث الأمراء إلى مختلف الولايات والأعمال لقياس الأرض وأمضى الناصر محمد بن قلاوون شهرين في الوجه القبلي يشرف فيها بنفسه على خطوات إنجاز المشروع وقام بعملية مسح شامل للأراضي المصرية وأعاد توزيعها. وقد قسم الروك الناصري أرض مصر إلى أربعة وعشرين قيراطا؛ عشرة قراريط للخاص السلطاني بدلاً من أربعة فازدادت حصة السلطان بستة قراريط، وأربعة عشر قيراطا تم توزيعها كإقطاعات بين الأمراء والأجناد. وقد تغير التقسيم الإداري لمصر تغيرًا شاملاً بعد الروك الناصري؛ لأن الناصر محمد كان حريصًا على أن يكون هو القائد المباشر للجيش المملوكي والمتصرف الوحيد لمختلف مصادر الدخل في البلاد.. ويُعد الروك الناصري ثاني روك للأراضي المصرية في عهد المماليك البحرية على اعتبار أن الروك الحسامي هو الأول. وكان وراء إقدام الناصر محمد على مثل هذا العمل الشجاع رغبته الشخصية في تقوية مركزه في السلطة فقام بإعادة توزيع الأراضي الزراعية بطريقة تدعم سلطته من خلال زيادة الإقطاعات السلطانية وإضعاف سلطة كبار أمراء المماليك بتقليص إقطاعاتهم واقتطع لنفسه جزءًا كبيرًا من إقطاعات الأجناد. وقبل أن يتم توزيع الإقطاعات بين الأمراء وأجناد الحلقة عين الناصر محمد مناطق شديدة الجودة في الوجهين القبلي والبحري ضمها للخاص السلطاني.

وقد استمر العمل بالروك الناصري حتى زوال دولة بني قلاوون (1382م)، وقد حقق الروك الناصري للناصر محمد الأهداف التي كان يتطلع لتحقيقها.

بين ربـوع القاهرة المملوكيــة

تتجسد القاهرة المملوكية في خيالنا كما تصورها كتب التاريخ حالمة ساحرة، لقد أقمت في هذه المدينة العتيقة في أحلامي، ونسجت ملامحها في خيالي، حتى صرت كأني أعيشها وكأن حلمي أصبح حقيقة، فأشعلت في نفسي حنينًا مضطرمًا وشوقًا جارفا إلى دفء الحياة القديمة، في قلب أحلامي تتلألأ كل الموجودات؛ المباني المتناسقة، الأزقة المتعرجة، المشربيات المرتفعة، الطرقات الساكنة، تنبثق أضواء الشموع الخافتة، يخترق ضوؤها كياني فيذوب قلبي وتنصهر روحي بين طيات القاهرة المحروسة مدينة الألف مئذنة التي لا يوجد لها مثيل في العالم.

تزينت القاهرة المملوكية ولبست أبهى حللها وغيرت من ملامحها التي اشتهرت بها في العصر الفاطمي فاتسعت أرجاؤها وتم هدم الكثير من عمائرها القديمة وتنافس سلاطين المماليك على تشييد أروع المنشآت الدينية من مساجد ومدارس وكتاتيب وأسبلة.

القاهرة المملوكية مدينة القباب والمآذن، أبهرت عمارتها الروحية قلوب العابدين، مدينة الفن والفنانين التي تميزت بطابعها الفريد فحسرت عيون الرحالة والمؤرخين بجمالها وروعتها، وصار شارع القصبة الشارع الأعظم شريان المدينة الرئيس ومركز النشاط الصناعي والتجاري ومسار المواكب والاحتفالات وقامت الأسواق الرئيسية على جانبيه.

اتسعت رقعة القاهرة في العصر المملوكي وصارت من أكبر المدن وفاقت في حجمها وعدد سكانها كل مدن العالم الإسلامي والأوروبي، وقد قدر تعداد قاطنيها في القرن الرابع عشر الميلادي بحوالي ثلاثة ملايين نسمة. وازدادت مساحة القاهرة وضمت كل عواصم مصر الإسلامية السابقة فصارت تشمل الفسطاط التي بناها الصحابي عمرو بن العاص رضي الله عنه (641م)، والعسكر التي بناها العباسيون (750م)، والقطائع التي بناها أحمد بن طولون (870م)، والقاهرة التي بناها الفاطميون (969م). لم تكن القاهرة المملوكية مدينة محصنة فقط تلاشت أسوارها وسط أحياء المدينة وامتد العمران إلى خارج الأسوار وصارت مركز الدولة الإداري والسياسي وامتازت بكثرة منازلها وبتعدد بساتينها وبركها وقد سقفت الكثير من الشوارع بألواح خشبية لحماية المارة من وهج الشمس.

امتدت القاهرة في عهد المماليك البحرية صوب الشمال فهدموا ما تبقى من قصور الفاطميين ولم يتركوا أي قطعة أرض فارغة داخل حدود القاهرة وأقاموا بها جوامعهم ومدارسهم وسائر منشآتهم، وقد اقتفى أثرهم المماليك البرجية الذين يسمون أيضًا بالجراكسة فتوسعوا من الجهة الشمالية الشرقية، وعمروا صحراء الريدانية (العباسية اليوم) وامتدت منشآتهم لمسافات بعيدة في تلك الصحراء وشيدوا فيها المساجد والأضرحة.

وظلت قلعة الجبل طوال العصر المملوكي مقرًا للملوك والسلاطين ومركزًا لحكم البلاد، وضمت الدواوين الحكومية، وقد اتسم عصر المماليك بالصراعات الطاحنة والفتن الداخلية المشتعلة بين أمراء المماليك في سعيهم الأبدي للاستحواذ على السلطة، وكان لكل أمير جنوده وفرسانه الذين يستخدمهم لتحقيق مآربه ولإرهاب أعدائه، ولكن كل هذه الصراعات لم تؤثر على إبداعات القاهرة المملوكية فتركوا تراثًا زاخرًا ومباني معمارية متميزة وتحفًا فنية أثرت التراث العالمي.

اكتسبت القاهرة المملوكية مكانة مميزة بفضل موقعها الاستراتيجي وتحولت من مدينة ملكية إلى عاصمة سياسية وثقافية اجتذبت الفنانين والتجار والرحالة والأطباء والصناع من شتى البلدان، كما صارت قبلة للعلماء والمفكرين واستقطبت كبار رجال الدين الإسلامي. ولم يقتصر فضل

سلاطين المماليك على خدمة الإسلام داخل حدود مصر فحسب بل امتدت التاثيرات الحضارية إلى البلاد المجاورة والبعيدة وتركت بها بصمات واضحة من النواحي الدينية والثقافية فتحولت دولة المغول بأكملها للدين الإسلامي بعد أن أسلم إمبراطورها غازان.

وصارت القاهرة المملوكية عاصمة مصر التجارية ومركزًا للنقل التجاري العالمي فقد نجح المماليك في جذب تجارة شرق حوض البحر المتوسط إلى القاهرة، وكان يتم تحصيل جمارك على التجارة الواردة من الهند ومن الشرق والتي تمر على مصر في طريقها إلى أوروبا محملة بالتوابل والأحجار الكريمة، وأصبحت المدينة عامرة بالحياة والحركة وازداد ثراء أهلها وازدهرت الصناعات والحرف المختلفة.

امتازت منازل العصر المملوكي بضخامتها وجمالها وباحتوائها على سائر وسائل الرفاهية فكانت تكسى بالجص وتزين سقوفها بالرسومات وتزخرف حوائطها بالكتابات والأرابيسك وتغطي أرجاءها الستائر وأرضيتها السجاجيد والنمارق والأبسطة المخملية التي تضفي جوًّا من الثراء. وفي العصر المملوكي شيدت العديد من الديار والقصور في القاهرة، وقد ذكر منها المقريزي في خططه واحدة وستين دارًا، شيد القسم الأكبر منها في القرن الرابع عشر الميلادي، ولم يصل لنا منها اليوم إلا أربعة قصور فقط هي قصر ألين آق بشارع باب الوزير، وقصر قوصون يشبك خلف جامع ومدرسة السلطان حسن، وقصر طاز بشارع السيوفية، وقصر بشتاك في منطقة ما بين القصرين. كما أقام المماليك الاحتفالات والمواكب العظيمة في شتى المناسبات وارتدوا أفخر الثياب المصنوعة من المنسوجات الرفيعة والجبب المطعمة بالفراء والسراويل المطرزة، والأخفاف المصنوعة من أجود أنواع الجلود والأحزمة الحريرية التي يثبتون فيها أسلحتهم المرصعة بالجواهر الثمينة، ويتقلدون فوق رءوسهم العمائم والطواقي المزركشة ويركبون الجياد المطهّمة.

ولم تكن الآبار الموجودة بالقاهرة تكفي لتزويد الناس بما يحتاجونه من مياه عذبة فاعتاد السقاءون جلب مياه نهر النيل على ظهور الجمال ويمرون بها على المنازل، يبيعون الماء بالقربة مقابل أجر معين، ولتزويد المدينة والمارة بالماء شيدت العديد من الأسبلة التي يقع أسفلها خزائن يملؤها السقاءون بقربهم الجلدية، وعلى واجهة الأسبلة أحواض يأتي إليها الماء من أنابيب رصاصية ويتم تقديم الماء للناس في أكواب نحاسية.

انقسم المجتمع المصري إلى عدة طبقات على رأسها الطبقة الحاكمة التي تضم السلطان وكبار الأمراء ويأتي من بعدهم طبقة المماليك والفرسان تتبعهما الطبقة المحكومة التي يقع على رأسها كبار التجار والأعيان والفقهاء، يليهم الجنود والباعة والفلاحون والعبيد، ويطلق على أبناء المماليك الذين ولدوا في مصر ولم يمسهم العبودية والرق أولاد الناس. ولم يتقلد المماليك وحدهم الوظائف المهمة في الدولة، بل كان هناك فئة من المصريين أطلق عليهم أرباب العمائم كانوا يتقلدون الوظائف الإدارية الهامة؛ القضاة والعلماء، ويعيشون حياة ترف ورفاهية، ولم يكن أرباب العمائم هم الفئة الوحيدة من الشعب الذين يرتدون العمائم كما يوحي اللفظ بل اكتسبوا هذه التسمية لكبر حجم عمائمهم التي تميزهم عن عامة الناس.

عاش رجال ونساء العصر المملوكي في عالمين منفصلين، ولكن ذلك الانفصال لا يعني عزلة النساء فكانت لا تخلو مجتمعاتهن من البهجة. الرجل الشرقي هو رب المنزل، مظهره يدل على هيبته، فأطلق الرجال اللحى، وطول اللحية وشكلها ولونها يحدّد مكانة صاحبها الاجتماعية فهي طويلة عند الطبقة الوسطى، وقصيرة عند العمال والخدم، ولا يخرج رجل من بيته عاري الرأس أبدًا، فكانت العمائم من علامات شرف وفخر الرجال، اعتمرها الخلفاء والأمراء والوزراء والعلماء، وعكس حجمها ولونها مكانة صاحبها الاجتماعية ومهنته، ونظر الناس للرجل العاري الرأس نظرة استخفاف وكان يفقد هيبته بينهم.

شهدت القاهرة المملوكية مولد العديد من الاحياء الجديدة من اشهرها حي الازبكية الذي نشا في القرن الخامس عشر الميلادي على بعد حوالي خمسمائة متر غرب الخليج بعد أن قام الأتابكي أزبك بن ططخ الظاهري بتعمير منطقة الأزبكية التي نسبت إليه (1476م)، فقد قام بتمهيد هذه المنطقة وحفر بها بركة أطلق عليها الأزبكية وأجرى إليها الماء من الخليج الناصري، ثم شرع الناس في بناء القصور والدور حول البركة حتى صارت كما يقول ابن إياس مدينة على انفرادها. وقد أنفق الأمير أزبك مائتي ألف دينار لتشييد هذا الحي وأنشأ جامعه الكبير المنسوب إليه وأقام حوله الرباع والحمامات والقياسر والطواحين والأفران، وللأسف الشديد لم يبق من هذه المنشآت سوى اسم الأزبكية الذي ظل يطلق على البركة وعلى الحي، فقد أزيل جامع أزبك (1869م) أثناء تجديد ميدان الأزبكية. كما ولد حي آخر في العصر المملوكي هو حي بولاق العريق بعد أن بدأت جزيرة بولاق في الاندماج التدريجي بشاطئ النيل وازدادت مساحتها منذ حكم المؤيد (1415م) وصارت حافلة بالبساتين والحدائق الغناء وسكن بها الأمراء والأعيان وأقيمت فيها الأسواق والمخازن والحمامات حتى صارت في القرن الخامس عشر ميناء القاهرة النهري. وهناك جزيرة الفيل وهي المكان الذي قام عليه فيما بعد حي شبرا وروض الفرج وقد ظهرت هذه الجزيرة في النيل في أواخر الدولة الفاطمية وأطلق عليها هذا الاسم لأن مركبًا يشبه الفيل غرق في النيل وتراكم مكانه - مع مرور الوقت - الرمال والأعشاب وامتدت حتى أصبحت جزيرة يحيط بها الماء من جميع الاتجاهات واتصلت بأرض بولاق وبغيرها (1281م)، وفي أيام السلطان المملوكي المنصور قلاوون أنشأ الأمراء والأعيان بجزيرة الفيل الدور والقصور والبساتين، حتى صارت حيًّا كبيرًا به جامع وسوق ضخم وبلغ عدد بساتينها .مائة وخمسين بستانًا

أفرز العصر المملوكي أعدادًا كبيرة من الموسوعات العلمية والأدبية الجامعة التي أثرت التراث الإنساني مثل «نهاية الأرب» للنويري، و«صبح الأعشى» للقلقشندي، و«مسالك الأبصار» لابن فضل الله العمري، و«التحف السنية بأسماء البلاد المصرية» لابن جيعان، وكتب «الخطط» وغيرها، وبلغ الفن شأنًا عظيمًا واكتسب ملامح مميزة هي خلاصة حضارات متعاقبة، أضافت كل حضارة لمساتها وإبداعاتها وعبرت عن رغبة الإنسان في رؤية الجمال المطلق في كل مظاهر الحياة، فامتاز الفن المملوكي بثراء زخارفه مع الإكثار من استخدام الفسيفساء والأرابيسك والخط العربي. ويعتبر عصر سلاطين المماليك العصر الذهبي في العمارة الإسلامية، أنشأ المماليك العديد من المباني التي تخدم الأغراض الدينية من مساجد ومدارس وخوانق وأضرحة وكتاتيب والمنشآت التي تخدم الأغراض الدنيوية كالبيوت والحمامات العامة والأسبلة والبيمارستانات أي المستشفيات والمنشآت التي تخدم الأغراض التجارية كالوكالات .والخانات والقياسر

وفي العصر المملوكي أنشأ السلاطين الميادين ذات الساحات الواسعة وغرسوا بها الأشجار وأقاموا بها الاحتفالات ومارسوا بها الألعاب الرياضية المختلفة مثل رمي النشاب، وقذف الرماح، ولعبة الكرة والصولجان أو الصوالجة، ولعبة القبق. ومن أشهر هذه الميادين الميدان الناصري الذي أنشأه الناصر محمد بن قلاوون وكان يقع مكان حي جاردن سيتي اليوم والميدان الظاهري الذي أنشأه الظاهر بيبرس بأراضي اللوق. وفي العصر الطولوني كان الأمير خمارويه مولعًا بالصيد ولعًا شديدًا وكان يخرج إلى جهة الأهرام لممارسة هوايته. وفي العصر الفاطمي انتشر الصيد بين الخلفاء والوزراء وكبار رجال الدولة، وأجمع المؤرخون على ولع الخليفة العزيز بالله الفاطمي بالصيد حتى إنه كان يلقب بالخليفة الصياد، وفي الدولة الأيوبية اعتاد الناصر صلاح الدين الأيوبي الخروج للصيد في مصر وكان يمكث عدة أيام واقتفى أثره سلاطين الأيوبيين من بعده، كما ولع سلاطين المماليك بصيد الطيور والحيوانات بمساعدة .الكلاب المدربة

وقد اقتصر ركوب الخيل على السلاطين والأمراء والمماليك ، وانتقل العامة على ظهور البغال

والحمير التي كانت تعد وسيلة المواصلات الاولى التي ينتقل الناس بواسطتها داخل المدن وخارجها، وشيدوا مواقف خاصة لاستئجار الحمير أطلق على أصحابها المكارية، وكان يوجد بالقاهرة وحدها ثلاثون ألف «مكاري».

ازدهرت الصناعات المختلفة في العصر المملوكي واستخدمت المواد المتنوعة مثل صناعة النحاس المكفت أي المطعم بالذهب والفضة وكانت دكة النحاس المكفت لا غنى عنها في جهاز العرائس، ومن أجمل ما وصل لنا من العصر المملوكي المشكاوات الزجاجية المموهة بالمينا، والمغطاة بالزخارف النباتية والآيات القرآنية، والمشكاة عبارة عن مصباح زجاجي يتم وضع أداة للإضاءة بداخله مثل الشمع ويعلق بسلاسل على السقف. أبدع الفنان القديم في تكوين الأشكال الهندسية في الحوائط وفي أرضيات الجوامع والبيوت وانتشرت زخرفة الأسطح الحجرية بالأشكال الهندسية والنباتية والأطباق النجمية المتميزة. كما ازدهر فن العمارة وتطورت التصميمات الهندسية وشيد سلاطين المماليك المباني الفخمة وأدخلوا الكثير من التعديلات على العمارة الإسلامية ومن أشهر منشآت العصر المملوكي جامع ومدرسة السلطان حسن، ومدرسة برقوق ومجمع قلاوون ومجمع الغوري.

عشق سلاطين وأمراء المماليك الجمال ونشروه من حولهم فحفروا العديد من البرك وشيدوا حولها المناظر وهي قصور صغيرة الحجم تبنى للخلفاء على البحيرات للنزهة. وصارت البرك من أعظم متنزهات العصر المملوكي يذهب إليها الناس باختلاف طبقاتهم وتقام حولها الاحتفالات التي تفيض بمظاهر السرور والبذخ وتعد عامل بهجة للطبقات الشعبية. ومن أشهر هذه البرك بركة الحبش التي كانت تقع جنوب مدينة الفسطاط وقدرت مساحتها بحوالي ألف فدان وشيدت حولها المناظر والجوامع وكانت تغذى بالماء من خليج يصل إلى النيل، وبركة الشعبية التي قدرت مساحتها بأربعة وخمسين فدانًا، ويأتيها الماء من نهر النيل، وبركة قارون التي كانت تقع خلف جامع أحمد بن طولون وبلغت مساحتها خمسة عشر فدانًا، وكانت محاطة بالبساتين، وبركة الفيل أقدم وأعظم متنزهات القاهرة التي بلغت مساحتها أربعين فدانًا وبنى حولها السلاطين والأعيان القصور ذات البساتين والمناظر والمدارس والحمامات.

أسواق القاهرة متعة للمشترين، تصطف الحوانيت على جانبي الطريق ويجلس أصحابها على مصاطب مفروشة بالسجاد أو الحصير خارج الدكاكين لاستقبال الزبائن. وكانت القاهرة المملوكية تضم اثني عشر ألف حانوت تزخر بسائر أصناف البضائع والسلع، وكانت توجد أسواق متخصصة يبيع كل منها سلعة معينة، وتضاء الدكاكين ليلاً فيضاهي نورها أضواء النجوم الساطعة، وقد ألزم الوالي الباعة بكنس الشوارع أمام دكاكينهم ورشها بالماء ويعاقب محتسب القاهرة المخالفين.

زار الكثير من الرحالة مصر في العصر المملوكي وأسهبوا في وصفها فقال عنها ابن بطوطة: «هي أم البلاد، المتناهية في كثرة العمارة، المتباهية بالحسن والنضارة، مجمع الوارد والصادر، تموج موج البحر بسكانها، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها». وزار الرحالة المغربي حسن الوزان الزياتي المعروف بليو الإفريقي مصر 1517م في حكم السلطان قنصوه الغوري وانبهر بالقاهرة وقال إنها من أكبر مدن الدنيا وأروعها على الإطلاق. أما أجمل من وصفها في العصر المملوكي فهو الفيلسوف مؤسس علم الاجتماع ابن خلدون الذي زار القاهرة 1382م في حكم الظاهر برقوق فانبهر بحضارتها وبمبانيها العظيمة وبأسواقها، ووصفها قائلاً: «رأيت حاضرة الدنيا، وبستان العالم، ومحشر الأمم، ومدرج الذر من البشر، وإيوان الإسلام وكرسي الملك، تلوح القصور والأواوين في جوه، وتزهو الخوانق والمدارس والكواكب بآفاقه، وتضيء البدور والكواكب من علمائه، قد مثل بشاطئ بحر النيل نهر الجنة، ومررت في سكك المدينة تغص بزحام المارة، وأسواقها تزخر بالنعم، ومن لم يرها لم يعرف عز الإسلام».

وانتهى هذا الزمان الجميل، وأسدل الستار على دولة من أعظم الدول التي حكمت مصر ،
ومضت دولة سلاطين المماليك إلي مصيرها المحتوم وزالت علي يد الدولة العثمانية (1517م)
بعد أن تدهورت الأحوال الداخلية واكتشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح (1497م)
مما أثر على دولة المماليك التي كانت تستفيد من مرور التجارة عبر أرض مصر ، وفي الشمال
كان هناك تهديد آخر متمثل في العثمانيين الذين بدءوا في الظهور على مسرح الأحداث في
النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي بعدما اتسعت الدولة العثمانية وأسقطت
الإمبراطورية البيزنطية، وتصاعد التوتر بينها وبين المماليك وانتصر السلطان العثماني سليم
الأول على السلطان المملوكي قنصوه الغوري في معركة مرج دابق بالشام (1516م) نتيجة
لتفوق العثمانيين في القوة الحربية ولخيانة بعض أمراء المماليك، وواصل السلطان العثماني
انتصاراته في موقعة الريدانية (1517م) التي هزم فيها آخر سلاطين المماليك الملك العادل
طومان باي، وسقطت دولة المماليك بعد حوالي ثلاثة قرون من الزمان وصارت مصر مجرد
ولاية تابعة للدولة العثمانية بعد أن كانت حاضرة للعالم الإسلامي.

تضم مدينة القاهرة اليوم تراثًا حضاريًا فريدًا تمتزج فيه الحضارات المتعاقبة مع المنشآت
الحديثة فيضفي هذا المزيج الغني على القاهرة تميزًا ورقيًا حضاريًا نسجته يد التاريخ، وتُعد
القاهرة من أقدم العواصم في العالم؛ فقد تعدى عمرها الألف عام، وتستطيع الاستمرار لأكثر من
ألف عام.




جميع الكتب مجانية

المراجع

- الإمام تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، مكتبة الآداب (1996م).

- الإمام تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، تحقيق د/سعيد عبد الفتاح عاشور، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، مطبعة دار الكتب (1972م).

- الشيخ الإمام شهاب الدين عبدالله بن ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر-بيروت.

- العلامة علي بن سودون اليشبغاوي، تحقيق أرنود فروليك، نزهة النفوس ومضحك العبوس، ليدن، هولندا (1998م).

- بدر الدين محمود العيني، تحقيق فهيم محمد شلتوت ود/محمد مصطفى زيادة، السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر (1966م).

- بدر الدين محمود العيني، حققه د/محمد محمد أمين، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب (1992م).

- تحقيق د/حسين نصار، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة، القسم الخاص بالقاهرة من كتاب المغرب في حلى المغرب، مطبعة دار الكتب (1970م).

- حسن باشا، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، الدار الفنية للنشر والتوزيع (1989م).

- د/سعاد ماهر محمد، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، دار الكتب المصرية (2010م).

- شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي المحلي (790 - 850هـ)، المستطرف في كل فن مستظرف، ملتزم الطبع والنشر عبدالحميد أحمد حنفي بشارع المشهد الحسيني رقم 18 - (1936م).

- علي باشا مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب - (2009م).

- محمد بن أحمد بن إياس الحنفي المصري، بدائع الزهور في وقائع الدهور، مكتبة مدبولي (2005م).

- محمد بن محمد بن خليل الأسدي، التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار فيما يجب من حسن التدبير والتصرف والاختيار، دار الفكر العربي (1968م).

- الإمام تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك.